

خائنة إبليس

رواية

خاتنة إبليس

رضا مُحَمَّد سُلَيْمان

رواية : خائنة إبليس

الكاتب : رضا مُحمَّد سُليمان

إخراج فني : أحمد سيف الإسلام

تصميم الغلاف : عبير محمد

تدقيق لغوي : رضا مُحمَّد سُليمان

رقم الإيداع : 2018/22302

الترقيم الدولي : 978-977-85415-9-5



٩ شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوار مدارس حسام الدين الخاصة . فيصل . الجيزة
موبايل: ٠١٠٦١٨١٣٣٤٥ / ٠١١٢٦٠٢٦٦٩١ / ٠١٠٩٨٢٣٩٨٤

كلمة للمؤلف

كلُّ أنواع الخيانات منبوذة إلا نوعا واحدا، هو أن تخون إبليس الذي اتبعته وصدقت معه كثيرا، فمَنْ يَكُنْ على طريق الشر عبر زمن طويل ثم يَعْرِج منه للتوبة فهذا أمرٌ محمود.. وفي هذه الرواية أتحدث عن شخصياتٍ مِنَ الغجر، هؤلاء الذين ظلمناهم كثيرا، ووثقنا مِنْ طرق الفهم الخطأ أنهم أصحاب شر فقط، وأنهم لا يُبْصِرُونَ أيَّ طريقٍ للهداية.. فهل علمتم مَنْ هم الغجر؟ هم جماعةٌ مِنَ الناس سكنتُ مصر، وسكنتُ كلَّ بلادِ الدنيا مِنْ سوريا إلى الصين إلى المجر.. لهم عاداتٌ خاصة ككل طوائف البشر، فَإِنْ كان فيهم شر فنفسُ الشر في غيرهم.. وَإِنْ كان في غيرهم خير فقد يكون لدى الغجر خيرٌ أكثر.. وفي هذه الرواية نرى كثيرا مِنَ الشر يخرج مِنْ امرأةٍ عجربة، لكن نفس هذا الشر وأبشع قد خرج مِنْ غيرها.. فلا تربطوا الشر والسوء بطائفةٍ معينةٍ مِنَ الناس، ربما يقبل الله مِنْ غيرك ما لا يقبله مِنْك، فيتوب عليهم ولا يتوب عليك.

هذا.. ومَن كان صاحبَ شروخٍ كثيرةٍ أو عميقة فلا
يئأس حتى لا يعيش عمرا ضائعا في ضلال.. يُخْطِئ مَنْ
يظنُّ أنَّ الشروخَ لا تلتئم.. فلا تيأسوا مِنَ النجاة، فالشمسُ
لا تغربُ إلا لتُشرقَ مِنْ جديد، وتبشير الصباح الجميل لا
تخرجُ إلا مِنْ جوفِ دياجير الظلام.. اثبتوا ولا تجعلوا شيئا
يقهركم.. املاؤا شروخكم بالجمال والأمل.. كونوا كَمَنْ
يعالج كسور الأواني بالذهب.. ستبدو الشروخ أروع.

المؤلف: رضا محمد سليمان

إهدائي..

إلى كل نادمٍ عن الخطايا
إلى كل تائبٍ خرجٍ من كهفِ الظلمةِ إلى النور
إلى كل خائنٍ
وإلى كل خائنةٍ
لإبليس

.. أهدي روايتي

(١)

المجننون

السادسة صباحا خريف سنة ٢٠١٨..

أشرق النهار الجديد عن جثة رجلٍ تجاوز الخمسين من عمره، وهناك
سكينٌ مغروسٌ في رقبته حتى آخره، ترقد رقاداً أبدياً في وداعة وسكون..
وُجِدَتْ على الرصيف الملاصق لسور الحديقة الدولية بمدينة نصر.. رآها
أحد الشباب العاملين بفرع الخضر اوات والفواكه الشهير، والمواجه
لسور الحديقة الخلفي من ناحية المحال والمطاعم والمقاهي.

كانت عينا القتل مفتوحتين عن آخرهما، تنظران للسماء ذهولا كأن
صاحبهما كان يعرف قاتله، وكأن ثمة علاقة حميمة كانت تربطهما.. يبدو
أنه تلقى صدمتين، الأولى أنه فوجئ ببنهايته بهذه اليد الممتدة نحوه
بالغدر، والثانية صدمة السكين التي اخترقت الرقبة بوحشية.. عاد
العامل لزملائه يردد متأثراً:

- أشرف المجنون رأيت مقتولا بجانب السور

فأسرع العمال والباعة وبعض الناس واجتمعوا حول الجثة في صمت.. كانت نظراتهم صادرة من أعينهم لتلتقي كلها معا على منظر السكين وملامح الرجل الهادئة، فقد كانت ملامحه بعد الموت راضية، وكان وجهه الطيب الجميل صافيا يحمل علامات الاطمئنان، ومع ذلك كانت هناك شبه ابتسامة ساخرة ترسم على فمه، كتلك التي كانت لا تفارقه وهو حي مجنون، إذ ليس مستبعدا أن يكون قد ودّع الدنيا ضاحكا هازئا من كل شيء فيها، وقد يكون قد أخرج لسانه لقاتله بطريقة جنونية ذاهلة وهو يطعنه الطعنة الوحيدة القاتلة برقبته، ومن المتوقع جدا وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن يكون قد ردّد الدعاء لقاتله بالرحمة والمغفرة أكثر من مرة، ثم ردّد الشهادتين رغم جنونه، وذهب إلى مصيره.

مات الرجل المجنون وتمّ قَبْرُه بمدافن مجهولة.. مات ولم تُدرَف عليه دمعة واحدة، مات ولم تنبعث من حوله آهات حزن، أو تنطلق خلفه صيحات بكاء وعويل، مات ولم تُلَطَم من أجله خدود، أو تُشَق وراءه ثياب، مات ولم تنحن على وجهه امرأة تتلمسه بيديها، وتضم رأسه بين كفيها وترفعها إليها وهي تصرخ وتنقل عينها ما بين جسده والسماء كمدا وقهرا عليه، مات المجنون ولم يبك حول جثته أطفال له يصرخون باسمه باكين مرددين: (أبي.. لا تتركنا.. خذنا معك)، مات ولم يحمل نعشه أخوة له وهم سيكون لفراق رفيق اسمهم إلى الأبد، فالقتيل ما هو الآن



إلا أحد هؤلاء المجانين الذين ملأوا شوارع المحروسة جوارا للمتسولين والمتسكعين وأطفال الشوارع والمشردين، هؤلاء الذين سقطوا جميعاً من حسابات الأحياء، وذلك لأنهم أشبه في عالمهم بالأموال.

وكان أشرف قبل الجنون شخصا ملء السمع والأبصار عند كثيرين، فصار شخصا مجنوناً يطوي شوارع القاهرة طياً دون أن ينتبه لكلامه كثيرين.. فكلما تُ المجانين الواعظة هي عند الناس مجرد هذيان.

كان غنياً يُعطى بسخاءٍ قبل أن يُسأل، فصار لا يساوي ثمنَ رَغيف خبز في هذه الأيام القاسية الغريبة، وغاب عن دنيا الناس اللاهية في صمتٍ مؤلم دون أن يعلم بموته أحدٌ ممن ملأ حياتهم خيراً وبهجة، ودون أن يودعه أحدٌ ممن استقبلوه بفرحة حين قدومه إلى دنياهم.

فمن المؤكد أنه عندما أتى إلى هذه الدنيا الغريبة لم يأت إليها في ظل هذا الصمت، بل جاء مُحاطاً بكل أنواع السعادة والترحيب ككل إنسان، يتساوى في ذلك الخفير مع الوزير، والغني مع الفقير.

وضعت أمه يدها على بطنها لتحسُّسها بعد شعورٍ طارئٍ بالرغبة في القيء.. أخبرت عن شعورها بالحمل زوجها التاجر الأمين أحد الأمير حبيب الفقراء.. ذهب الزوجان إلى الطبيب فأخبرهما في سرور أنها حامل.. تبادلوا نظرات السعادة في غرفة الطبيب، ثم تبادلوا كلمات التهاني

طيلة الطريق حتى البيت، وفي البيت الثري السعيد راح يعاملها كملكة لأنها ستأتي له بالأمير أو الأميرة.. اشترى لها كل أنواع الطعام التي تشتتهيه.. طلب منها بصدق ألا تُرهق نفسها في أشغال البيت.. ساعدها في كثير من الأعمال، ثم راح بين وقت وآخر يتحسس بطنها، ويُنصت بأذنيه إلى حركات الجنين، وبعد مضي خمسة أشهر أخبرهما الطبيب واثقا أن الجنين ولد لا يكف عن الحركة والتجوال.. طاراً من الفرحة انتظارا للأمير القادم الذي سيملا البيت والدنيا بهجة، ويرث عن الأب الأموال الحلال وفضائل الأخلاق، وراحت الأم تُهَيِّئ لابنها ملابسها وسريره وفرشاة شعره وكل احتياجاته، وبعد طول شوق وترقب جاء الولد ليكون قرة عين أمه وأبيه.. جاء وعاش الدنيا بكل ما فيها من خيرات وشرور حتى انتهى إلى هذا المآل.

وكان تاجر الأقمشة الأمين أحمد الأمير قد تعود أن يخصص نصف ساعة في كل يوم، يعلم خلالها ابنه البكر أشرف دروسا في الدين وفي التعامل الحسن مع أخوته ومع الناس:

— أشرف.. الفقراء ثم الفقراء يا أشرف

— حاضر يا أبي

— الله أكرمني لأني أكرم كل محتاج

— سأفعل مثلك يا أبي

— لا ترد يدا تقصدك في شيء

— طبعاً يا أبي

— كُنْ قدوة لأخوتك في ذلك

— إخواني هم أمانتك عندي يا أبي فلا تقلق

وتخرج أشرف من كلية الطب ثم تزوج، ومات أبوه التاجر الأمين في السنة التي تزوج فيها، ثم لحقت أمه بأبيه في أقل من شهرين.. فصار لأخوته الأب والأم والأخ، وتولى كل محلات وتجارة والده، وأنفق على أخوته وزوجته وطفله وطفلته وعلى الفقراء بسخاء من ربح هذه الأملاك، وكان مع كل ذلك يمارس عمله كطبيب قلب، فأوقف عيادته على علاج قلوب الفقراء، ثم انتهى به الحال بأن سيق إلى الجنون.

يا الله!.. كيف تختلف النهايات عن البدايات إلى هذا الحد؟.. ألم نتعلم أن البداية المعينة المحسوبة بخطوات معينة تؤدي إلى نهاية معينة محتومة؟.. يحدث هذا في علوم مثل الرياضيات والمنطق.. فماذا يحدث هنا مع كثير من البشر والحيوانات والنبات وحتى الجماد؟.. تكون البداية رائعة ثم تؤول شيئاً فشيئاً إلى شيء آخر.. انظر كيف يتلمس بعض البشر خطاهم وخطأ أبنائهم حذرين من كل أنواع الخطر ثم فجأة يقع الخطر من حيث لا يحتسبون.. أنا بالطبع لا أعترض أبداً على أشياء محسومة بعالم الغيب ومشية الخالق وإرادته؟.. لكننا بعض البشر كنا قد أعددنا أنفسنا ومشينا

على الطريق المستقيم، وكنا قد اتبعنا (الكتالوج) كما يقول الكتاب، فلماذا الخذلان؟.. لماذا تتعطل آلة الحياة عما أردناها وتمنيناها؟.. لماذا المعاناة؟.. لماذا القتل المؤلم بالحرق والغرق وقطع الرؤوس؟.. لماذا الظلم والإرهاب وداعش؟.. ولماذا هذا السكين المغروس في رقبة ذلك المسكين؟!

حتماً إنَّ كل هذا يعود إلى إرادة الله وحكمته التي لا يُسأل عنها، فنحن يقيناً قد آمنّا بالله إيماناً راسخاً في كل شيء.. آمناً أنه رحيم، لذلك فربما لا يشعر بالألم المقتول حرقاً أو غرقاً أو ذبحاً طالما كان مظلوماً.. ربما.. وربما من الرحمة أيضاً أن غيَّب الخالق عن المخلوق حقائق كثيرة، وحجب أشياء يصير العلمُ بها شيئاً قاتلاً أو مؤلماً.. فالحيأة مليئةٌ بالغوامض والغرائب، لكن ليس هناك شيء أشد غرابية في الدنيا من الدنيا نفسها، وليس هناك أشد إيلاماً من أن ير حل إنسان بالسفر أو الموت دون أن يودعه أحد.

الوداعُ شيءٌ مريح لمن لا بد له أن يفارق، ولمن لا يملك من أمره إلا النظرة الأخيرة، وهو شيءٌ مؤلم في ذات الوقت لمن لا يتحمل الفراق، واللقاء شيءٌ محبب إلى النفس المشتاقة.. كل المخلوقات بما فيها الإنسان قد جاءوا بمظاهر استقبال مبهجة وإن كانت من الأم فقط، صاحبة المنبع الوحيد الذي يلفظ الأحياء الجدد إلى الدنيا الغامضة، لكن هناك الكثيرين قد رحلوا في غموضٍ أيضاً دون وداع، ولذلك فلحظات الميلاد محبوبة، ولحظات الموت منبوذة عند كل المخلوقات.

ولا عجب أن نرى أشخاصا كثيرين يقلقهم ما بعد الموت أكثر من الموت نفسه، يزعمهم كثيرا إلى درجة المرض ألا يمشي بجنازتهم أحد، يفكرون دائما في كمّ الأعداد التي سوف تشيعهم حتى القبر، وكمّ القلوب التي سيصيبها الحزن عليهم.. يموتون قلقا وحسرة من احتمالية أن يموتوا فلا يهتم بموتهم أحد، يخافون وهم أحياء من الخذلان بعد الموت، لذا تراهم يكثرون من الصداقات وحضور الجنازات وواجبات العزاء ليجدوا ردها حين يموتون.. وبالطبع فإنّ واحدا مثل أشرف المجنون هذا لم يكن يهتم في سنواته المجنونة بما يهتم أغلب الناس رغم أنه كان يملأ مكانه بالخير والحب خلال سنواته العاقلة الأولى.

اتصل أحد الواقفين بالشرطة، وجاءوا بعد وقتٍ طويل.. بالطبع عرفوا أنّ القتل مجنون.. ألقوا نظرة سريعة على هيئة الجثة وحالتها، ومن تلك النظرة أعلن أحدهم أنّ أشرف المجنون هذا لم يقاوم قاتله، وأعلن ثانٍ أنه قد استطاب أن يأتي أحد ويخلصه من حياة التشرّد، وأعلن ثالث أنه تلقى طعنة وحيدة قاتلة برقبته بينما كان مستلقيا كأنه عاش ينتظرها لينام نومته الأبدية في استسلام.

حملوا المجنون القتيل والسكين في رقبته.. كانت سكيننا تستخدم لقطع الموز، وبسبب ذلك تمّ القبض على كل عمال فرع الخضراوات والفواكه، لكن لم يكن القاتل أحدًا من بينهم، عُرف ذلك بعد رفع سريع للبصمات

وبعد تحرياتٍ كثيرةٍ على عجلٍ في محيط الحديقة الدولية فقط، فأفروا سريعا عن الجميع، إذ لم يصلوا الشيء، وسُجِّلَت القضية قتلا عمدا والقاتل مجهول، ثم جاءت تحرياتٍ أخرى تؤكد وجود صديق كان يُرى مع المجنون القتل في بعض الأحيان.. كان يراه الناس مجنونا لأنه كان بارعا في أن يبدو مجنونا، والأصل أنه كان يتظاهر بالمجنون.. اسمه يعقوب الأصفر.

فقبل بضعة أعوامٍ من هذا الحادث، كان يحلو لأشرف المجنون أن يقضي يومه وليله وحيدا منفردا منعزلا، وكان يَكْثُرُ له أن يمشي على الرصيف الفارق بين اتجاهي شوارع وطرق القاهرة.. كان معروفا للكثيرين من المارة الذين يحبون أن يراقبوا من نوافذ سياراتهم ما يحدث خارجها على الجانبين، ومهما كان المراقبون للمجنون كثيرين فإنه لم يكن يهتم لنظرات أحدٍ من المارة، أو يعبا بسخرية الصبية والأطفال الذين يرمونه بما يؤذيه من نوافذ السيارات، بل لقد كان يتلقى الوحز أو الحرق بأعقاب السجائر من سائقي الميكروباصات في تجاهل محير، ولا يسعه إلا أن يبتسم لهم، وفي ذات الوقت كان يتناول من بعضهم زجاجة ماء أو بعض بقايا الطعام شاكرا بطريقة مهذبة مع كثيرٍ من كلمات الحكمة، حتى لقد ظنَّ كثيرون أن هذا المجنون ليس بمجنون.

ودائما كان هذا المجنون يسير وحيدا داخل ملابسه الرثة التي اتسعت عليه بسبب نقصان وزنه، وكان ينتقل من مكان لآخر خلف هيئته التي

صارت تبدو حقيرة، ويطأً بقدميه العاريتين أسفلت الطرق القاسية صيفا وشتاءً، وقد هجر كل أنواع وماركات الثياب والأحذية التي كان يعرفها ويلبسها باستمرار، لكنه لم يهجر قلبه الذي لا يوجد عند صاحب أرقى الماركات العالمية.. كان قلبا صافيا ليس به ذرة شر.. يعشق تقديم النصح للناس مبتسما، فلا يجد منهم إلا سخرية ثم وصفا له بالجنون.. هو بالقياس إلى البشر وطبائع البشر لا يمكن إلا أن يكون نوعا آخر غير معهود، وكان الرجل يحمل صفات العبقريّة حقا كما ذكرها العقاد، طويل هو، بائنُ الطول، غزير الشعر، فائق الإلهام، كثير الصمت.. هكذا كان أشرف الأمير قبل أن يُصاب ببعض علامات الجنون، وهكذا هو أيضا بعد أن صار أغرب مجنون.

أما عن زميله يعقوب الأصفر، وأقصد زميله في الجنون الذي يراه عليهما الناس، فقد كان شخصا ذكيا ماكرا ماهرا في كل شيء، غريب الأطوار في كل تصرفاته، حاقدا على كل صاحب نعمة، يُخفي بداخله شرا قاتلا، ومع ذلك فهو يحرص على زوجته ويحب أولاده حبا مميّزا، وكان على استعداد إن كان له ألف روح أن يبذلها جميعا من أجل ألا يرى دمعة حزن تسيل من عين أحدهم.. كان يكره كل الناس إلا أولاده.. يحلم بأن تحترق الدنيا بمن فيها غير تلك البقعة من الأرض التي تتسع لهم فقط.

أخبر يعقوب صديقه أشرف أنه يُجيد أعمال الكهرباء، وكان يكسب الكثير من عمله، لكنه كان يريد الثراء الفاحش.. إنه يعيشُ المال عشقا جما، لذلك فقد قرر فجأة أن يفارق زوجته وأولاده من أجل ذلك.. أخبرهم أنهم سيكونون أفضل بغيابه، وأنه سيعود إليهم تكرارا، لذا عليهم أن يكفوا عن البحث عنه.. بالنهاية سيعود ويبقى ليعوضهم عن سنوات الفراق بأموالٍ وفرحة تُنسيهم كلَّ الآلام.. كان حقا رجلا غريبا.

خرج المجنون يعقوب الأصفر بطموحه وشره من بين أحضان بيته إلى أحضان الشوارع يحمل فوق كاهله أربعين عاما من الحقد على الأغنياء، حزن على ضياعها دون ثراء، وتعرف بعد ذلك بالمجنون أشرف أسفل كوبري العباسية تعارف اثنين من العاقلين لا اثنين من المجانين.. عرف كل منهما عن الآخر الكثير، ثم هجرا سويا هذا المكان بسبب الازدحام الذي طرأ عليه، فقد جاءهما إلى هناك مجانين آخرون ذكرانا وإناثا، وصار يتوافد عليهما في كل يوم متسولون جدد عكروا صفو جنونهما المريح، وتكاثر عليهما أطفالُ الشوارع الذين سخروا منهما ومن اختلافهما الفكري عن البقية.. آذوهما بالطرد ثم المطاردة والتعقب حتى تركا منطقة العباسية وميدان عبده باشا وجامعة عين شمس إلى شرق القاهرة.

نقلا معيشتهم المتشردة إلى شوارع مدينة نصر، وتوطدت صداقتهما هناك أكثر فوق أرصفة الطرق بها، وحول صناديق القمامة وهما يتبادلان مخلفات

الطعام وبقايا زجاجات الألبان ومعلبات العصائر وقشور الخضراوات والفواكه بين غيرهما من المجانين، ومن العقلاء أيضا، فأمام شعور الجوع يصير العاقل والمجنون متشابهين، وكانت الحداثق المظلمة بيوتها المنقلة، والسماء الممتدة هي السقف الوحيد لأهنا شخصين صارا يعيشان بغير عقل في المحروسة أمام الناس، وبكثير من العقل عندما ينفردان.

و ذات ليلة كان الصديقان نائمين على الرصيف بجوار سور الحديقة الدولية عندما قال يعقوب الأصفر لأشرف وهو يمرر أصابعه بين ثنايا لحيته الطويلة الكثيفة ليفك ما تعقد وتشابك منها:

— أشرف يا صديقي.. هل تعتبر نفسك مجنونا؟

ضحك أشرف ضحكة هادئة وقال:

— أنا وأنت من أعقل الناس يا يعقوب.. لكن يبدو أننا لم نتحمل الصدمات المتتابة

— يبدو أنك عانيت كثيرا يا أشرف

— نعم عانيت عانيت

قالها أشرف بعد أن ضحك كأنه يغني، فضحك يعقوب قائلا:

— تذكروني بكاظم الساهر.. حتى أنك تشبهه كثيرا

— أنا أحب كل أغانيه.. وأحب نزار قباني الذي يغني له معظم كلماته

— وأنا أكرههما

— لِمَ؟

— لأن الناس تحبهما.. أنا أساسا أكره كل الناس.. خاصة المحبوبين والأغنياء

— هذا فرق من الفروق التي بيني وبينك يا يعقوب.. فأنا أحب الناس كلها

— كيف تحب كل الناس ومنهم الظالم والقاتل.. وأيضا الغني الذي يتنعم وغيره يشقى؟

— أحبهم لأن من خلقهم هو الله.. فكيف أكره خلق الله؟

— آه من قلبك الجميل هذا يا أشرف.. والله إن الجنون لا يليق بك..
هيا أخبرني بكل حكايتك

— لا تُشغل بالك بي أيها المجنون

— كيف لا أشغل بالي بك.. ونحن توأمان في الجنون ومتشابهان في الكثير؟

— الحقيقة أننا لسنا متشابهين في أي شيء يا يعقوب.. نحن متناقضان تماما

— كيف؟

— مثلا.. أنت خرجت للشارع فخرج أهلك خلفك يبحثون عنك
يريدون عودتك.. وأنا خرجت للشارع فخرج أهلي خلفي
يتأكدون من عدم عودتي



— معقولة.. أنا لا أرى فيكَ إلا إنساناً مثالياً.. وفعلاً أنتَ اسم على مسمى يا أشرف.. أنتَ أشرف مَنْ عرفتُ.. يا صديقي أنتَ لا تنام حتى تراني أكلت وشبعت

وضحك أشرف الأمير ضحكة خفيفة، ثم راح يقول في حسرة:

— «أنتَ لا تنام حتى تراني أكلت وشبعت».. هذه الجملة لخصتُ كل حكايتي يا يعقوب.. فلا تسألني عن شيء آخر الآن.. يكفي أن أخبرك أنني هنا على هذه الحال بسبب هذه الجملة.

— والله لا أستطيع أن أفهمك أبداً أيها المجنون

— وهل هناك مجانين يفهمون؟

وضحك أشرف عالياً، وابتسم يعقوب الذي راح يعدل من وضع ملابسه المتسخة حول جسده قائلاً:

— صدقني يا أشرف.. ما أجمل أن يظننا الناس مجنونين!.. والله هذا أكثر راحة لنا

— معك حق.. فالمجنون يعيش في راحة لأنَّ العيون لا تراه

وكان أشرف كعادته يديم النظر إلى النجوم، فقال كلامه وضحك ضحكة جميلة وعيناه إلى السماء، ثم قال بطريقة حكيمة قد أتقنها منذ خرج للشوارع كمجنون:

— والله إننا أيضا أكثر الناس حرية ومتعة يا يعقوب.. مَنْ مِنَ الناس ترى عيناه جمال النجوم كما نراها كل ليلة؟.. مَنْ مِنَ الناس مثلنا؟.. نمشي كما نشاء.. ونأكل كما نشاء.. ونتفوه بما نشاء.. بل ونبول بالشوارع كما نشاء دون أن يلومنا أحد؟.. أعين الناس قد تعودت ألا ترى المجانين أو المتسولين في الشوارع.. الكل في عالمه الخاص.. كفانا الله شرورهم

— معك حق يا أشرف.. فانشغال الناس عنا يبعدنا عن مشاكلهم المعقدة ويبعدهم عنا

— طبعاً.. وهذا ما يجعل المجانين في نعيم
قالها المجنون أشرف ثم انخرط في الضحك، ومعه يعقوب الذي عقب:
— هذا إن كنا من المجانين يا صديقي.. لكن للأسف فنحن غالباً
من العقلاء

وحقا صدق أشرف ويعقوب، فإنَّ الناس ما بقوا يهتمون بشئون مثل هؤلاء، فصار المجانين يعيشون في نعيم قياسا بشقاء أغلب البشر ومصائب التعامل بين الناس في الحياة اليومية، ولم يكن للرجلين أن يعيشا في راحة إلا هكذا بالعيش على هامش الحياة، وبالطبع ليسا وحدهما مَنْ يعيشان على هامش الحياة.. لكن أسوأ شيء قد طرأ هو أن هامش الجميع هنا قد صار معكوسا مختلفا عن هامش صفحات الكراسات.. هامشهم هو بقدر الصفحة كلها، وهامش الصفحة الصغير هو لهؤلاء الذين

يعيشون كلَّ نعيم الحياة ظلماً ونفاقاً ونهباً، لكن المضحك لنا والمؤلم لهم أنهم قد نسوا يوم تطاير الصحف بعد فتح كل الصفحات والهوامش، يوم الحساب، وحمد الله أنَّ هناك يوماً للحساب.

لقد أهمل مَنْ يظنون أنفسهم أغنياء وعقلاء فئةً من الناس هم عندهم سواء، الفقراء والمجانين، حتى إنهم لا يرونهم إذا مروا بهم.. يعزلون أنفسهم عنهم داخل سياراتهم المكيفة ذات الزجاج المُغلق إلى آخره دائماً في الصيف والشتاء، لا يفتحونه إلا عند طلب الخدمة والاستفسار، فقد صار عالم الفقراء للأغنياء أشبه بعالم الجن، موجودٌ لكنه لا يُرى، وهذا أمرٌ خطير.. فالجنُّ إذا غضبوا صاروا شياطين.

كيف لنا أن نغفل عن أن في ميادين القاهرة وتحت كبارها مجتمعاً موازياً لمجتمعات الناس الأسوياء؟ هو مجتمع المتسولين والنشالين واللصوص وأطفال الشوارع والمجانين والبلاطجة المحتلين لكل أماكن ركن السيارات، جعلهم الفقر والجهل مجتمعاً يتسم بسمات الحقارة والقذارة والغدر والندالة، يجمع أفراداً في الظاهر علاقات التشرد والضيق، وفي الباطن تفرقهم علاقات التصارع والتصادم والحقْد، غير أنَّ الحقْد الذي يكون بين تلك الأنواع من البشر يضاعف الحقْد بين طبقات السادة بمراحل لا حد لها، والشر الذي يخرج منهم لمن حولهم لا يخطر على بال بشر، والعلاقات الشيطانية المحرمة بينهم ليس لها قانون أو رادع من أي نوع.. لهم قوانين خاصة دنيسة، وعادات أخط من الرذيلة.. كل شيء في مجتمعهم مُباح، مخدرات وسرقات وشذوذ، وشجار وخداع وغدر في كل وقت.

وتلك الشوارع والميادين والطرق والحدائق الكثيرة التي تملكها الدولة من أجل الجميع هم أيضا يملكونها، والسيارات الواقفة في إشارات المرور يقسمونها فيما بينهم حسب ألوانها وأنواعها وأنواع راكبيها، والغنائم الكبرى تكون على قدر القدرة على البلطجة والسيطرة.. كل هذا قد عاشه المجنون القليل أشرف الأمير، ذلك المجنون العاقل الحكيم كما كان يعرفه غجر الشوارع، ثم لحق به يعقوب الأصفر، ذلك المجنون العاقل الآخر غريب الأطوار، والمشكوك في جنونه عند غجر الشوارع أيضا.

وها هو يعقوب الأصفر يظهر بعد أربعة أيام من مقتل المجنون أشرف.. يظهر عائدا إلى المكان الذي تعودا أن يقضيا وقتها فيه كثيرا في الشهور الأخيرة قبل مقتل أشرف.. راح يسأل الناس عن صديقه المجنون.. إنه لم يره منذ عاد.. أبلغه الناس أنهم وجدوه قتيلا بجوار سور الحديقة منذ أيام، فانخرط في البكاء والصراخ، وصار يرمي جسده الضخم بالأرض ثم يقوم، ثم دخل في حالة صمت حتى جاءت الشرطة باتصال من أحد العمال بالمكان.. قادوه إلى قسم أول مدينة نصر.. سأله ضابط المباحث:

— لماذا قتلت زميلك المجنون أشرف الأمير يا يعقوب؟

— إنه صديقي.. هل يقتل أحد صديقه؟

— نعم.. المجانين يقتلون بعضهم البعض

— لم أقتله يا باشا.. صدقني

— يعقوب.. اعترف.. المجرم دائما يعود ويحوم حول مكان جريمته..
وهذا ما فعلته أنت

— أنا لست مجرما.. أنا مجنون

— لكنني أرى أنَّ كلامك لا يدل على جنون.. أظنك تخفي إجرامك
وراء جنونك.. إني أراك ماكرا جدا يا يعقوب.. حتى إنَّ المكر
والشر يشعان من عينيك

— المكر والشر يخرجان من العقلاء فقط يا باشا

— وهل هناك مجنون يتفوه بكلام الفلاسفة مثلك؟

— تعلمت من أشرف أنَّ الفلسفة نفسها نوع من الجنون

— والله إنَّ كلامك يعجبني.. لذلك لن أحبسك إذا اعترفت بجريمتك

— يا باشا.. أنا لا أتذكر أي قتلٌ أحدا.. لكن إن كنت متأكدا أنت
أني قتلته فاحبسني

— هل هذا اعتراف أنك قتلته أم تظاهر بالسذاجة يا يعقوب؟

— من فضلك يا باشا لا تسيء إلي.. أنا مجنون ولست ساذجا

— يعقوب.. اعترف اعترافا صريحا ولا تقلق.. لن أحبسك..

سأحولك فقط لمستشفى المجانين

— باشا.. لقد كان أشرف طيبا معي.. فلماذا أقتله؟

— ربما تشاجرتما على طعام أو نقود

— المجانين لا يقتلون بعضهم من أجل الطعام والنقود.. إنها العقلاء
من يفعلون ذلك

— والله معك حق في ذلك يا مجنون.. كل كلامك حكم

— أشكرُكَ يا باشا

وسكت الضابط قليلا، وراح ينظر في بعض الأوراق التي كانت في
جيب القتيل، فلم يجد شيئا ذا فائدة سوى صورة امرأة.. رفعها أمام عين
يعقوب، ثم ناولها له سائلا:

— هل تعرف هذه المرأة الجميلة يا يعقوب؟

وبالطبع كان يعقوب يعرف صاحبة الصورة جيدا، لكنه أطال النظر
إلى صورتها، وتظاهر أنه ينظر أكثر ليتذكرها، وفي الحقيقة هو يفعل ذلك
فقط ليمنح نفسه وقتا كافيا ليفكر: هل يقول الحقيقة أم لا؟ وماذا يقول؟
وانتهى به تفكيره الماكر إلى أن يذكر للضابط جزءا بسيطا مما يعرفه.. قال:

— سونيا.. هذه سونيا

نظر له الضابط باهتمام وسأله:

— مَنْ سونيا تلك؟.. وَلِمَ كانت صورتها في جيب القتيل؟

— سونيا امرأة متسولة كانت تعطف على أشرف

— ما أنواع العطف يا يعقوب؟

فهم يعقوب ما يلمح له الضابط فابتسم وقال:

— كل أنواع العطف يا باشا

— كلها؟

— كلها

مدّ الضابط يده ليعقوب والتقط صورة المرأة منه، ونظر لها ثم نظر ليعقوب قائلاً:

— المرأة جميلة جداً.. يبدو أن أشرف صديقك هذا لم يكن مجرد مجنون

— اذكروا محاسن موتاكم يا باشا

قهقه الضابط عالياً ثم قال يسأل يعقوب:

— ماذا تعرف أيضاً عن هذه المرأة؟

— لا شيء آخر يا باشا

— عموماً ستتحرى عن تلك المرأة وسنعرف كل شيء

— الله يعينكم يا باشا

فرجع الضابط بكرسيه للخلف وقال:

— نعود لك يا مجنون.. أين كنت منذ أربعة أيام؟

— كنتُ مسجوناً

سأله الضابط مندهشاً بسرعة:

— أين؟

— هنا في حبس القسم

ونظر الضابط له باستغراب ثم قال:

— لماذا لم تقل هذا من البداية؟

ضحك يعقوب ضحكة خبت اكتفى بها كإجابة، ورفع الضابط صوته ينادي عسكريا.. أمره بوضع يعقوب بالحجز، ثم ليذهب ويراجع كشوف المسجونين في آخر أسبوع، فذهب العسكري به، ثم عاد بعد ساعة ليخبر الضابط بصحة كلام المجنون، فأمر بإرجاعه له مرة ثانية، فأتى به، فقال له الضابط:

— معك حق يا مجنون.. لقد كنت مسجوناً عندنا وقت وقوع الجريمة

فوقف يعقوب المجنون رافعا يديه عاليا وصائحا:

— الحمد لله.. ظهر الحق ظهر الحق.. يحيا العدل.. يحيا العدل

— لا تتعجل.. اصبر.. ستظل معنا لأيام

— لِمَ ذلك يا باشا؟

— لا تسأل يا مجنون

فضحك المجنون يعقوب ضحكة عاقل، ثم التفت للضابط بينما كان العسكري يقوده لمحبسه قائلا:

— لا تنساني في الحبس يا باشا

(٢)

سونيا الفجرية

وقريبا من الحديقة الدولية وذلك المكان الذي تمّ العثور فيه على جثة المجنون أشرف الأمير كان هناك تلك الإشارة التي تجمع كثيرا من المتسولات، والتي تقطع شارعي الطيران ومصطفى النحاس بين مطعم البرج ومسجد نوري خطاب في منطقة كلية البنات بجامعة الأزهر أول الحي السابع.. كانت تلك الإشارة مقصد أشرف المجنون كثيرا.. كان يقصدها في البداية دون هدف، وهل لمجنون أن يكون له أهداف في الحياة؟.. ثم تغيرت حياته بسبب حاكمة هذا المكان امرأة اسمها (سونيا قابيل المحروس).. كانت تصغره بأكثر من عشر سنوات، كان يعرفها وتعرفه جيدا، عرفته عاقلا، وعرفته مجنونا، وصارت تمنحه كل شيء تهفو نفسه إليه، الطعام والشراب والثياب، وأشياء أخرى كثيرة، أغلبها قدرة. وسونيا هي امرأةٌ عجربةٌ شابةٌ من النور، والغجر الموجودون في مصر ينتمون إلى مجموعة «الدومر»، إحدى المجموعتين الأساسيتين اللتين

تشكلان مجتمعات الغجر على مستوى العالم، والمجموعة الثانية هي مجموعة «الرومن»، وتلك تسكن أوروبا، وفي مصر ينقسم غجر «الدومر» إلى مجموعات عرقية أخرى هي (النَّور والحلب والمساليب)

وأما عن أصل الغجر، فمنهم مَنْ يُعيد أصلهم إلى أنصار قابيل الذي قتل هابيل، حيث حُكِمَ عليهم بالتشرد والترحال وعدم الاستقرار بـمكان، ومنهم مَنْ يُعيد أصلهم إلى أبناء جَسَّاس بن مُرَّة ابن عم الزير سالم، صاحب الحكايات الشعبية والصراعات المشهورة، والتي انتهت بانتصار الزير سالم، ومن هنا جاء اسمهم الأجنبي (جيسيس)، ولكن هذا الأمر لا يمكن الوثوق به، ولكن ما يمكن الاستناد إليه بثقة أنَّ الغجر لعبوا دورا كبيرا في حفظ قصص السيرة، حيث تفتنوا في روايتها بالغناء الشعبي الذي برعوا فيه، إلى جانب الرقصات والألعاب الشعبية، والتي تُعدُّ مصدر بهجة وسعادة في حياة المجتمع المصري.

ويقول البعض: «لولا الغجر لضاعت السيرة الهلالية التي تفتنوا فيها، فهي جزء من هوية الثقافة المصرية، ويرجع ذلك إلى أنها كانت مورد رزق لهم، لذلك تجد أنَّ معظم رواة هذه السيرة هم من الغجر، والتي تأتي على شكل غنائي احترافي مذهل، تجعل الناس ترحل إليهم لسماع قصص السيرة منهم». وإنَّ كثيرا من الأغاني الشعبية الموروثة يعود الفضل في حفظها إلى الغجر وخاصة النساء، حيث كنَّ يذهبن إلى الفلاحين في الأراضى الزراعية للغناء لهم مقابل القليل من المال أو الحبوب، وحاليا يتجولون

أسفل المنازل في شوارع الأحياء الغنية، يغنون ويضربون الدفوف والطبول لتسقط عليهم الأموال والمساعدات من الشرفات، ودائماً فإن نساء الغجر يحترفن الرقص في الأفراح والليالي الشعبية، ويتغنين بالبطولات والغزوات، لذلك أطلق المصريون على الرقصات الغجريات اسم (الغوازي)

ويصعبُ حصر أعداد الغجر في مصر في الوقت الراهن، وتشير بعض الدراسات إلى أرقام تقريبية يصعب التأكد منها، وسبب ذلك أن الكثيرين منهم غير مسجلين في دفاتر المواليد، وما زال معظمهم يعيشون الحياة الغجرية الأولى، حيث لا توجد لهم شهادات ميلاد رسمية ولا حتى بطاقات هوية، أما المسجل منهم فلا تعرف الدولة إن كان غجريا أم لا.

كما انخرط بعض الغجر في حياة الناس المدنية، لكنهم يخشون ذكر أصولهم خوفاً من نظرة المجتمع الظالمة لهم، وصار الغجر القاطنون في المدن يسمحون لأبنائهم بالتعليم خلافاً لأسلافهم القدماء، فابتعد بعضهم عن العادات والتقاليد الخاصة، لكن ذلك لا يمنع أن بعض الغجر ما زالوا يتحدثون فيما بينهم بلغتهم الخاصة للحفاظ عليها وتدعيم نسيجهم الاجتماعي وحفظ موروثهم الشعبي.

ويمكن حصر أماكن تواجدهم في حوش الغجر بسور مجرى العيون في حي مصر القديمة بالقاهرة، وفي حي المقطم وأبي النمرس وحي منشية

ناصر العشوائى، كما يتواجدون في حي غبريال بالإسكندرية، وقرى سنباط، وقرى طهواى بمحافظة الدقهلية التي يُقال أنَّ بها حوالي خمسة آلاف غجري، وأماكن أخرى كثيرة متعددة، ويقدر البعض أرقام الغجر في مصر بين نصف المليون والمليون نسمة، لكن لم يُعرف حتى الآن على وجه الدقة التاريخ الذي قدم فيه الغجر إلى مصر، فالبعض يشير إلى منتصف القرن السادس عشر، فيما يرجح البعض أنهم أتوا إليها مع بداية حكم محمد علي سنة ١٨٠٥.

وأعمال هؤلاء الغجر يقوم بها النساء، حيث إنَّ أغلب رجالهم لا يعملون، إنما ينتظرون نساءهن في خيامهم أو بيوتهم كي يأتين لهم بالطعام والأموال، وقد يجلس بعض رجال الغجر قريبا من النساء بينما تعملن لحمايتهن من بعيد. وأعمال النساء تنحصر في التسول والسرقه والرقص والغناء ورسم الوشوم على الأجساد، هذا إلى جانب قراءة الكف والطالع، ولا ينسى أحد تلك الجملة المعروفة منهن «أبين زين وأضرِب الدوع»، فتلك الجملة نسمعها كثيرا تخرج من غجرية على شاطئ البحر أو ضفة النيل.

أما بعض الرجال الذين يعملون منهم فيحترفون أعمال الحواة في الموالد الشعبية، وصناعة المناخل من شعر الخيل، ومن يشعُر بالحاجة منهم يُضطرُّ إلى التسول لكسب قوته.

أما عن تلك الغجرية سونيا قابيل المحروس، فقد نزحت مع أهلها إلى القاهرة من قرى طهواى بالدقهلية، ثم استأجروا سكنا لهم بمنطقة الغجر بحي مصر القديمة بجوار سور مجرى العيون.

وكان أول عهد هذا المكان حيث إشارة تقاطع شارعي الطيران ومصطفى النحاس بتلك المرأة قد بدأ منذ كانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها قبل أن يخرج الدكتور أشرف الأمير مجنونا إلى الشوارع بسنوات، حيث كانت هناك متسولات معروفات تحتل هذا المكان، منهن غجريات، ومنهن غير غجريات، ومنهن من تتظاهرن ببيع المناديل الورقية، ومنهن من تحملن أطفالا وتوزعن وريقات على راكبي السيارات بأنهن أرامل يحتجن للمساعدة العاجلة لأنَّ معهن أطفالا دون طعام ودواء وكساء، ومنهن قطعاً من تتسول طالبة المساعدة بطريقة مباشرة دون قناع، وما أكثر هؤلاء!.

وكان يوما من أيام الشتاء الباردة سنة ١٩٩٤، عندما جاءت سونيا للتسول مع ربا العجورية ابنة خالتها.. أعجب المكان سونيا كثيرا، ومنذ ذلك اليوم صارت لا تغادره إلا لتعود، وشيئا فشيئا فرضت سيطرتها عليه بجراتها ومكرها وأنوثتها الطاغية.. تختفي منه أياما تقصر أو تطول ثم تظهر كما تريد، مرة بالنقاب وهي تحمل طفلا رضيعا أو طفلة، ومرة بوجهها المكشوف بعد أن ترسم عليه علامات الفقر والمسكنة، وهي تستجلب المساعدة من الناس بطريقة فيها مودة وتظاهر بالطيبة والوداعة، وطرق أخرى فيها كثير من الخلاعة وإثارة غرائز الرجال خاصة الشباب والمراهقين في أغلب الأحيان.

كانت جميلةً ساحرةً حقا.. تحبها العين وتثق بها منذ أن تراها، لكن ما هي إلا لحظة نغمض عينيك فيها عنها لفتحتها على لدعة منها أبشع

أثرا من لدعة العقرب.. حرباء تتلون بألف لون، وأفعى تنفث سمومها
بداخلك دون أن تدري بنفسك إلا صريعا تصارع الموت الأليم.. تعشق
المال عشقا يفوق عشق الأم لوليدها بآلاف المرات.. تكذب.. تسرق..
تزني.. تقتل، تفعل كل شيء من أجل المال.

عندما كانت في العاشرة من عمرها عادت لأُمها وعد ويدها حلقُ
ذهبي عليه آثار دماء.. سألتها أمها:

— سونيا.. ما هذا؟

أجابتها بكل هدوء:

— جذبته من أذن طفلة في الشارع

سألتها أمها سريعا:

— هل رأكَ أحد؟

— لا

— احذري دائما.. لا تجعلي أحدا يراكِ

وفي الثالثة عشرة من عمرها خرجت لتجمع القطن في أحد الحقول..
راودها ابنُ صاحب الحقل عن نفسها مقابل جنينه.. فعلا ما فعلا ليلا دون
وصولٍ للنهاية، وعادت لأُمها بالجنينه.. قالت لها بهدوء:

— سونيا.. المثل يقول إن سرقت اسرق جمل.. وإن عشقت اعشق قمر

قالت لها ابنتها:

— ماذا تقصدين؟

قالت الأم بكل بساطة:

— ما بين فخذيك هذا غال جدا.. لا تفرطي فيه إلا بالمال الكثير..

هل فهمت؟

— فهمت.. واطمئني.. لم أفرط فيما تقصدين

وكانت الأم وعد هي صاحبة فكرة انتقال الأسرة إلى القاهرة من أجل التسول، لذلك فقد راحت تعد ابنتها سونيا لهذا جيدا.. جلست معها ودربتها، وشحنتها بكثير من النصائح.

وها هي العجورية سونيا المحروس ابنة العجورية وعد تقف بالإشارة.. تتسول وهي ترتدي ثيابا مزركشة ومزينة بألوان كثيرة متداخلة، وتضع فوق رأسها غطاء رأس بنفس ألوان ثيابها.. وجهها تسرى فيه حمرة مميزة تنم عن اختلاف أصلها عن أصول بقية المصريين رغم مولدها ونشأتها بمصر، و كان قوامها ساحرا داخل ثيابها الواسعة التي لا تحدد تفاصيل جسدها أكثر من أن تُنبئ عن أن صاحبته أنثى كاملة الأنوثة، تعتمد دائما كأغلب جنسها أن تترك الحرية لخصلات من شعرها كي تتدل من تحت غطاء رأسها لتعلن للناس عن نعومتها وجماله، وعيناها واسعتان زرقاوان، ينبعث منهما مكر وشر لا يعرفان حدودا، من يراها ويمعن النظر في عينيها يصدق فوراً تلك المقولة: (العيون الزرقاء عيون مأكرة شريرة).

كانت تجمع حولها كلَّ العيون، وكم أضع سائقو السيارات الخاصة
والعامة لحظات انتظارهم قبل السماح لهم بتخطي الإشارة في تتبعها ومراقبة
حركاتها وابتسامتها وكلماتها وطريقتها في التسول التي جذبت كل الأنظار
وكل الأموال !، فأثارت بسبب ذلك منذ يومها الأول شجارا وعراكا مع
امرأة عجرية متسولة مثلها اسمها نوال.. قالت نوال غاضبة:

— هذه الإشارة نحن نملكها.. ابحثي لك عن مكانٍ آخر.. صرنا لا
نستطيع أن نعمل بسببك

نظرتُ لها سونيا وابتسمتُ ابتسامة ثقة ثم أجابتها باستهزاء:

— لا تكرري كلامك هذا لي وإلا ستندمين

قالت نوال وهي أكثر غضبا:

— أنا هنا منذ زمن.. هذا مكاني أنا ومنَّ معي

— أنتِ عجرية وتعرفين أننا العجبر نملك كل الأرض.. نحن نضع

أقدامنا في المكان الذي يحلو لنا

— هذا مكان عمل وليس خيمة أو بيتا.. وقد جئتُ إلى هنا قبلك..

ألا تفهمين؟

— نعم أنا لا أفهم.. ولن أترك هذا المكان.. أريني ماذا ستفعلين؟

ودهبَتْ نوال مسرعة إلى ريماء قريبة سونيا، وقالت لها:

— ريماء.. لقد سمحنا لكِ أنتِ فقط أنْ تعملِي هنا معنا.. لكننا لا نسمح

لسونيا قريبتك.. لا نعرف من أين جاءتنا هذه المصيبة

قالت ريبا وهي تبسم:

— سونيا هناك.. اذهبي وقولي لها هذا الكلام.. لكن نصيحة فكري
أولاً.. سونيا لا يقدر عليها أحد

— أنتِ مَنْ جئتِ بها هنا.. خذوها وفارقينا لأي مكان آخر

قالتها نوال بغضب، فضحكت ريبا وقالت لها:

— قلتِ اذهبي وقولي لسونيا هذا الكلام بنفسك

وعادت نوال إلى سونيا لتقول لها بكل صرامة:

— لا تأتي إلى هنا بعد ذلك.. لن نتركك تحتلين مكاننا.. هل فهمتِ كلامي؟

ضحكت سونيا ضحكة ساخرة قائلة:

— قلت لك من قبل.. لن أترك هذا المكان.. لقد أعجبني العمل هنا

ورفعت نوال يدها لتجذبها من شعرها، فأمسكت سونيا بها، وجذبتها
على الأرض بحركة سريعة كأنها تدربت عليها كثيرا من قبل، ثم أخرجت
من فمها شفرة حلاقة، وأحدثت بكل خفة ومهارة قطعا بسيطا بظاهر
كف نوال وهي تقول لها بثقة:

— هذه إصابة بسيطة في يدك التي رفعتها لإيذائي.. المرة القادمة

سأشوه وجهك

واجتمعت المتسولات الأخريات حولهما يحجزن بينهما، ونوال تنظر
إلى الدماء التي سالت منها وتصرخ وتلطم خديها وهي تضغط على

خرج الدماء بمناديل ورقية لتتوقف، ثم انسحبت من مكانها، واتخذت لنفسها مكانا فوق الرصيف بجوار شجرة استندت عليها، ثم راحت تنظر لسونيا في غيظ وحقد ورغبة في الانتقام، وسونيا لا تلتفت إليها، بل راحت تواصل عملها في التسول، وقد تجمعت عندها كل أموال المارة المعجبين بجهاها وخفة تحركاتها وطريقتها المميزة في التسول وجذب الأنظار.

فقد كانت جذابة جدا، ذكية جدا، شريرة جدا، مأكرة جدا وجريئة، وكانت تجيد القراءة والكتابة وفهم الكثير.. مَنْ يتحدث إليها يظنها حاصلة على أعلى الشهادات الجامعية، فقد ربتها أمها وعد على شرها ومكرها تربية خاصة مقصودة لتجعلها واعية قوية الثقة بنفسها، فصار لها آراء خاصة في كل شيء، وهي مع ذلك أو مَنْ أجل ذلك ساخطة على كل الأعراف والتقاليد والموروثات، دائمة الحقد والحسد لكل مَنْ فوقها، وكانت شديدة الطموح، لا تنقي أحدا على الإطلاق على خلاف الغجر الذين يؤثرون الخضوع واثقاء الناس.. شديدة التطلع إلى ما في يد غيرها وعازمة على أن تناله، فدائما تريد أن تمتلك كل شيء بأية طريقة، المال والقصور والرجال والبنات والبنين، كل شيء..

في اليوم التالي جاءت تلك المرأة الغجرية المسكينة نوال بزوجهام معها للانتقام من الشيطانة سونيا، ولم تكن سونيا قد وصلت.. جلس ينتظرها حتى جاءت، فوقف لها واتجه ناحيتها.. قال لها:

— مِنْ عَائِلَةٍ مَنْ أَنْتِ؟

نظرت له بازدياء، ثم نظرت ناحية نوال، وفهمت أنه يتبعها، فقالت
في سخرية:

— هل جئتَ لتخطبني؟

فتعجب الرجل مِنْ كلامها، ونظر إلى زوجته وقال لها:

— جئتُ كي آخذ حق زوجتي.. فَمِنْ أَيِّ عَائِلَاتِ الْعَجَرِ أَنْتِ؟

— مِنْ عَائِلَةِ الْمُحْرُوسِ.. وَالَّذِي اسْمُهُ قَابِيلٌ.. هَلْ تَعْرِفُهُ؟.. الَّذِي
قَتَلَ هَابِيلَ

فنظر لها الرجل بقلقٍ واستغرابٍ مِنْ جَرَأَتِهَا وَكَلَامِهَا وَسَأَلِهَا:

— لِمَاذَا ضَرَبْتَ زَوْجَتِي بِالْأَمْسِ؟

— كُنْتُ أَوْدِيهَا حَتَّى لَا تَرْفَعَ يَدَهَا عَلَيَّ مَرَّةً ثَانِيَةً

— مِنْ أَيْنَ تَعْلَمُ هَذِهِ الْبَلَطُجَةُ؟.. بِإِمْكَانِي أَنْ أَكُنْسَ بِكَ تَرَابَ
الشَّارِعِ الْآنَ

— وَاللَّهِ لَنْ تَسْتَطِيعَ.. وَأَحْسَنُ لَكَ أَنْ تَنْصَرِفَ الْآنَ

— هُنَا مَكَانُ عَمَلِهَا.. هِيَ صَاحِبَةُ الْمَكَانِ.. وَأَنْتِ جِئْتِ لِتَأْخُذِيهِ
مِنْهَا.. فَهِيَ انْصَرَفِي

— لَنْ أَتْرِكَ هَذَا الْمَكَانَ

— سَتَتْرَكِيْنَهُ رَغْمًا عَنْكَ وَعَنْ أَهْلِكَ

وهنا صاحت سونيا ترفع صوتها وتمسك بملابس الرجل وتصرخ:
— الحقوني.. الحقوني.. هذا الرجل يحاول أن يمسك صدري..
الحقوني يا ناس

واجتمع الناس حولها، ونزل الكثيرون من سياراتهم يحيطون بالرجل ويوسعونه ضربا وتوبيخا، ثم جاء رجل المرور، وكان قريبا منهم وأمسك به، ثم اتصل بقسم الشرطة القريب، فجاء ضابط وأمينان، واقتادوا الرجل إلى هناك.

ذهبتُ للقسم، وأخبرتُهم كذبا أنَّ الرجل تحرَّش بها، وأسمعها كلماتٍ بذئنة، فلما عارضته هدها، وطلبتُ من ضباط القسم أخذ تعهد عليه وعلى زوجته بعدم التعرض لها، وكررتُ أمامهم أنَّ مسئولية أمنها تقع عليهم، فتعهد لها الضباط بحمايتها، وأوسعوا الرجل ضربا وشتما حتى أنهم لم يسمحوا له بالتفوه بكلمة واحدة، ثم وضعوه في الحبس لشهر إكراما للعجربة الجميلة.

ومرَّ أكثر من شهر على تلك الواقعة، وإذا بالعجربة نوال تأتيها بخمس نساء، وكانت سونيا قد بدأت عملها في هذا اليوم في ساعة مبكرة دون أن تأتي معها ابنة خالتها ربا.. كانت تحمل مجموعة مناديل كأنها تبيعها..
تقدمت نوال ناحيتها ومقاصد الشر تشرق في عينيها.. قالت لسونيا:

— أريني اليوم كيف ستصرخين وتقولين أنَّ زوجي تحرش بك أيتها الكاذبة؟
قالت سونيا بكل ثقة وغضب:

— ألم أحذركِ؟.. هل تريدِين أنْ أشوه وجهكِ؟

وهنا مدت نوال يدها لتغرس أصابعها في وجه سونيا قائلة بكل حقد:

— سأريكِ مَنْ ستشوه الأخرى

وأمسكتْ سونيا بيدها تبعتها عن وجهها، ولكن نوال بالفعل كانت قد وصلتْ بأظافرها الحادة إليه، وسال الدم على وجه سونيا، وتكاتفتْ عليها النساء الأخريات حتى ألقينها على الأرض، لكنها لم تستسلم، وراحت تحاول التملص مِنْ تحتهن وهي تمد إحدى يديها إلى داخل جوربها لتخرج شيئاً، وبالفعل أخرجتْ مطواة، وفتحتها وزجّتْ بطرفها مِنْ استطاعت أن تطالها منهن طعنا وتقطيعا، فصرخن تحتها واحدة تلو الأخرى، وقُمنَ عنها يتحسسن مواضع طعناتهن، ولم يبقَ سوى نوال التي نهضتْ مِنْ تحتها لتجري، فطاردها سونيا بكل إصرار كي تمسك بها، وأمسكتْ بها، وبحركة سريعة خفيفة كانت قد أحدثتْ بوجهها قطعا غائرا، وراحت نوال تصرخ مِنْ شدة الذهول والألم، وسونيا تقول لها بعينين بارقتين:

— ليس هذا فقط.. إنما سأسجنكِ أيضا يا كلبة

وتوجهتْ سونيا على الفور إلى قسم الشرطة وهي تبكي وتذرف كثيرا مِنْ الدموع، وأبلغتهم بأنْ نوال التي تعدتْ عليها بالضرب مِنْ قبل قد عادت ومعهما خمس نسوة لضربها، وهنَّ مَنْ أحدثنَّ الجروح التي بوجهها،

وذكرتهم بأنَّ زوج نوال كان قد تعهد هنا في القسم بعدم التعرض لها سواء بشخصه أو بتحريض آخرين، فاستجلبتُ بذلك عطف كل مَنْ سمعها، وعلى الفور خرجتُ قوةً من القسم، وألقتُ القبض على نوال ونسائها، وكانوا قد أطلقوا سراح زوجها، فأعادوه إلى الحبس ثانية.

يقولون إنَّ العجر لا يعرفون اليأس، وأنتِ إنَّ قطعتَ غجريا إلى عشر قطع، فلا تظنَّ أنكِ أنهيته وقتلته، إنما أنتِ بذلك قد صنعتِ منه عشرة غجريين آخرين، وهذا صحيح، فقد عادت نوال بعد خروجها ومعها نساءٌ كُثُرٌ ورجالٌ تابعون لها يقفون على البعد، وتقدمت ناحية سونيا تقول بكلِّ تحدٍّ:

— رجعتُ لكِ أيتها الشيطانة

نظرتُ لها ولمن معها وقالت بمكر وتودد:

— نوال.. ألن نتوقف عن المشاكل؟

ضحكتُ نوال بسخرية قائلة:

— أنتِ أساسا سبب كل المشاكل

وسكتتُ سونيا قليلا، ثم قالت لنوال بطريقة تحمل توددا أكثر:

— نوال.. نحن جميعا عجر من النور.. يربطنا أصل واحد.. ولن

تفيدنا العداوة.. وتعرفين أنَّ العجر هم أبناء الرياح.. لأنَّ

حياتنا كلها خفة وتنقل وترحال.. اليوم هنا وغدا هناك.. لذلك

سأعرض عليكِ عرضا أفضل.. أريدكِ معي وزيرة في جمهوريتي..

وربما أترك لك الحكم يوما.. ما رأيك؟

ونظرت لها نوال بذهول وفتحت فمها دون أن تنطق، حيث لم تفهم كلمة مما قالتها سونيا، فعرفت سونيا أنها لم تفهمها، فضحكت قائلة:

— كنت أعرض عليك أن عملي هنا تحت زعامتي.. ستكونين نائبة لي ويبدو أن نوال قد فهمت أخيرا، وراق لها هذا الأمر، فانتظرت قليلا تسمع لها، ثم عادت إلى النساء والرجال، وطلبت من الجميع الذهاب، وذهبوا، وعادت إلى سونيا تخبرها:

— سونيا.. أنا موافقة

— أخيرا يا نوال صرنا أصحاب

— لكن في غيابك أنا الزعيمة هنا

— نوال.. في وجودي وغيابي أنت نائبة لي فقط.. أنا الزعيمة دائما.. اتفقنا

— اتفقنا

وبهذا تسيدت سونيا العجرية عرش هذا المكان بكل حكمة وقوة وذكاء، ونائبها العجرية نوال، إذ لم يكن أمام نوال إلا قبول ذلك خيرا من لا شيء، فقد فهمت أن الأمر سيؤول في كل الأحوال لسونيا سواء انتقمتم منها بضرها أم لا، وعلمت أن بجعة سونيا الكثير من الحيل والمكائد التي تعينها على ألا تستسلم لها بسهولة، فرضيت بعرض سونيا، وأحببتها مع الأيام فأخلصت في النيابة عنها، ولم تملك أية متسولة أو

بائعة بعد ذلك الجرة لأن تنزل إلى أرض تلك الإشارة لتعمل إلا بعد أن تذهب لسونيا ملكة المكان، وتدفع لها مبلغا ماليا في البداية يُسمى تأميناً، ثم يتفقان على إتاوة يومية تُدفع لسونيا إن كانت موجودة، أو لنوال في غيابها، أو لابنة خالتها ريمًا في غياب الاثنين.

وكان هناك شاب قد تعود أن يمر من هذا المكان بسيارته تكررًا، ثم يوقف السيارة جانبًا، ويظل ينظر منها إلى الفتاة العجيرة المتسولة سونيا، ينظر لها ويتسم، ويتابعها في كل حركاتها، وقد انتهت سونيا لذلك، لكنها كانت تتظاهر بعدم الاهتمام.. كان الشاب فوق الخامسة والعشرين، قصيرا ممتلئا، ناعم الشعر قليلا، أسمر اللون كثيرا، صاحب ابتسامة ساذجة.. أرسل لها ورقة مطوية مع طفلة صغيرة متسولة، ثم وقف يراقب ردها.. تناولتها سونيا بكبرياء.. قرأت (سونيا.. أريد أن أتحدث معك على انفراد.. فهل تسمحين؟)

نظرت العجيرة سونيا ناحيته حتى تأكدت أنه يراها، رفعت الورقة عاليا ثم مزقتها، ورمتها جانبًا، وراحت تواصل عملها في التسول، فابتسم الشاب ابتسامة حذرة، ثم أدار سيارته وانطلق.

وعاد في اليوم التالي، فأرسل لها ورقة أخرى يقول: (سونيا.. إن غرضي شريف.. أين تسكنين؟.. أريد أن أتقدم لكٍ لأتزوجك.. سالم السعدي)

وعادت ونظرت له، ثم ذهبت له بالورقة وهي تُطبق يدها عليها،
ورمتها أمامه قائلة وهي تبعد عنه:

— أنا غجرية.. والغجرية لا تتزوج من الأعراب.. أظنك لا تفهم
ذلك.. فلا تضيع وقتك

فابتسم سالم السعدي ونادها فلم تلتفت له، فأدار سيارته وانطلق.
وفي اليوم التالي أوقف سيارته، وأرسل لها شالا كان يلفه حول عنقه،
فنظرت له وابتسمت ثم ظلت لفترة مترددة، يبدو خلاها أنها تفكر في
شيء، وتوازن في دقائق بين كل اختياراتها المستقبلية، وكان الآخر ينظر
لها ويتنظر الرد في قلق، وأخيرا نظرت سونيا ناحيته وابتسمت، ثم لفّت
الشال حول عنقها، فنزل من سيارته فرحا منتشيا، واتجه ناحيتها وعلى
وجهه ابتسامة كبيرة.

(٣)

وبدا طموح الشر

إنه الحبُّ الذي جاء يطرق قلب فتاة في الخامسة عشرة ، خرج من قلب شاب فوق الخامسة والعشرين ، فهل استجاب قلب الفتاة؟ .. وما معنى أن يرسل لها الشاب شاله مبتسماً فتتلقاه مبتسمة ثم تلف عنقها به؟ ألم تكن تلك الفتاة قد صدته مرتين من قبل؟ .. لماذا وافقته الآن هكذا؟

إنها عاداتُ العُجْر، فإنَّ سالم السعدي شاب عُجْري، ولم تكن الفتاة العُجْرية تعرف عنه ذلك في البداية، فالزواج في الثقافة العُجْرية يُبنى على أنَّ العُجْر لا يتزوجون من خارج دوائِهم، إذ يمثل زواج الأقارب لديهم قاعدة صارمة لا يمكن تجاوزها، فالعُجْري لا يتزوج إلا عُجْرية، والعُجْرية لا يتزوجها إلا عُجْرية، ولذلك فإنَّ كثيراً من الأغاني التي يغنيها العُجْر في أفراحهم وأفراح غيرهم تتحدث عن كثرة العشاق الذين أحبوا بنات العُجْر ولم يستطيعوا الزواج منهن.

وغالبا يتم عقد الزواج دون حضور مأذون، لأنهم لا يعتمدون في الزواج سوى على الثقة المتبادلة بينهم، وفترة الخطوبة لديهم لا تزيد على خمسة أشهر، وعادة ما يتم الزواج عند الغجر في سن مبكرة، ويمتاز بطابع خاص، حيث يرسل الغجري في بادئ الأمر ربطة عنقه أو الشال الخاص به إلى الغجرية التي يرغب في الزواج منها كما فعل سالم مع سونيا، فإذا ارتدت ما يرسله فهذا يعني أنها قبلت بالزواج منه، سواء كان قبولها عن حب أو بغير حب، ويُعد الطلاق بينهم أمرا نادر الحدوث.

كما أنَّ تعدد الزوجات أمرٌ مُسلَّم به عند الغجر، ترضى عن ذلك الغجرية دون رفضٍ أو جدال، فيتزوج بعض الغجر من زوجتين أو ثلاث أو أربع، يقمّن بالعمل والإنفاق على الرجل في كثير من الأحيان، وثرأء الرجل منهم يُقاس غالبا بعدد زوجاته من السيدات اللاتي تعملن للإنفاق عليه.

وبالطبع لم يستجب قلب الفتاة سونيا الغجرية للحب، إنما استجاب عقلها لفكرة أن تتزوج شابا غجريا يبدو أخرج ساذجا.. هي تعلم جيدا أنه لا يمكنها أن تتزوج إلا غجري مهما بلغت من الجمال والسحر والتميز، كما تعلم أنه يجب عليها أن تتزوج قبل أن يفوتها قطار الزواج الذي يقف للغجرية في سن صغيرة لتركبه، فإن تقاعست حتى تصل للعشرين تركها وانطلق بعد أن يتركها للقليل والقال من قبل الحاسدات من نساء الغجر.

إنَّ تلك الفتاة العجرية سونيا عندما وافقت على سالم وافقت وهي
توقن في قرارة نفسها أنها لا يمكن أن تخضع يوماً لرباط الحب، فلماذا
الانتظار؟ فليكن سالم زوجها فقط، وليكن حلمها بالشراء الفاحش
معشوقها الخفي.. إنها قد أحبَّت طموحها ونفسها وشيطانها إلى درجة
العشق.. لم تعرف إخلاصاً إلا الإخلاص لذلك، وقد تخون الجميع، لكن
من الصعب أن تخون إبليس، وإنها امرأة مغرورة متكبِّرة للدرجة التي
تجعلها تمارس عملها بالتسول بين السيارات بكبرياء وشموخ كبيرين،
ككيف لها أن تتواضع إلى تلك الدرجة التي تجعلها تحب شاباً مثل سالم؟
حقاً إنَّ سالم السعدي - هذا الشاب العجري - بالنسبة لها لا يملك أية
ميزات في هيئته الشخصية، ولا شك أنَّ الحاسدات لها من فتيات العجر
سيجدن في شكله المتواضع بالقياس لها منافذ كثيرة للسخرية منها، وقد ترفضه
أمها ويرفضه أبوها هذه الأسباب إن لم يكن يملك شيئاً آخر يعوض النقص.
لكن سونيا رغم كل ذلك قد قبلت الزواج بسالم عندما قبلت شاله
ولفَّته حول عنقها، فما الذي أعجبها في سالم؟ أو لماذا قبلت بالزواج
منه؟.. السبب ليس أكثر من أنها قالت لنفسها عندما فكرت قبل أن تقبله
(ظلُّ رجل أفضل من ظلِّ حائط) خاصة إن كانت المرأة شديدة الطموح،
شديدة الشر كسونيا، وكان هذا الرجل يبدو كسالم العجري.. إنها تريد
منه الظل فقط الذي تمشي خلاله لتحقيق كلِّ أحلامها الشريرة دون أن
يمنعها أو يقول لها: (كفى)

ذهب سالم السعدي مع البعض من أهله إلى بيت أهل سونيا بمصر القديمة لخطبتها.. أخبرهم أنه يملك محلا لتصليح الساعات وبيعها في العتبة، وله زوجتان قبل سونيا، لم يُنجب منهما بعد، وسوف يستأجر لسونيا شقة الزواج بمدينة العبور.. نظر أبوها لها ورأى في عينيها القبول، ثم نظر إلى أمها وعد.. حبست أمها في نفسها كلاما كثيرا لتقوله لابنتها الجميلة بعد انصراف الضيوف.

وانصرف الضيوف وخلت الأم بابنتها.. قالت لها:

— هل جُنتِ؟.. ماذا يعجبك فيه؟

ضحكت سونيا ضحكة ساخرة وقالت:

— وماذا يعجب أية غجرية في الرجل غير أنه رجل؟.. نحن من

نعمل ونربي ونحمل الهم كله

— سونيا.. ألا يقلقك أنه متزوج من اثنتين؟

— وماذا في ذلك؟.. نحن نقبل ذلك في عاداتنا

— ولماذا لم ينجب حتى الآن من الآخرين؟

— قد يكون بسببها يا أمي.. لا تظلميه

— سونيا يا ابنتي.. ألا تعرفين قيمة نفسك؟.. ألا تنظرين في المرأة؟..

سالم هذا.....

وقاطعتها سونيا قائلة:



— لا يهمني شكله.. أنا موافقة عليه هكذا

— أتحيينه يا سونيا؟

— أمي.. أنا لا أحب غير المال.. أنتِ تعرفين طموحي.. أنا تربية
يدك يا حبيبتي

— وهل سالم هذا هو مَنْ سيحقق طموحك؟.. لا تنظري إلى
سيارته.. إنه مجرد ساعاتي

— لا تقلقي.. لن يتحقق طموحي إلا في ظل رجل كسالم

— وعملك في مدينة نصر.. كيف ستذهبين إليها كل يومٍ من العبور؟

— لا شيء يبعد على الغجر يا أمي

وتزوجت سونيا المحروس من سالم السعدي، وبالطبع لم تتوقف عن
ممارسة عملها في التسول بمكانها في مدينة نصر، كان بيت عندها يومين
في الأسبوع، وقد ارتاحت لذلك، فلم تكن لتتحمله أكثر من يومين،
لكنه كان قد غرم بها وبجملها الأثوى إلى درجة الافتتان، فقد وجد عندها
ما لم يجده في الزوجتين السابقتين لها.. أشبعته جنسيا، وملكث عليه كل
تفكيره.. كانت موهوبة في الجنس حقاً، باهرة في الرقص والغناء، أراد
أكثر من مرة أن يقضي معها أياماً أكثر، لكنها كانت تصده عن ذلك
بحجة أنه يجب عليه أن يعدل بينها وبين الآخرين.

ومرَّ عام ولم تحمل سونيا، وهنا بدأت شكوك أمها تتزايد بأنه رجلٌ

عقيم لا ينبغي.. قالت لسونيا:

— أنا خائفة يا سونيا من أن يكون زوجك كالشجرة التي لا تثمر..
أوراق وفقط

— الأوراق تكفيني يا أمي.. أخبرتك من قبل أني لا أريد منه إلا الظل

— لكن أنتِ تحتاجين للشار يا سونيا.. الأولاد لهم طعم مختلف يُنعش النفس

— ربما أكون أنا الأرض البور.. تموت كل نبتة توضع بها.. قد يكون
السبب مني

— ومن ينام معها قبلكِ لسنوات يا سونيا؟.. هل هما أيضا بور؟..
هل السبب منهما؟

ولم تهتم سونيا بكلام أمها أو تقلق بشأن الإنجاب.. إنها لم تتشوق يوما
للأطفال، ولم تحب أبدا الأطفال.. إنَّ كامل تفكيرها يتركز حول طموحها
في أن تكون ثرية، فإنَّ يوما صار لها طفل وجب أن يكون ثريا مثلها،
ولذلك فقد بدأت تفكر في نقل عملها للخدمة في البيوت مع الاحتفاظ
بمكانها ومكانتها في إشارة مطعم البرج، فقد تقع على شيء ثمين، وبالفعل
راحت تخطط لهذا الأمر مع نوال وريا.. هما ينوبان عنها ويجمعان ما يُسمى
(الغلة) في غيابها، وهي تعود لهما تكرارا للحصول نصيبها.

وبالطبع لم يخلُ ذهن سالم السعدي من التفكير في أمر الإنجاب، ورغم
ذلك لم يفكر يوما في أن يذهب إلى طبيب، كان خائفا إلى درجة الرعب
والخزي من أن يخبره الطبيب بأنه لا يُنجب، لذلك وضع رأسه بالرمال

كالنعام حتى كان اليوم السعيد له.. استقبلته زوجته الثانية نور بسعادة مصنوعة صنعا بخبرة امرأة غجرية بينما كان عائدا من عمله للمبيت عندها بمدينة النهضة.. قالت للمسكين الساذج:

— أنا حامل يا سالم.. أنا حامل

طار من الفرحة، وحملها من باب الشقة حتى حجرة النوم.. وضعها برفق على سريرها قائلاً:

— هذا أسعد خبر سمعته في حياتي.. الحمد لله

— هل رأيت؟.. أنا أول زوجة ستحقق حلمك وتنجب لك.. هل تريد ولدا أم بنتاً؟

— لا يهم.. المهم أني قادر على الإنجاب

— طبعاً يا سالم.. أنت سبغ الرجال

وثبتت سالم كتفيها أمامه بيديه، وراح ينظر لعينيها بجدية، فأصابها القلق، لكنه زال بقوله:

— لا أريدك أن تخرجي للعمل طوال فترة الحمل.. ارتاحي أنتِ وسأتي لك بكل ما تحتاجينه

وكان أول ما فكر فيه سالم أن قطع كل هذه المسافة البعيدة ليذهب إلى مكان عمل سونيا بإشارة مطعم البرج.. أخبرها بهذا الخبر السعيد، فما كان منها إلا أن ابتسمت ابتسامة مصنوعة وقالت:

— ألف مبروك يا سالم.. يتربى في عزك

— الله يبارك فيك.. عقبالك

ولحظ سالم عدم اهتمامها، وظنَّ ساذجا أنها قد غارت من نور فقال لها:

— لا تقلقي.. ستحملين قريبا

وابتسمت سونيا وصمتت لكنها قالت في نفسها: (ومن أخبرك أني قلقة أيها الساذج؟.. ثم إنني أظن أن تلك العاهرة نور حامل من غيرك)

وعلمت راضية الزوجة الأولى لسالم بخبر حمل زوجته الثانية نور ففرحت لها ولسالم كثيرا، وكانت شقتها بمنشية ناصر، فذهبت فور أن عرفت من هناك حتى النهضة لتبارك لها.

كانت راضية طيبة القلب، تحب زوجها سالم صدقا لا كذبا، وقد تزوجته عن قصة حب بينهما، ولا تنقطع عن أن ترويهما لكل من تعرف باستمرار، وقد فضلت أن تعمل بالخدمة في البيوت عن أن تعمل في التسول كما تعمل الغجريتان الأخريان نور وسونيا.

وكان شعاع الحب الذي سطع بقلب سالم تجاه حبيبته الأولى راضية قد خبا نهائيا ليسطع في سماء أخرى أمام سونيا، حيث صار حبه لها وشغفه بها يزداد يوما بعد الآخر، فلا يرى في الدنيا غيرها، وما كان اهتمامه بنور إلا لأنها ستنجب له ولدا أو حتي بنتا.. لا يهم.. الأهم أنها ستنتهي إحساسه بالمعرة والنقص الذي طالما عاش يشعر به منذ شهوره الأولى في

الزواج.. والأكثر أهمية من ذلك أنَّ نور بحملها ستضاعف حجمه كثيرا في عين سونيا، فسوف يظهر أمامها في النهاية أنه الرجل الفارس القادر على الإنجاب، وإن كان قد تأخر ذلك كثيرا.

وبدلاً من أن يوجه سالم اهتماماً أكثر بزوجته الحامل نور راح يصبُّ كلَّ اهتمامه وغرامه عند سونيا وزوجته الساحرة، إنه قد كفاه من نور أنها حامل، لكن سونيا الساحرة قد بلغ بها الضيق ذروته بسبب اهتمامه الزائد بها واقتطاعه من ليالي الزوجتين الآخرين لها، خاصة من راضية.

وراحت بسبب ذلك تفكر بكل جدية لتجد حلاً لمنع مبيتته الكثير عندها، فوصلتْ لِحْلٍ فكرت فيه من قبل، وهو أن تنقل عملها من التسول للخدمة في البيوت، فهذا سيجعلها قريبة جداً من تحقيق حلمها بالشراء لأنه سيقربها من الأغنياء، ودائماً حكمتها في الحياة «من جاور السعيد يسعد» فقد تجد فرصة لإغواء رجل ثري يمنحها الأموال نظير جمالها، إلى جانب أنها ستستطيع أن تبني بيتاً في بيت الخدمة كما تشاء بعيداً عن وجه سالم، زوجها العاشق لها.

إنها لم تحبه أبداً، ولم تسمح لقلبها أن تحبه، بل إنها قد جاهدت كثيراً حتى لا تسمح لقلبها أن ينجرف مع أي تيار مما يحرف قلوب النساء من حب وعشق، بل لقد اختارت سالم لأنها رأت أنه أبعد ما يكون عن أن يصلحُ فتى أحلامها.. تعرف أنَّ الحبَّ كما يحبي بعض النفوس فإنه يقتل نفوساً

أخرى.. إنها تخشى أن تحب فيضعفها الحبُّ عن أن تصل إلى مساعيها، وهي لا تسعى إلا لهدف واحد، المال فقط، وقد جمعت من عملها مبلغاً من المال تحفظه بعيداً عن سالم في البريد، وكلما زاد رصيدها تزداد فرحتها، وعلى الرغم من كل ذلك فقد بدأت تشعر بالإحباط لأنها لم تخرج بعد إلى الطريق.

سامح الله أمها وعد الغجرية، كانت شديدة الطموح، شديدة الحقد على الأغنياء، تكره الفقر والفقراء وهي منهم، تنقم على كل شيء بحياتها، كانت قد عزمت على أن تكون أغنى سيدة غجرية بين قومها، وسلكت في هذا الطريق بضع خطوات، ثم أحبت شاباً وسيماً فأنسأها الدنيا، ونسيت معه كل طموحها، فأرادت أن تعيد زراعة ما ذبل من أحلامها في بناتها، فلم تجد أرضاً تستجيب لغرسها الشيطاني غير ابنتها سونيا.. كانت تردد لها دائماً: (المال هو كل شيء في الدنيا.. المال يشتري لبن العصفور.. مَنْ معه مال يساوي مال.. المال يُطيل العمر.. المال والبنون زينة الحياة الدنيا) وكانت قد تحدثت الأم وعد حديثاً سرياً مع سونيا قبل إتمام زواجها من سالم، نصحتها ألا تحب خبيثتها، وما زال أمامها أن تنتظر مَنْ هو أغنى منه، لكن سونيا ابنتها غرس يديها، طمأنتها بأنها اختارت سالم لأنه بطيبته وسذاجته لن يكون عائقاً أمامها في شيء، وإن صار عائقاً دأسته بقدمها بالطلاق أو القتل، ومرّت على أشلائه لاستكمال طريقها، فارتاحت الأم لتفكير الابنة الشيطاني وباركت لها، وأخبرتها أنها ستكون معها في كل شيء كلما احتاجت إليها.

وواتت سونيا فرصة الخدمة في البيوت حتى شقتها في العبور، يوم أن
طرقت راضية بابها هناك، وكانت المرة الثانية التي تزورها بعد زواجها
من سالم.. رحبت بها سونيا، وتناولتا طعام الغداء سوياً.. وبالطبع فإنَّ
سونيا تعرف أنَّ راضية تعمل بالخدمة في البيوت.. سألتها:

— راضية.. هل الأفضل لكِ التسول أم الخدمة في البيوت؟

— الخدمة طبعاً هي أشرف وأفضل.. بشرط أن تكوني قادرة على أن
تحافظي على نفسك

فسألتها سونيا سؤالاً جريئاً:

— ألم يصادف أن عاكسك رجل ممن تخدمين عندهم؟

ضحكت راضية وقالت في طيبة:

— وهل يتوقف الرجال عن ملاحقة الخادِمات؟.. حتى أولادهم
الصغار لا نسلم منهم

قالت سونيا بمكر وهي تضحك:

— يبدو أنكِ تعرضتِ لمعاكسات كثيرة يا لئيمة

قالت راضية بطيبة:

— فعلاً حدث كثيراً.. لكنني والحمد لله أحافظ على نفسي.. أنا لا
أحب هذا الكلام الفارغ

— أسمع أنَّ هؤلاء الأغنياء بيوتهم جميلة وواسعة.. وكل شيء فيها
غالٍ ونظيف.. وهم أنفسهم رائحتهم تنعش القلب.. آه يا أختي
من روائح عطورهم عندما أقترِب من سياراتهم !!

— فعلا هؤلاء ناس حياتهم مختلفة عن حياتنا في كل شيء.. ربنا
يزيدهم من نعيمه

فأسرعتُ سونيا تقول بحقد:

— ربنا يأخذهم.. يجمعون الملايين دون تعب.. ويتركونا نشقى
ونتعب من أجل ملاليم

— الدنيا أرزاق يا أختي.. وليس كل الأغنياء سيئين

— أراك تحبينهم وتحبين حياتهم يا راضية

— طبعا يا سونيا.. أنا خدمتُ في بيوت كثيرة.. وتعاملتُ مع أصناف
كثيرة من الناس.. منهم ناس مثل العسل الصافي.. ومنهم ناس
أعوذ بالله منهم.. تماما مثلنا نحن الغجر تماما.. فينا ناس أصحاب
خير وضمير.. وناس آخرون كلهم شر

ونظرتُ سونيا في عينيها، وقالت بطريقة جريئة:

— طيب احكِ لي بالتفصيل عن معاكساتهم لكِ

ابتسمتُ راضية بخجل ثم قالت:

— سونيا غيري الموضوع

— لن أغير الموضوع.. هيا أخبريني.. كم رجل تحرش بك منهم؟..
وكيف؟ وماذا فعلتما؟

ورغم مكر سونيا وخبثها إلا أنَّ راضية لم تفهمها فهما كاملا، فابتسمت
واحمرَّ وجهها من الخجل وهي تحكي لها الكثير من مواقف التحرش بها،
وسونيا تسمع بإنصاتٍ لكل كلمة حتى انتهت، فقالت لها:

— أريد منك خدمة يا راضية

— تفضلي يا حبيبتى.. تحت أمرك

— لقد مللت من التسول.. أنا مثلك أريد أن أكسب مالي بالحلال..
ساعديني كي أجد عملا كخادمة في بيت أحد تعرفينه.. لكنني
أريدهم أغنياء.. أغنياء جدا

فأسرعت راضية تقول لها بكل طيبة ورفق وهي تربت على يديها:

— من عيني.. أنتِ والله محظوظة.. البيت موجود.. وهم بأنفسهم
مَن طلبوا مني خادمة

فأسرعت سونيا تقول لها:

— أهم شيء أن يكونوا أغنياء جدا

فنظرت لها راضية بريية، وقالت باستغراب:

— ماذا يدور في عقلك يا سونيا؟.. أنا لا أستطيع أن أفهمك أبدا

ضحكتُ سونيا وتظاهرتُ بأنها كانت تمزح.. قالت:

— الموضوع أني صرتُ أكره التسول.. أريد عملاً آخر

نظرتُ راضيةً بجديّة لها قائلة بحسم:

— سونيا يا حبيبتي.. أنتِ ستذهبن للخدمة في هذا البيت عن

طريقي.. لا تقصري رقبتي

— عيب يا راضية.. قلتُ لكِ إنني أبحث عن الحلال

أخذت راضية نفساً عميقاً مع تنهيدة طويلة وهي تنظر لها بقلق، ثم قالت:

— إذن استعدي لتذهبي معي إلى بيت الدكتور أشرف الأمير في المقطم

(٤)

بيت الدكتور أشرف الأمير

في أرقى منطقة بالمقطم، بيت يتكون من أربعة أدوار، يملكه الدكتور أشرف الأمير مع أخوين له وأختين، هو أكبرهم، وهو من يرعاهم بعد وفاة الأب والأم، عمره فوق الثلاثين عاما، يعمل طبيب قلب، ويمتلىء قلبه بالحب لكل من حوله، ويخرج الخير من يده باستمرار لكل الناس، ويمنح العون لكل الفقراء دون أن يسأم أو يتغير، ولديه ولد وبنت يحبهما كثيرا.

وزوجته مدام حنان تملك شركة سياحة وتديرها بنفسها، تصغره بأربعة أعوام، وهي ابنة صاحب مزارع دواجن كبيرة.. يسكنان بطفليهما الطابق الأول من بيت المقطم، ويسكن أخوته بالطابق الثالث، ويعيشون جميعا حياة رغيدة، فالإيرادات التي تأتيهم من محال تجارة الأقمشة التي تركها لهم والدهم بالموسكي والعتبة كفيلة لأن تغنيهم وتغني نسلهم لسنوات طويلة دون أن يصيبهم فقر أو حاجة مما قد يُصيب الناس مع تقلبات الزمان.

توقف باص مدرسة مالك وحبّية أسفل البيت قبل العصر بقليل..
أسرع الطفلان صاعدين درجات السلم، أقبل مالك على أمه وارتقى
بين أحضانها، ثم أقبلت حبّية وقبلت كلتا يديها مع عدم رضا الأم عن
مسلكها هذا.. سألتها الأم عن أخبار دراستهما.. أجابت حبّية:

— الحمد لله يا أمي.. حصلتُ على الدرجة النهائية اليوم في تسميع القرآن
أسرعت الأم وقالت في ضيق:

— ألا تهتم مدرستكما بغير القرآن؟!.. ثم ألم تنفق على أن تقولى ماما
وليس أمي؟!!

وفي المساء بعد العشاء قالت الزوجة لزوجها:

— ليكنْ في اعتبارك يا أشرف.. من العام القادم سننقل الأولاد
للمدرسة الإنجليزية

— ألن تتوقفي عن ذلك يا حنان؟.. قلتُ كثيرا إن مدرستهما مدرسة
إسلامية كبيرة ومشهورة

— لكنها تهتم أكثر بالدين والقرآن واللغة العربية.. الدنيا تتطور..
المستقبل هو للغات الأجنبية.. أنا أخطط لأن يكملتا دراستهما في لندن

— لقد صرْتُ لا أفهمك كثيرا يا حنان.. عموما الله المستعان
وأخرجت حبّية من حقيبتها كراسه وفتحتها وناولتها لأبيها وهي

تقول له:

— المدرسة تريد توقيعك هنا يا أبي

ونظر الأب فوجد ابنته قد حصلت على الدرجة النهائية في القرآن،
فغمرت السعادة وجهه، وحمل ابنته ذات العشرة أعوام يقبلها ويقول لها:

— بارك الله فيك يا حبيبتي .. سأتيك بهدية جميلة غدا

— شكرا يا أبي

ونظرت الأم لهما بعصب وقالت:

— كُفِّي عن أن تقولي يا أبي .. قولي يا بابا

والتفتت لزوجها قائلة:

— وأنت يا دكتور .. ما هذا الكلام الذي تقوله؟

— أي كلام يا حنان؟

— أنت دائما تقول للأولاد «بارك الله فيك» و«جزاك الله خيرا»

و«حفظكم الله» و«السلام عليكم» .. وحببية ومالك دائما ينادونني

أمي .. ما هذا؟ .. لماذا تعقد حياتنا؟ .. ألن تتوقف عن هذا .. لا

أحب أن يكبر أولادي معقدين رجعيين

وغضب الدكتور أشرف وقال لها:

— هكذا رباني أبي وأمي يا حنان .. وهكذا سأربي أولادي .. هل

فهمتِ؟ .. فلا تعود لي مثل هذا الكلام .. لم أعد أتحمل ذلك كل يوم

وكظمت الزوجة غيظها وتركته داخله إلى غرفتها، ثم نادى على المربية أم السعد بصوت عالٍ، فذهبت لها بخطوات سريعة، فقالت لها مدام حنان:

— بعد أن يُنهي الأولاد واجباتهما.. لا تنسى أن يشربا اللبن قبل النوم..
أنا سأنام.. عندي عمل من الصباح الباكر.. بااااا

ودخل الدكتور أشرف الأمير إلى حجرة مكتبه، وراح يراجع كشوفات وأوراقا خاصة بمحال والده، وكان هذا الأمر قد اعتاده كل يوم.. يعود من عمله في عيادته الخاصة قبيل المغرب، فيتناول الغداء مع زوجته وطفليه ومعهم أخواه وأختاه في أحيان كثيرة ثم يصعد أخوته لشقتهم بالطابق الثالث بعد وقت يقصر أو يطول، ثم تبدأ طقوس الضجر المتواصلة من زوجته حنان بسبب طريقتة المحافظة في تربية طفلها الكبير مالك وطفلتها التي تصغره بعام حبيبة.

إنها حنان، تلك التي نشأت وتعلمت في مدارس أجنبية، ودائها تحب أن تنسلخ من جذورها لتبدو على غير أصلها.. أبوها الثري صاحب مزارع الدواجن بدأ حياته عاملا في إحدى المزارع، وصل هاربا لها من فقر أسرته بإحدى القرى الصعيدية، وما هي إلا بضع سنوات حتى كان صاحب المزرعة، ثم صار صاحب بضع مزارع.. انسلخ من أصله قبلها، ولم يلتفت يوما لماضيهِ ونشأته بكل ما فيها من أقرب الأقربين، ونقل ذلك لأولاده،

فالمال يفعل الأعاجيب السيئة في قلوب المحدثين في النعمة، ويغير قشرة النفوس الضعيفة ل يبدو منها الجهالة والشر والسوء، لكن نفس المال لم يغير النفس القوية للحاج أحمد الأمير والد الدكتور أشرف، كان رجلا صاحب خير ودين وعلم، أورثهما لابنه الدكتور أشرف، لكن للأسف لم يصل ذلك الميراث الثمين لبقية أولاده.

كان الولدان يدرسان بالجامعة الأمريكية، والبتان بالتعليم الثانوى، وكان أخوهما الكبير الدكتور أشرف هو مَنْ يحمل حملهم الثقيل كله، يحمله دون ضجر كأمانة مِنْ والديه لا يجب إلا حفظها، وكان يتلقى شرورهم بصبر.. لم يرفض يوما طلبا لهم.. يهسى لهم أفضل الثياب والطعام والسيارات ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ويحفظ لهم أموالهم ونصيبهم مِنْ إيراد المحلات ببنوك إسلامية، ومع ذلك كله لم يكونوا راضين أبدا عن الخير الكثير الذي ينفقه عليهم، كانوا يطلبون دائما المزيد، وكانوا دائما لا يرضون عن مساعدته للفقراء.. وللحق فإنَّ معادتهم الأصيلة كانت مِنْ ذهب، لكن للأسف تغيرت ثم صدأت بسبب تداولها بين يدي زوجة أخيه حنان.

نزل إياد ومروان مِنْ شقتهم بالطابق الثالث إلى أخيهما الدكتور أشرف، ودخلا عليه بحجرة مكتبه.. طلب أشرف مِنْ المربية أم السعد إحضار الشاي لهم.. سألهما عن دراستهما، واطمأنَّ إلى أنَّ كل شيء معها يمضي بخير، واطمأنَّ منهما على أختيه سلمى وسالي.. طمأناه على كل شيء بإيجاز، فقد كانا يتعجلان الحديث عما جاء لأجله.

وبينما همَّ إياد أن يبدأ بالكلام دخلت أم السعد بالشأى.. سألها أشرف عن الخادمة راضية: هل عادت من إجازتها أم لا؟، وكان قد طلب من راضية أن تجد لهم خادمة أخرى مخلصه ومجتهدة مثلها، فأعمال البيت كثيرة، ومطالب أخوته لا تنتهي.. أخبرته بأنها لم تعد بعد.. خرجت المربية ثم التفت الدكتور إلى أخويه الشاين ينتظر منهما أن يحداثه عما جاء من أجله، فنظر له إياد نظرة توجس وحذر ثم استجمع كل شجاعته وقال له:

— نريد أن نحدثك في شيء يا دكتور

— خيرا يا إياد.. تفضل.. أسمعكما

— أنا أريد تغيير سيارتي

— تريد تغيير سيارتك!!.. أنا اشتريتها لك منذ سنة فقط

— لكنني أريد تغييرها.. فما المشكلة في ذلك؟

فلم يُجب عليه الدكتور أشرف، إنما التفت إلى مروان وقال له:

— وأنت يا مروان.. هل تريد تغيير سيارتك أيضا؟

— لا ليس الآن.. لكن توجد زميلة لي.. أريد أن أخطبها

— مروان يا حبيبي.. أنت لا تزال صغيرا على ذلك.. وما زلت

تدرس.. انتظر حتى تحصل على شهادتك الجامعية بعد ثلاث

سنوات ثم تنهي خدمتك في الجيش.....

وشعر مروان بالغضب فقاطعه قائلا:

— وما دخل شهادتي وخدمتي بالجيش في أن أخطب؟ .. أم أنك تريد تعقيد الأمور كعادتك

ونظر الدكتور أشرف له بغضب، لكنه تمالك نفسه وقال له:

— كُف عن ترديد كلام غيرك يا مروان.. واعلم أني المستول عنكم.. ولا أريد إلا الخير لكم.. أنا مكان والدنا الله يرحمه.. لو كان حيا ما وافق أبداً على أن تخطب في هذه السن

وتدخل إياد قائلاً له:

— وأنا يا دكتور.....

— أنتَ ماذا؟

— موضوع السيارة

فنظر له الدكتور أشرف قليلاً، ثم قال له برفق:

— ليس الآن يا إياد.. سيارتك لا تزال جديدة.. انتظر سنة أخرى فقط وأخذها أنا منك.. ثم أشتري لك السيارة التي تريدها.. أنتَ تعرف أن سيارتي قديمة جداً

فنظر إياد لمروان وقال بصوتٍ منخفض لكنه مسموع:

— كل شيء انتظر انتظر.. لقد تعبنا

وقال مروان لأخيه أشرف بصوتٍ عالٍ دون خجل:

— يبدو أنك لست مشغولا إلا بالفقراء وإنفاق أموالنا عليهم.. لا نعرف متى سيتوقف ذلك

فقال الدكتور أشرف لهما بكل هدوء:

— تلك وصية والدنا لي.. أن أظل أساعد الفقراء.. ولن أتخلى عن ذلك.. في أموالنا حق لهم.. إن الله يحفظنا ويضاعف في أموالنا بسبب العطف عليهم.. ربنا يهديكم

وكان اليوم التالي هو يوم الخميس، اليوم المخصص من كل أسبوع لتوزيع المعونات الأسبوعية لمئات المحتاجين ممن يقصدون بيته، وقد أسند ذلك لأشخاص يثق بهم.. عادت زوجته حنان من عملها عصرا، وبينما كانت تخرج من سيارتها انطلقت منها نظرات غاضبة على طوابير الناس المصطفة أمام البيت.. دخلت شقتها فوجدت إياد ومروان وسلمى وسالي في انتظارها، تلقتهن بابتسامة كبيرة مصطنعة.. شكوا لها أخاهم الدكتور أشرف، فأخبرتهم أنها أيضا غير راضية عما يفعله، وأخبرتهم بأنها سوف تساعدنهم في إيقاف تلك الأموال التي تخرج من بيتهم لتضيع على الفقراء والأرامل واليتامى.. قالت سالي:

— يجب أن نطلب منه توزيع تركة أبينا علينا.. ولينفق عليهم من ماله

الخاص.. هو حر

قالت زوجته حنان:

— لا ليس حرا.. فهو ليس ماله الخاص.. إنه مالنا أنا ومالك وحببية
وقال مروان غاضبا:

— المشكلة أنه سبق وذكر كثيرا أن وصية أبي له أن ينفق من أصل
مالنا جميعا
قال إياد:

— ربنا يسامحه.. ألم يكن يعرف أننا أولى بكل جنيه من أموالنا؟
قالت سلمى:

— علينا أن نتحدث معه بهدوء.. ونخبره بما نريد
قالت زوجته:

— لا.. لن ينفع معه أي حديث.. اصبروا قليلا وسأجد حلا لذلك
وفي صباح الجمعة تناول الدكتور أشرف مع طفليه وزوجته حنان
طعام الفطور دون أن تحدثه الزوجة في شيء خاص بضجر أخوته منه،
وطلب أشرف من المربية أم السعد الصعود لإيقاظ أخويه إياد ومروان
من نومهما حتى لا تفوتهما صلاة الجمعة، ثم خرج إلى المسجد مصطحبا
معه ابنه مالك.

وأثناء الصلاة جاءت الخادمة راضية ومعها الخادمة الجديدة سونيا..
فتحت المربية أم السعد لهما الباب.. ألقت نظرة سريعة منها على سونيا،
ودخلت راضية وحدها.. وقفت أمام مدام حنان تخبرها عن نظافة

الخدمة الجديدة وأمانتها، بينما ظلت الخادمة سونيا خارج الشقة بجوار الباب ترسل أذنها بإنصات لحوارهما، ثم أذنت لها مدام حنان أن تدخل. دخلت سونيا على مدام حنان وهي تتعمد أن تضع عينيها على الأرض، لا تلتفت يمينا أو يسارا، وكانت مدام حنان تجلس واضعة قدما على الأخرى، ومن فرط إعجابها بجماها وهيئتها عندما رأتها أنزلت قدمها بطريقة لا إرادية.. ظلت لفترة تتفحصها من أسفلها لأعلى دون كلام، ثم سألتها:

— ما اسمك؟

— خدامتك سونيا

— كم عمرك؟

— ١٧ سنة

— يبدو عليك أنك متزوجة يا سونيا

— نعم أنا متزوجة

— هل عندك أولاد؟

— لا يا مدام

— هل خدمت في البيوت قبل ذلك؟

— لا

— أهم شيء عندي النظافة والأمانة.. فاهمة؟

— أكيد فاهمة يا هانم

والتفتت مدام حنان لراضية وقالت لها:

— علميها كل حاجة يا راضية.. وأظنها هنا على مسئوليتك

قالت راضية بعد أن ألقت نظرة على سونيا:

— اطمئي يا مدام.. سونيا ستعجب حضرتك جدا.. وأي تقصير

منها أنا المسئولة

— هذا كلام جميل.. ولكن في حسابكما أنكما ستبيتان هنا يوميا..

وكل واحدة سيكون لها إجازة ثلاثة أيام كل أسبوعين بالتناوب

قالت سونيا:

— أنا موافقة على كل شيء يا مدام

فنظرت لها مدام حنان وابتسمت ثم نظرت لراضية وقالت:

— خذيها يا راضية وعرفيها كل شيء

وانصرفتا الخادمتان إلى المطبخ، وما إن دخلت سونيا، واطمأنت

أنهما وحدهما حتى راحت تدقق النظر في كل شيء، وتفتح كل الأدراج،

وتتحسس بيديها الرخام وخلطات المياه وأطقم الملاعق والأطباق

والأكواب الفاخرة، وتفتح الثلاجة والديب فريزر، وكانت تغمغم

بكلمات كثيرة، وراضية تتابعها لعلها تتوقف عما تفعله، فلما زادت في

ذلك قالت لها وهي تتعجب من حالتها:

— سونيا كُفي عن ذلك.. يبدو أنكِ لن تعمري كثيرا في هذا البيت
— بيت !!.. نحن في جنة لا بيت.. نحن فقراء جدا يا راضية.. جدا
— الحمد لله على كل حال
فضحكت سونيا:

— لم أكن أتصور أنهم أغنياء إلى هذه الدرجة
— ربنا يزيدهم.. أنا وأنتِ هنا للخدمة فقط.. هيا نلتفت لعملنا
فقالت سونيا وهي تمر يديها تحت الماء الساخن ثم تنقل الخلط للبارد:
— لماذا خلقت الفقر مع الغنى؟.. لماذا هناك فقراء وأغنياء؟
— ما قصدك من ذلك يا سونيا؟
— قصدي أن الغنى وحده يكفي، لماذا الفقر؟ لماذا المرض؟ لماذا الموت؟
— أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. استغفري ربنا
— ماذا فعلت حتى أستغفر.. أمرك غريب يا راضية
فصاحت بها راضية:

— انتهينا من هذا الكلام يا سونيا.. قلة الكلام معك أفضل
وخرجت الاثنتان من المطبخ إلى حجرة الخدم، غيرتا ملابسهما،
ولبستا ملابس عمل لا يظهر منها أنهما غجريتان، وسمع بالخارج صوت
الدكتور أشرف يتحدث إلى طفليه مالك وحبيبة، فأصغت سونيا لما
يدور، ثم التفتت لراضية تسألها:

- هل هذا صاحب البيت؟
- نعم هو.. دائما يحب أن يلاعب طفليه.. روحه فيها
- ومدام حنان؟
- ما لها؟
- هل يحبها؟
- ما شأنك بذلك؟
- إنها ليست جميلة.. أراها امرأة عادية
- ليس شرطاً أن تكون المرأة جميلة ليحبها الرجل ويتزوجها.. الجمال ليس كل شيء
- إذن أخبريني عن الشيء الذي جعله يتزوجها
- سونيا.. تعلمي مني يا أختي أول درس في خدمة البيوت.. هو أن تكوني عمياء خرساء بكماء
- راضية.. أنا فقط أقول هذا الكلام بيني وبينك
- كلامك الكثير ليس علامة خير
- فقط أسألك.. ما مزايا مدام حنان تلك لتعيش في هذه الجنة؟
- الجنة يعيش فيها من يستحقها يا سونيا
- أرى أن الجنة لكل ما هو جميل فقط
- الجمال ليس كل شيء يا سونيا.. الأهم العمل الطيب والاحترام
- فعلا الدنيا حظوظ.....

وطرقتُ المربية أم السعد الباب عليها، وألقتُ السلام على راضية، ثم نظرتُ لسونيا وقالت:

— أنتِ.. الدكتور أشرف يريدكِ

فنظرتُ لها سونيا بغضب، وقالت بعجرفة:

— اسمي سونيا

— طيب.. الدكتور يريدكِ يا سونيا

وابتسمتُ سونيا، واتجهتُ لمرآة التسمية تعُدل من وضع ملابسها حول صدرها وأسفل ظهرها من الخلف، وتسوي حاجبيها، ثم رفعتُ جانبا من ثوبها ومسحتُ مرات على أسنانها تلمعها بطريقة مقرزة، ثم مررتُ لسانها على شفثيها لتزيدهما حمرة، والمرأتان ينظران لها باستهجان، ثم خرجتُ خلف المربية.

كان الدكتور أشرف يجلس ناظرا في بعض الأوراق وبجواره حبيبة ومالك، وقريبا منها كانت تجلس مدام حنان على جهاز كمبيوتر مكتبي تنهى أعمالا خاصة بشركتها للسياحة.. رفع عينيه إلى سونيا التي صوبتُ عينيهما إليه دون خجل وعلى وجهها ابتسامة وجرأة، وللهولة الأولى تسمرتُ عينا الدكتور أشرف عليها دون أن ينطق بكلمة لفترة، ولم يكن هذا بسبب جمالها اللافت الأخاذ، ولكن لشيء خفي غامض تغلغل في أعماق نفسه قاده لذلك، وقد عاش كثيرا بعد هذا اليوم يبحث عن تفسير لهذا الشعور الذي اعتراه عندما رآها، وبالفعل عرف تفسير كل شيء، لكن بعد سنوات.

يقولون إنَّ الانطباع الأول يدوم، لكن ماذا لو كان الانطباع الأول غامضا كما حدث مع الدكتور أشرف تجاه سونيا؟ فأَي شيء يدوم معه حتى تنجلي الأمور؟.. ألم أقل إنَّ من رحمة الله علينا أن غيَّب عن الإنسان الكثير؟ فما دام الإنسان لا يمكنه أن يغيِّر شيئا، وطالما أنَّ المكتوب على الجبين لا بد وحتما أن تراه العين، فإنَّ هذه الغيبات ضرورة حتمية حكيمة، وإلا فإِذا لو عرف المظلوم في أول تعارف بينه وبين ظالمه أنه سيُظلم منه يوما؟.. وماذا لو عرف المقتول في أول لقاء له بشخص أنَّ هذا الشخص هو الذي سينهي حياته بالقتل أو يكون سببا له؟.. وماذا لو عرف شعبٌ ما وهو يختار زعيما له أنَّ اختياره هذا سيكون سبب العناء المفجع الذي سيظل سنينا يحياه؟

فشكرا للرحمن عالم الغيب والشهادة وحده أن احتفظ بعلم الغيب لنفسه، وحما له أنَّ خلق صدمة الألم المباغته فوقانا من معاناة الألم المتواصل في انتظار الألم القادم، وأنَّ خلق النسيان والصبر حتى نتمكن من مواصلة الحياة لنعيش، وأنَّ خلق الجنة لتكون ثمرة تلك الحياة الطويلة البائسة.

وقفتُ الخادمة سونيا أمام الدكتور أشرف.. صارت تنقل عينيها ما بين النظر له ولطفليه بجانبه والنظر في الأرض.. سألتها نفس الأسئلة التي سألتها لها زوجته حنان، وزاد عليها:

— هل تحافظين على الصلاة أم لا؟

استغربتُ سونيا لهذا السؤال، وانطلقت نظرة لها من مدام حنان بينما قالت سونيا كذبا:

— طبعاً أصلي دائماً وأصوم.. وأتمنى لو أذهب للحج أو العمرة..
لكن الظروف.....

— إن شاء الله تذهبن.. إن شاء الله.. هيا اذهبي الآن وأحضري لي
كوباً من الشاي

ونظرت سونيا للزوجة، وقالت لها:

— وحضرتك يا مدام.. ماذا تحبين أن تشربي؟

فنظرت لها المدام، وانتظرت قليلاً كأنها تفكر في شيء، وقالت:

— ولا حاجة.. فقط أخبري راضية وأم السعد أنني أريدهما..
وعودي معهما

وذهبت سونيا وعادت بهما فنظرت مدام حنان لأم السعد وقالت:

— خذي حبيبة ومالك لحجرتي ليبدلا ملابسهما

ثم نظرت لراضية وقالت:

— وأنت يا راضية.. الأكل جاء من المطعم.. هو جاهز في المطبخ..
ضعيه على السفرة

ونظرت حنان نظرة مختلفة لسونيا ثم قالت لها:

— وأنت يا سونيا.. اصعدي للدور الثالث.. وأخبري الأولاد
والبنات أن ينزلوا للغداء

(٥)

كيد النساء

لا أعرف كيف فات الدكتور أشرف الأمير أن ينتبه إلى أن سونيا الجميلة قد صعدت للأعلى، ربما لم ينتبه لتلك الأوامر التي وزعتها زوجته على الخادومات، فإنَّ بالأعلى خزانين خطرين يمثلان بالوقود، زيت وبنزين وكيروسين، وما الخادمة سونيا إلا عود كبرت أنثوى ممشوق القوام جاهز للإشعال والاشتعال حتى آخره.. ستحرق نارها البيت كله بأقل نظرة متبادلة بينها وبين إياد، أو حتى مروان العاشق.

خادمة شفتها كأنهما حبتان من الفراولة، وخداها حمران يشعان حيوية وقوة، وعيناها عينان زرقاوان ماكرتان لهما بريق ساحر مثير، ومكر الأنثى وقوتها يزيدان في إثارة رغبات الرجال لكسرهما، فإنَّ منتهى اللذة والنصر عند الرجل تكون حين يقهر غرور المرأة القوية في أضعف لحظاتها بين يديه.

لكن هل تعمدتُ مدام حنان أن تُرسلَ الخادمة سونيا لهذا المصير؟.. هل تعمدتُ أن تُحدِثَ شرخاً في بنيان تلك الأسرة المستقرة ظاهراً رغم الاضطرابات الخفية؟ هل صارت سونيا هي سهم حنان المسموم لبث الضعف في ثوابت الاستقرار الباقية بين زوجها صاحب الخير وأخويه الشايبين الغاضبين؟

في الحقيقة.. أجل.. إنها تعمدتُ ذلك، فلتحدثُ بعض القلاقل لترى كيف سيتصرف زوجها الرجل العاقل الحكيم المستقيم، ولتشاهد ما يحدث من بعيد، لعلها تحظى ببعض الإثارة الممتعة وهي تشاهد دخان النار يرتفع في الأرجاء، وبالطبع هي لم تعرف بعد عن سونيا غير أنها أنثى جميلة.. ربما تمتدّ بينها وبين نفسها أن تكون بنفس جمالها، لكنها تعرف عن إياد ومروان مراهقتها وشغفها بكل أنثى.. إنها لا تنسى أبداً نظرات إياد لها ومتابعته لها، وكم من مرة نظرتُ في المرأة حين مرورها من أمامه لترات زائغ العينين خلف تفاصيل جسدها رغم تواضعه!، وكم من مرة رأت بين صفحات كتب مروان صوراً مقطوعة من مجلات جنسية!، وكم من مرة عثرت على شرائط ثقافية جنسية أسفل مراتب الشايبين!، وبالطبع لم تخبر عن شيء من هذا أخاهما زوجها العاقل المستقيم الدكتور أشرف.

ضغطتُ الخادمة سونيا على جرس الباب، كانت سلمى وسالي بحجرتهما، وكان مروان بالحمام، وإياد بحجرتة.. لا شك أن الجميع قد سمعوا رنين الجرس، لكن اعتمد كل منهم على أن غيره سيتطوع لفتح الباب..

دَقَّ الباب مرة ثانية وثالثة، خرج إِيَاد غاضباً مِنْ أخوته الصغار حيث لم يتطوع أحد منهم لهذه المهمة.. فتح الباب وهو يظن أنه سيرى أمامه المربية العجوز أم السعد أو الخادمة راضية الطيبة المستقيمة، فإذا به يرى امرأة شابة لم يرها من قبل في البيت، بالطبع هي ترتدى ثياباً يظهر منها أنها ثياب خادمة، لكنها فاتنة الجمال في كل زي.. نظرت له، وركزتُ عينيها في عينيهِ دون خجل وقالت:

— مدام حنان تنتظركم بالأسفل.. الغداء جاهز

قال لها وهو يتفحصها:

— مَنْ أَنْتِ؟

— سونيا.. الخادمة الجديدة

ابتسم وقال:

— اسمك جميل يا سونيا

ابتسمت له وقالت:

— شكراً.. لو سمحت لا تتأخروا يا أستاذ.....

أسرع وقال لها:

— إِيَاد.. اسمي إِيَاد

— بعد إذنك يا أستاذ إِيَاد

انصرفت، وراح إِيَاد يتابعها وهي تهبط درجات السلم في خفة حتى غابت عن عينيهِ، فأسرع إلى حجرة مروان تاركاً باب الشقة مفتوحاً،

فلم يجده فيها، فأسرع يجرى ناحية الحمام، وراح يطرقه طرقا متتابعاً دون انقطاع وهو يقول:

— مروان مروان.. اخرج بسرعة

وخرج مروان وعلى وجهه علامات اندهاش وذعر، وسأله:

— ما لك يا ابني؟.. ماذا حدث؟

— الخادمة الجديدة

— ما لها؟

— جميلة جداً.. قشقة

وراح مروان يسأله بسرعة:

— أين هي؟.. هل هي من كانت تدق الجرس؟

— نعم هي.. هيا استعد.. سننزل للغداء ونراها

وأسرع الشابان وأخبرا أختيهما باللحاق بهما للغداء.. نزلا وعيناهما تبحث عن الخادمة منذ فتحت أم السعد الباب.. كان الطعام قد وضع على منضدة السفرة، وكان أخوهما الكبير أشرف قد جلس بمكانه المعهود وبمواجهته قد جلست زوجته حنان.. خرجت سونيا من المطبخ في اتجاه الجالسين تحمل بعض الأطباق، وضعتها على المنضدة وعينا الشابين يتابعانها، ثم عادت إلى المطبخ.. سألت سالي:

— هل هذه هي الخادمة الجديدة؟

أجاب إياد وهو ينظر لمروان:

— نعم

نظر الدكتور أشرف لأخويه إياد ومروان ثم لزوجته حنان وقال:

— يا أم مالك.. منَ اليوم يكون اتصالنا بشقة الأولاد عن طريق التليفون.. ليس هناك داعٍ لإرسال أحد لهم.. وإلا فما فائدة تركيبنا لخط أرضي بالأعلى؟

نظرتُ حنان لإياد ومروان وابتسمتُ ثم قالت:

— فهمتُ قصدك يا أشرف.. لا تقلق

وجاء يوم الخميس، واصطفَ الفقراء وأصحاب الحاجة أمام جراج البيت في الشارع، وراح المختصون بتوزيع احتياجاتهم يوزعون الخيرات والأموال على الجميع.. كانت سونيا بأعلى البيت تغسل السجاد.. جذب انتباهها الأصوات والضوضاء الآتية من أسفل.. نظرتُ من سور البيت فوجدتُ طابورين طويلين أحدهما للرجال والآخر للنساء.. قالت في نفسها متعجبة: (كل هؤلاء يتسولون من بيت واحد)

وإذا بصوتٍ يأتيها من خلفها يقول:

— سونيا.. علام تنظرين في الشارع؟

كان إياد يمسك بيده كتابا.. قطعاً قد خرج للسطح من أجلها، وكانت سونيا قد شمرت عن ساقها وذراعيها.. تظاهرت بأنها تُرخي ملابسها لتغطي ما ظهر من جسدها، وهي تعمد ألا تنزلها.. قالت:

— كنتُ أنظر على طواير الناس بالأسفل

- إنهم يأتون هكذا كل يوم خميس
- أنتم محترمون جدا وأصحاب خير يا أستاذ إياد
- أخی الدكتور أشرف یحب مساعدة الناس
- واقرب منها وقال:
- عرفْتُ أنَّكَ متزوجة
- ابتسمتُ وقالت بصوت تعمدتُ أنْ يخرج منها في حسرة وحزن:
- نعم.. للأسف متزوجة.. أهلي أجبروني
- ألا تحبين زوجك؟
- قلتُ لك.. أهلي أجبروني
- امرأة في مثل جمالك يجب أنْ توزن بالذهب.. لا أنْ تُجَبَّرَ على الزواج وتظاهرتُ سونيا بالخبيل، واستأذنته لتكمل عملها، وخطتُ بعيدا عنه بضعة خطوات تترقب متابعتها لها، وبالفعل سار إياد خلفها يسألها:
- ماذا ستفعلين بعد غسل السجادة؟
- سأنزل وأساعدهم في تحضير الغداء
- أريد أنْ أريك شيئا.. أنا أعشق الرسم.. بدأتُ بالأمس في رسم امرأة جميلة.. رسمتها من خيالي ثم توقفت ولم أستطع أنْ أكملها..
- أريد أنْ أكمل لوحتي.. ولن تكتمل إلا بك
- وما دخلي بلوحتك؟

قالتها وهي تبسم، وابتسم إياد وأحسَّ أنها تفهمه، فشجعه ذلك على أن يقول:

— هناك مفاجأة لك.. ستعرفينها عندما تأتين

وبالطبع أنهت سونيا غسل السجاد سريعا، ثم نزلت إلى شقة الدور الرابع.. كانت كاملة التشطيب دون أثاث، لا يوجد بها إلا أريكتان طويلتان وبعض المقاعد القديمة وكثير من أدوات الرسم.

وكان الرسام الشقي في انتظارها.. أدخلها وأغلق الباب خلفها سريعا.. أجلسها على مقعد أمام رافعة اللوحة المغطاة.. طلب منها أن تغمض عينيها، ابتسمت وقالت:

— سأغمضها لكن كُن مؤدبا

ابتسم وقال:

— لا تقلقي

أغمضت عينيها، فرفع الغطاء القماشي فظهرت اللوحة.. قال لها:

— افتحي عينيك وانظري.. هل تعرفين هذه المرأة؟

ونظرت سونيا فوجدته قد رسمها، فضحكت وقالت له:

— هذه أنا.. لكن اللوحة مكتملة.. كذبت عليّ وقلت أنك تريد أن تكملها

ابتسم إياد واقرب منها وأمسك بيديها وقال:

— كنتُ أريدك أن تأتيني هنا

تركت نفسها له يقترب منها أكثر، وقالت له بصوتٍ هامسٍ وهي بين يديه:

— ماذا تريد يا شقي؟

— ألا تعرفين بعد؟

— أنت مجرم.. سأخبر الدكتور أشرف

— ماذا ستقولين؟

— أخوك إياد الشقي يتحرش بي

— أخبريني أولاً.. من أين أتيت بهذا الجمل؟

لم تُجب، ونظرت له بدلال مع آهة وتنهيدة متعمدتين، فأطبق إياد عليها بفمه ويديه يتحسس صدرها وأسفل ظهرها، فأفلتت نفسها من بين يديه، وأسرعت تجري ناحية الباب، وفتحته وخرجت.

وتكررت هذه المرات كثيرا جدا مع كثير من التهادي في الجنس، وفي كل مرة تتعمد سونيا أن تترك إياد خلفها دون أن يروي كامل ظمأها منها، فلم تُعطه كل ما يُعطى الزوج كاملا، لقد كانت خيرة، تعرف ماذا تعطي من جسدها، وماذا تدخر لوقت الحاجة.. هي تريده هكذا دائما حاملا شعلة الشوق لها.

ومضى شهران على دخولها هذا البيت، تقابل إياد سرا في شقة الطابق الرابع فترك له نفسها بخبرة في مقدمات الجنس لا حدود لها.. دائما هناك حد لما يستطيع أن يجنيه منها، وهي بالطبع قد صارت ترى أن الوقت قد

حان لأن تحمل طفلا، سواء كان حملها من زوجها سالم أو من غيره، لكنها لم تقرر بعد أن يكون حملها من إياد، إنها أولا قد راحت تدبر بداخلها مدى الاستفادة التي ستجنيها من إياد، لكنها حتى اللحظة لم تجد أن وراء شيئا يغنيها أو يضعها على طريق طموحها نحو الثراء، الثراء الكبير.

ومع علاقتها الخفية بإياد، فهي تقوم بكل أعمالها على أكمل وجه، وتتودد كثيرا للمدام حنان، وتتودد أكثر للدكتور أشرف رغبة فيه كرجل، تشعر تجاهه أنه فقط من يستطيع أن يشبعها كامرأة حتى كامل الارتواء أكثر من أن تجعله فريستها للثراء، لكنه كان يتجاهلها دائما، لدرجة أنه لم ينتبه يوما لهذا التودد والتهافت منها عليه، لكن المدام حنان قد لاحظت شغف الخادمة الجديدة الجميلة بزوجها أكثر من مرة، وبالطبع أرادت أن تنتظر لترى، لعلها تستطيع يوما أن تجد من زوجها ميلا إلى الخادمة أو رغبة فيها، فيكون ذلك سلاحها لجعله خانعا أمام سطوتها الدفينة التي لم تستطع حتى الآن فرضها عليه، فقد كان الدكتور أشرف رجلا مهتديا صاحب دين ومبدأ، لم تفلح معه كل محاولات زوجته حنان لكي تضعفه وتجعله يرضخ لها، لكن منذ متى كان اليأس يهزم كيد النساء؟

عادت مدام حنان من عملها ذات يوم قبل موعد رجوعها المألوف بكثير.. كانت الخادمة راضية في إجازة.. سألت المربية أم السعد عن الخادمة سونيا.. قالت لها أم السعد:

— صعدت للسطح لجمع الغسيل

سألتها عن سلمى وسالي وإياد ومروان، قالت لها:

— إياد فقط هو الموجود

جلستُ على الأريكة الملاصقة للتليفون.. اتصلت بتليفون شقة الطابق الثالث للتحديث إلى إياد، لكن لم يرد إياد، أعادت الاتصال مرات، وفي كل مرة يكون جرسا بلا رد.. أصابها الشك في شيء.. أرادت أن تتيقن، فصعدتُ للطابق الثالث على الفور.. دقت جرس الباب ولا أحد يرد.. اقتربتُ بشكوكها من الحقيقة، فصعدتُ سريعا للسطح لتأكد من وجود سونيا به.. لم تجدها بالسطح.. لم يكن صعبا أن تخمن ما حدث ويحدث.. كان معها نسخة من مفتاح شقة الطابق الرابع.. فتحتُ حنان الباب دون أن تُحدث صوتا.. لم تجد أحدا بالصالة الكبيرة.. سمعتُ أصواتا وهسيسا وحسيسا من إحدى الحجرات.. تتبعْتُ الصوت حتى دخلت الحجرة لترى إياد وسونيا عارين تماما.. كانا غارقين.. نظرتُ لسونيا وقالت:

— البسي ملابسك بسرعة واخرجي لي إلى الصالة

شعر إياد بخجل شديد من زوجة أخيه، لبس ملابسه، وظل بالحجرة في حين خرجتُ سونيا إلى الصالة دون أن تشعر بأي خجل.. كانت حنان تجلس على الأريكة وتنظر لصورة سونيا التي رسمها إياد.. بدا على وجهها السخرية.. عبرتُ سونيا الصالة أمامها ولم تقف عندها، بل مرّت تشق طريقها ناحية باب الشقة وهي تلملم شعرها وطرحتها بيدها.. قالت مدام حنان بغضب:

- توقفي كلميني.. ما هذا الفجر؟
- أعرف أني مطرودة من العمل عندكم.. فلا فائدة من هذا الكلام
ابتسمت لها وقالت برفق:
- تعالي اجلسي يا سونيا.. لن أطرديكِ
- وقفت سونيا ثم استدارت ونظرت لها باستغراب، وعادت ناحيتها،
ثم ظلت تنتظرها أن تتكلم.. ضحكت مدام حنان وقالت لها بسخرية
وهي تشير على مكان بجوارها لتجلس:
- اجلسي يا سونيا.. مؤكداً أنك متعبة
- مدام أرجوك.. ماذا تريدین؟
- ربتت على يدها وقالت:
- اطمئني.. لن يعرف أحد بما حدث
- ثم نادى على إياد أن يخرج، فخرج مطأطأء الرأس، يوارى عينيه
بعيدا عنها، قالت له:
- ارفع رأسك يا إياد.. لا تقلق.. لن يعرف أحد بما حدث بينكما..
- لكن لا تفعل ذلك مرة ثانية.. ماذا لو حملت سونيا منك؟
- وأراد إياد أن يتحدث لكنه شعر بالخجل فسكت، بينما قالت الخادمة
سونيا:
- لا تقلقي يا مدام.. لم نصل لهذه الدرجة
- فضحكت مدام حنان ثم قالت لهما بسخرية:

— الله عليكما يا حلوين

ونظرت لإياد وما زالت تضحك ثم طلبت منه أن يتركهما وحدهما ويهبط لشقته، وبالفعل ظلت سونيا وحدها مع مدام حنان تدبر بداخلها ما تريده المدام، وقالت حنان لها بكل جرأة دون مقدمات:

— ما فعلته مع إياد أريدك أن تفعليه مع زوجي الدكتور أشرف وانتفضت سونيا واقفة وقالت لها:

— ماذا تقولين؟

— قلت ما سمعته.. أريدك أن تنامي مع زوجي

— لماذا تطلين مني ذلك؟

— لا تسألي.. فقط عليك أن تغريه بجمالك لينام معك ثم آتي وأضبطكما كما ضبطتك مع إياد.. سأدفع لك بعدها ألف جنيه.. ثم تتركين عملي عندنا

— أنا لا أستطيع أن أفهم سبب طلبك هذا يا مدام فصاحت بها مدام حنان قائلة:

— عليك أن تنفذي ما أمرك به فقط.. وإلا ستصل فضيحتك حتى زوجك فضحكت سونيا وقالت لها:

— مدام حنان.. أنا لا يهمني زوجي.. فلا تهددني به.. بكل صراحة أنا سأنفذ طلبك فقط لسببين.. الأول الألف جنيه.. ثانيا لأنني أريد فعلا أن أنام مع زوجك

وهنا نظرت لها مدام حنان بغيظٍ واستغرابٍ وقالت باسمة:

— أعرف ذلك أيتها الفاجرة.. فعيناك تفضحك منذ دخلت هذا البيت.. نفذي ما أمرتك به واستمتعي بزواجي ثم فارقينا.. هذا فقط ما أريده منك

وبالطبع فقد فكرت الخادمة سونيا كثيرا في السبب الذي يدفع مدام حنان لأن تدبر ذلك لزوجها، وقررت ألا تبدأ مهمتها الموكلة إليها إلا بعد أن تصل للسبب، وبعد تفكير لم يطل كثيرا فهتت بذكائها وقوة ملاحظتها منذ جاءت إلى هذا البيت أن الزوجة دائما غير راضية عما يقدمه الزوج للفقراء، وغير راضية أن تكون له الكلمة الأولى والأخيرة في كل شيء، وغير راضية عن طريقة تربيته لطفليه.. نعم قد فهتت الخادمة الجريئة شخصية الزوجة الماكرة الراغبة في التحرر والانطلاق بعيدا عن أى قيود أو تعقيدات من زوجها، وراحت الخادمة تحسب كل شيء قبل أن تبدأ المهمة، ماذا ينفعها؟ ماذا يضرها؟.. وأخيرا قررت ما ستفعله ليصب بالنهاية في منفعتها ويخدم طريق طموحها المملوء بالشر نحو حلم الثراء.

انتظرت يوما خرجت فيه مدام حنان لعملها مبكرا بعد أن هيات لها كل شيء لتبدأ المهمة التي أسندتها لها لإغواء زوجها.. وبالطبع كان الطفلان مالك وحبيبة قد خرجا للمدرسة، وخرجت المربية أم السعد لرؤية أولادها كعادتها كل يوم في هذا الوقت.

كان الدكتور أشرف وحده بالشقة.. كان قد استيقظ من نومه وتوضأ
وصلّى صلاة الضحى ثم دخل مكتبه وانشغل في عمله الخاص بحسابات
المحلات والتجارة، وقبل أن ينادي الخادمة لتحضر له الشاي كانت قد
أحضرتَه ودخلت به عليه في مكتبه.. وضعتُ الشاي أمامه ثم ظلت واقفة
تنظر له، انتبه إلى أنها لا تزال واقفة.. رفع عينيه لها وقال:

— ماذا بكِ؟.. ما الذي يوقفكِ هكذا؟

ابتسمتُ له وقالت:

— أنتَ

أسرع يقول مندهشاً:

— أنا؟.. ماذا تقصدين؟

انخرطتُ في البكاء، فوقف وأشار لها من مكانه أن تجلس على المقعد
المواجه، فجلستُ وجلس.. سأها:

— لماذا تبكين؟

لم ترد، إنما استمرتُ في بكائها ولم تنطق، فقال لها يخبرها بخبر ظنَّ
أنه سيسعدها:

— اهدأي اهدأي.. لقد وضعتُ اسمك ضمن مَنْ سيخرجون للحج
هذا العام على نفقتي

فتوقفتُ عن البكاء، وتظاهرت بالسعادة وقالت له:

— أنتَ رجل طيب جدا يا دكتور.. لم أَر مثلكَ في حياتي

ضحك وقال بكل رفق:

— شكرا لكِ يا..... ألن تنجبي ولدا نناديك باسمه.. أم أناديك

باسم زوجك يا أم سالم

فضحكتُ وقالت في سعادة حقيقية:

— هل تعرف اسم زوجي؟.. يا لحظك يا سالم!

— هيا أخبريني عما كان يبكيك

وهنا صمتتُ سونيا لفترة ثم قالت له كأنها تستجمع شجاعتها:

— مدام حنان.. زوجتك

— ماذا فعلتُ لكِ؟

— لم تفعل لي شيئا.. إنما.....

— أكملِي كلامك.. أسمعك

ونظرتُ له وقالت:

— زوجتك غدارة

— سونيا.. هل جنتتِ؟

— زوجتك طلبتُ مني أن.....

— أكملِي

— طلبتُ مني أن أجعلك تنام معي

وانتنفض الدكتور أشرف في مكانه وهو يقول لها:

— ماذا تقولين؟.. هل أنت مجنونة؟

فعادت تبكي وهي تردد وسط ذهول الرجل:

— كنتُ أعرف أنك لن تصدقني.. لذلك كنتُ مترددة.. هل أخبرك

بحقيقة زوجتك أم لا؟

— سونيا.. هل أنتِ واعية لما قلتِ؟

— نعم.. ويمكنك أن تتأكد من ذلك بنفسك.. سأجعلك تسمع

بأذنيك ما أخبرتك به

— كيف؟

— بأية طريقة.. المهم أي سأجعلك تسمع غدرها بك.. وهي تحدثني

عما تريدني أن أفعله معك

وصمت الدكتور أشرف لفترة ثم قال لها:

— أنا موافق يا سونيا.. لكن لو ظهر أنك تكذبين فلن أرحمك

— اتفقنا يا دكتور

وفي مساء هذا اليوم أثبتت سونيا بالفعل غدر الزوجة بزوجها..

همست سونيا لمدام حنان أنها تريد أن تخبرها بشيء هام طارئ، وأنها

ستتظرها في شقة الطابق الرابع، وعليها أن تصعد خلفها سريعا، وبالفعل

صعدت المدام خلف الخادمة، وكان الدكتور أشرف قد صعد قبلها واختبأ

بالاتفاق مع سونيا وراء بابٍ مفتوحٍ لأقربِ حجرةٍ إلى الصالة الكبيرة.
دخلتُ المدام، وتعمدتُ سونيا أن تقف أكثر قرباً للحجرة التي بها
أشرف، كما تعمدتُ أن ترفع صوتها وهي تتحدث.. قالت مدام حنان:

— هيا قولي يا سونيا.. ماذا فعلتِ مع زوجي بالأمس؟

— اطمئني فعلتُ كل شيءٍ أمرتني به

— احكِ لي كل شيءٍ بالتفصيل.. بالتفصيل الممل

— دخلتُ عليه بالشاي في مكتبه.. ووضعتُه أمامه ثم وقفتُ وبكيتُ
فوقف وجاء ناحيتي.. وسألني عما يبكيني.. فنظرتُ في عينيه
وزدتُ في البكاء.. فمد يده ليربت على كتفي.. فاقتربتُ منه
ووضعتُ رأسي على صدره.. وطوقته بيدي، فتردد في البداية
ومتنع قليلاً، ثم ضممني لصدره.. وراح يرفع وجهي إليه.. وقبلني
في وجهي.. فأسرعتُ أقبله في وجهه وعلى فمه كثيراً.. وأتحسس
صدره وهو يتحسس صدري ويضغطهما، ثم أطبق بشفتيه على
شفتي.. وهنا قررتُ أن أتركه فوراً.. لنكمل كل شيء حتى النهاية
في مرة تالية تكونين مختبئة فيها، فتضبطينا بدون ملابس

ابتسمتُ لها حنان وقالت في ذهول كأنها تتحدث إلى نفسها:

— بكل هذه البساطة يا دكتور أشرف تفعل ذلك!!.. أين مبادئك
يا رجل الدين؟!.. آه منك يا سونيا آه!!.. أنتِ شيطانة.. بل إنَّ

الشياطين يتعلمون منك.. استطعت أن تغوي الملاك البريء..
لست امرأة عادية.. أنتِ والله خادمة إبليس
ابتسمت سونيا وقالت:

- المهـم عندي أيضا الألف جنيه يا مدام مقابل أتعابي.. لا تنسي ذلك.. حضرتك طلبت مني أن أغويه.. وها أنا أنفذ مهمتي.. يتبقى فقط مرة أخرى أجعله يخلع ملابسه كلها.. وتأتي لتضبطينا
- أريد ضبطكما في وضع خلع جدا يا سونيا.. ليس مجرد قبلات
- اطمئني.. سنفعل كل شيء يا مدام.. ما رأيك أن تصوريني معه فيديو؟
- يا لفجرك أيتها الشيطانة.. ألا تخافين من الفضيحة؟
- فضيحتي مع زوجك الدكتور أشرف شرف لي يا مدام
- سونيا.. هل صورت فيديوهات مع أحد قبل ذلك؟
- لا

- فلماذا تريدينها مع أشرف؟
- لأتذكر لحظاتي الجميلة مع زوجك دائما يا مدام
- هل ترغبين في زوجي إلى هذه الدرجة؟
- طبعا.. إن معك نعمة كبيرة يا مدام
- هل تحبين المال أم معاشرة زوجي أكثر؟
- الاثنين

— لا تقلقي يا سونيا.. نامي معه حتى تشبعي.. ثم تعالي لأعطيك
أكثر من الألف جنيه.. لكن كما قلت.. اجعليه يخلع كل ملابسه..
سأحطم غروره وكبرياءه بتلك الفضيحة

وهنا خرج الدكتور أشرف إلى الصالة، وقد سمع كل شيء، فلم
يستطع أن يمنع نفسه من أن يواجه حنان بما تدبره.. خرج لها والذهول
يسيطر على كل ملامحه ونظراته، رأت حنان فكادت تقع على الأرض من
الصدمة، لم تتحملها قدماها حتى استندت على الحائط بجانبها.. اتجه
أشرف ناحيتها وصفعها على وجهها وهو يردد في حالة هستيرية:

— لماذا؟.. لماذا؟

(٦)

فيلا أحلام المصري

انتقلت الخادمة سونيا لتخدم في بيت آخر في حي المرعشلى بالزمالك، وكانت الزمالك في ذلك الوقت لا تزال تحتفظ قليلا برقيها وطبيعتها الارستقراطية الثرية قبل الزحام والضجيج.. يظهر ذلك جليا في تلك الأسرة الثرية جدا، والتي لا تعدو أكثر من شخصين، الزوج المهندس صاحب أكبر شركة من شركات البترول معتصم شرف الدين، وصاحب أكبر قرية سياحية بالساحل الشمالى، وصاحب عقارات أخرى لا حصر لها، وصاحب الأربعين عاما، وزوجته الجميلة الرقيقة مهندسة الديكور أحلام المصري التي تصغره بأكثر من خمسة عشر عاما.. يرواحن ويحيئان جيئة وذهابا في هذه الفيلا الكبيرة التي تزيد على سبعمائة متر والأشبه بالقصر.. طرقا كل أبواب الأطباء في الداخل والخارج من أجل الإنجاب.. أخبرهم أكثر من طبيب بأنه ليس هناك من سبب يمنع كل منهما من الإنجاب.. خمسة أعوام منذ تزوجا على هذه الحال.

وكانت الخادمة سونيا قد تمَّ طردها.. والغريب أنَّ مَنْ طردها هو الدكتور أشرف الأمير نفسه بعد أن تأكد من العلاقة الآثمة التي دارت تكرارا بينها وبين أخيه إياد، وطردها معها الخادمة الأخرى راضية، فهي مَنْ اصطحبت سونيا إلى هناك، والأغرب من ذلك أنه لم يطلّق زوجته حنان حفاظا على طفليه مالك وحبّية، أراد لهما أن يتربيا في كنف والدين.. وهو بذلك قد أخطأ خطأ السنين عندما أبقي على حنان ببيته تنخر في جوانبه، وقد ساءت العلاقة كثيرا جدا بينهما لدرجة لا تُطاق، كما ساءت أيضا العلاقة بينه وأخوته، هؤلاء الذين اصطفوا جميعا ضد أخيهام في صف الزوجة الشريرة الطاغية.

ودخلت الخادمة سونيا المحروس البيت الثري الجديد من طريق آخر غير طريق راضية.. ارتدت قناعا ملائكيا ناصع البياض منذ دخلته لتخفي روحها الشيطانية حتى استطاعت أن تنال ثقة مدام أحلام.. كانت هي الخادمة الوحيدة في هذه الفيلا الواسعة، لكن سيدة الفيلا كانت تُضطر أحيانا لاستقدام مَنْ تساعد في أوقات العزائم والحفلات.

وبالطبع فإنَّ سونيا لا تنسى أبدا حُلْم الشراء، إنها لا تزال تحتفظ بشرها خفيا في داخلها، ووجدتْ بذكائها أنَّ هذا المكان هو غايتها التي تريدها، لكنها أرادت أولا أن تغرس قدميها في هذا البيت غرسا ماكرا ذكيا يصير ثمرا لها في المستقبل ويدوم مع الدهر وتقلبات الأيام، ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى رسختْ رسوخا يرضيها، فلتبدأ إذن مرحلة نثر البذور في هذا الجو الممطر بالغفلة والطيبة والثقة العمياء.

بدأت الخادمة تنسج خيوط شباكها حول الزوج المهندس معتصم شرف الدين.. تنتهز كل انشغال لزوجته عنه لتقترب خلالها من الرجل وتملأ الفراغ الذي تركته كثيرا، وما أكثر انشغال الزوجة!، إنها رغم ثرائها كانت تحب عملها جدا، وتقضى وقتا طويلا فيه، لهذا صارت تُهمَل زوجها كثيرا، حتى وقتها المتبقي من وقت العمل كانت تغرق خلاله في قراءة الأشعار والروايات الرومانسية بمجرد أن تدخل حجرة نومها، وبهذا تركت الزوجة الغافلة زوجها الطيب صيدا سهلا ثميناً للخادمة.

وكان المهندس معتصم قد انتبه مبكرا لنظرات الخادمة له، كانت نظرات ساحرة تحمل شعاعين شعاع الجنس مع شعاع الرومانسية، تُرسل النظرات محملة بأروع ما يكون من اللفات والآهات والتنهيدات مع تعبيرات من وجهها تؤجج كل ذرة في كيان الرجل بنار الشوق لها.. كانت خبيرة في أن تنشر نشوة الرغبة في كل خلجات شعوره.. كانت تزلزل جسده زلزلة لا يستطيع أمامها إلا أن يقول لها: (لييك لييك).

وكانت زوجته أحلام جميلة، وكانت رومانسية جدا، وهو يحب الرومانسية كثيرا، لكن أسوأ شيء أن ينثر الشخص الرومانسى رومانسيته في الخيال أو الحرام مع أن الواقع والحلال أحوج إليها، وبكل أسف، فكم من كاتب رومانسي ينظم بقلمه أروع الكلمات على ألسنة أبطال رواياته، لكن لسانه في الواقع يعجز عن أن ينطق كلمة منها لأقرب النساء إليه، زوجته حليلته.

عقد الشيطان اللعين لسان الزوجين عن بعضهما، فأهملت الزوجة الرومانسية زوجها، وأهمل الزوج الرومانسي زوجته، فبرزت لهما خادمة الشيطان الشريرة بلسانها الحلو في الظاهر وقلبها الماكر في الخفاء وعقلها المدبر لكل الشرور لتحول هذا البيت الثري الهادئ إلى حالٍ لا يصدقها عقلٌ بشري. وكانت ثقة أحلام في زوجها لا حد لها، لكن وآسفاه، فكم من مواضع ثقة توضع في غير مكانها !.. كانت تتركه كثيرا بتلك الفيلا الفخمة ذات الأثاث والفراش الأثير مع تلك الخادمة كاملة الأوصاف الجسدية.. لم يخطر على بالها يوما أن يخونها زوجها، فاستلمته الخادمة وتعهده.. أكلا سويا على منضدة السفرة المطرزة جوانبها بالذهب، وشربا سويا أعتق الخمور بأفخم الكؤوس الفرنسية، وناما سويا بكل أسرة حجرات الفيلا المكيفة.. قبلها في كل مكان بجسدها، واحتضنها حتى اعتصرها واعتصرته ليخرج لكل منهما من الآخر كل طاقات الجنس المكبوتة، عاشرها أكثر من مرة حتى النهاية.

جاءته ذات يوم تخبره بأنها حامل.. قال لها في هدوء:

— وماذا في ذلك؟

قالت له:

— أنا حامل منك

ارتجّ في مكانه مذعورا وقال لها:

— مَنْ أدراك؟ ربما يكون من زوجك



- أنا حامل منك.. أنا متأكدة
- كيف وزوجتي لم تحملُ مني لسنوات؟
- باشمهندس.. إنَّ الذي في بطني هو ابنك.. عندما يأتي يجب أن تعامله كابنك
- ماذا تقصدين؟
- أقصد أنَّ ابنك له عليك حقوق.. لن يكون أبوه بهذا الغنى ثم أربيه مع أولاد المتسولين
- هل أصابكِ الجنون؟
- بل أصابني حبك حتى حملتُ منك
- أنا لا أصدق ما تقولين.. ولا تتحدثي عن الحب.. نعرف سويا أنَّ ما بيننا ليس حبا
- وفكرت سونيا قليلا ثم قالت:
- عموما.. سنتنظر حتى أضع الطفل.. وسنرى إنَّ كان يشبهك أم لا لتأكد أنه ابنك
- ولماذا تنتظري لتضعيه؟.. يمكنك أن تقومي بعملية إجهاض.. لي صديق طبيب.....
- لن أعمل عملية إجهاض يا باشمهندس.. سوف أكمل حملي

وشعر المهندس معتصم شرف الدين بفجيرة كبرى، وتعددت حياته، وبدأ يشعر بالخطر الكبير على سمعته ومكانته عند زوجته وأخيه وأخته ومعارفه، وراح يشعر بكيد تلك الخادمة، وظلّ لا يصدق أنّ من في بطنها ابنه حتى فاجأته زوجته أحلام بعد هذا اليوم بأسبوع أنها أيضا حامل. وبالطبع كانت فرحته لا حد لها بحمل زوجته أحلام، وكان مع ذلك قلقه لا حد له بحمل خادمته سونيا، فقد بدأ يميل كثيرا إلى أن يصدقها.. كانت حيرته شديدة.

أما سونيا الخادمة فقد كانت على يقين كبير من أنّ من في بطنها منه وليس من سالم، كانت رغم شدة شرها وكذبها صادقة في ذلك، فسالم لم يعاشرها منذ فترة، ثم إنها تشك دائما في قدرة زوجها سالم على الإنجاب، وإنها كانت دائما تشك في كذب زوجة سالم الثانية نور.. إنها لم تصدق يوما أنّ تلك البنت التي أنجبها نور لسالم ابتته، هي دائما تتعامل مع نور على أنها خائنة لسالم وابتتها من حرام، لكنها تعمدت ألا تظهر لها أي شيء من شكوكها إلا في اللحظة المناسبة.

وعلمت سونيا أنّ مدام أحلام حامل، ففرحت لذلك كثيرا فرحة تفوق فرحة الزوجين، إذن فالمهندس معتصم قد صار قادرا على الإنجاب، وما جعل زوجته الحلال أحلام حاملا منه هو ما جعل خادمته سونيا حاملا منه أيضا لكن في الحرام، إنه بذلك سيصير أقرب كثيرا لأنّ يصدق أنّ حمل سونيا منه، وبالفعل فقد تحدثت له في ذلك ذات يوم بينما كانت زوجته خارج الفيلا.. قالت له:



— أظنك الآن قد صدقتَ أنَّ مَنْ في بطني ابنك

ورغم بقايا من الشك وكثير من القلق راح يقول لها:

— نعم أنا أصدقك

— إذن كيف ستصرف؟.. كيف ستؤمن حياة ومستقبل ابنك؟

نظر لها المهندس، وظل لوقتٍ طويل يفكر ثم قال:

— لا تقلقي.. فإن جاء ووجدته يشبهني وشعرت أنه ابني.. سأجري تحليلاً

معينا لأؤكد من أي أبوه.. ثم سأكتب له من ثروتي ما يؤمن له مستقبله

وهنا غمرت السعادة وجه سونيا، وارتمت عليه تقبله وتحضنه،

ثم أخذت بيده واتجهت ناحية إحدى الحجرات بالفيلا، وخلعت أمامه

كامل ملابسه، ثم نزعَت ملابسه قطعة قطعة وهي تنظر في عينيه نظرات

جنس، وغاصا في بحر الحرام.

وشعرت سونيا بعد ذلك أنها اقتربت كثيراً من تحقيق طموحها..

راحت تفكر فيما يمكن أن يكتبه المهندس لابنها منه.. إنه يمتلك أموالاً

وأملًا كثيرة، يمتلكها وحده رغم أنَّ له أخاً وأختاً أكبر منه، لا يمتلكان

ربع ما يملكه، لذلك فإنها دائماً طامعان فيه، وقد أحزنها جداً إلى درجة

كبيرة لا توصف أن صارت زوجته حاملاً.

(فيا لحظك السعيد يا سونيا!.. لكن لا يجب أن يستحوذ ابن أحلام على

أكثر من ابنك.. هذا أبوه معتصم شرف الدين، وهذا أبوه معتصم شرف

الدين.. لكن طفلي صاحب الحظ الجميل الواعد.. بأي اسم سيكتب؟..

بالطبع سيُكتب باسم سالم.. لا يصح أن يكتبه المهندس معتمصم باسمه..
إنني متزوجة من سالم.. لكن هل من مصلحتي أن تعرف أحلام؟.. بالطبع
لا.. إن كل عائلتها مقامات عالية وأشخاص بكلمة منهم يرمون بي وراء
الشمس الحارقة.. إذن ليظل الأمر سرا بيني وبين عشيقتي معتمصم حتى
أرى ما سيفعله ثم أقرر.. فقد أرميهم أنا وراء الشمس أو تحت التراب

كانت تلك تساؤلات الخادمة سونيا في نفسها.. لم تترك كبيرة أو
صغيرة إلا وفكرت فيها، وحسبت لكل شيء ألف حساب، ورغم
يقينها فكرت في أن يكون هناك احتمال ولو بنسبة ضعيفة جدا أن يكون
من في بطنها ابن سالم، فأفزعها هذا الاحتمال في البداية، ثم قالت لنفسها:
فليكن ابن سالم.. لا يهم ذلك.. المهم أن يُلصق المولود بالمهندس الثري،
لكن ما ظل يُفزعها حقا هو أن المهندس الثري أخبرها أنه سيجري تحليلا
ليؤكد من كون الطفل ابنه وهو أبوه، ولم يطل تفكيرها حتى اهتدت
لتدبير شر محكم يُخرجها من مخاوفها، وإن كان تحقيق بعض جوانبه صعبا.
رأت سونيا أن من السهل لديها أن تُقنع المهندس معتمصم بأن يجعلها
تلد طفلها في نفس المكان الذي ستلد فيه زوجته أحلام، يفعل ذلك
خدمة لها لأنها خادمتها الأمانة الوفية، ومن المحتمل أن تلد أحلام طفلها
أيضا في نفس الأسبوع، فلتخطط لكل شيء بمساعدة أمها أو حتى نور
لتبديل الطفلين.. تأخذ هي ابن أحلام ليُجري عليه أبوه المهندس ما يشاء
من تحاليل ستثبت قطعاً أنه ابنه ومن صلبه، ولتأخذ أحلام طفل سونيا

ليعيش في النعيم الذي سيبدأ بمولده دون أن ينتهي، ويوما ما بعد أن يرث الأموال والأموال التي لا آخر لها تخبره أنها أمه الحقيقية، وتغرق معه في النعيم.. حقا إنه تدبيرٌ عبقرى لا يخرج إلا من شيطانة مخلصه للشيطان.. الشيطان وفقط.

لكنَّ الطبَّ الآنَ تقدم، وصار الناس يعرفون نوع الجنين ذكرا أم أنثى قبل الولادة بشهور.. وما المشكلة في ذلك؟.. لقد وجدت الشيطانة سونيا الحلَّ لذلك أيضا.. ستتتظر حتى تُعلن المهندسة أحلام عن نوع جنينها لتُعلن بعدها أنَّ جنينها هو نفس النوع ولدا كان أم بنتا، لكن إن حدث وكان نوع الجنينين مختلفين، فمن السهل وقتها أن تجد مخرجا لذلك.

يا لكيد تلك الخادمة!.. لم تترك شيئا للصدفة.. إنها تعلم أنَّ الضربة ضربتها، إما أن تضربها ضربا موحها دقيقا حاسما صائبا فتجني الكثير، وإما أن تخيب فتخسر كل شيء لتبدأ من جديد، حتى أنها فكرت في أنَّ المهندس الثري لا شك الآن يعيش في قلق شديد خوفا من أن يفتضح أمره بين أسرته ومعارفه الأثرياء، وقد يقوده قلقه هذا إلى التفكير في التخلص منها بمن في بطنها ليمحو عاره ويحتث جذور فضيحته قبل أن تجتبه.. تعرف أنه قد يفكر في قتلها، لذلك فقد انتبهت كثيرا لذلك.. حتى أنها قد امتنعت عن الاختلاء به، وأوقفت ممارسة الجنس معه.

وكان المهندس الثري قد فكر في قتلها بالفعل، فطلب من أحد عماله المخلصين أن يستأجر سيارة ويدهسها بالطريق، وليجعل الأمر يبدو كما لو كان حادثا عابرا، وبهذا ينتهي كل شيء يقلقه.

فبينما كانت الخادمة سونيا تمشي بجانب الطريق لتصل من شارع الفيلا إلى شارع عمومي، جاءت من خلفها سيارة مسرعة بأقصى سرعتها، تعمّد سائقها أن يدهسها دهسا قاتلا، لكن صدر عنها فجأة التفاتة لا إرادية.. رأت السيارة المسرعة فصعدت فوق الرصيف في سرعة وارتدت جانبا.. اصطدمت السيارة بالرصيف ثم بشجرة حطمت مقدمتها وعظام السائق دون أن تُصاب الخادمة بأذى.

قالت الماكرة سونيا للمهندس معتصم عندما عادت إلى الفيلا سالمة:

— ابنك الذي في بطني نجا من الموت بأعجوبة اليوم

نظر لها المهندس وتظاهر بالانشغال في تقليب كوب الشاي:

— ماذا حدث؟

— مجرد حادث

— أي حادث؟

— سيارة طائشة يقودها شخص أعمى القلب والبصر.. كان سيدهسني

فقال المهندس متظاهرا بالود:

— أريدك أن تحذري على نفسك يا سونيا.. دائما امشي على الرصيف

— هل تخاف علي أم على ابنك؟

— هل هذا سؤال؟.. بالطبع أخاف عليك.. وأخاف على الطفل

— أتمنى ذلك

وجلسْتُ سونيا بجواره، واقتربتُ منه، وراحت تعبثُ ببقايا شعره فوق مقدمة رأسه.. قالت:

— أرجو أن يشبهكَ طفلنا كثيرا.. لأظل أنظر له في كل وقت كأنني أنظر لكَ

ونظر لها وقال مبتسما:

— هل معنى ذلك أنكِ تحبينني يا سونيا؟.. كنتُ أظنُّ أن ما بيننا مجرد.....

فضحكتُ سونيا ضحكة خفيفة وقالت كاذبة:

— بالطبع أحبُّكَ يا باشمهندس.. وإلا فلماذا فعلت معكَ ما فعلت لدرجة أن أحمل منك؟

— لا أعرف يا سونيا.. حقيقي لا أعرف

— لكنني أعرف أنكِ نادم كثيرا.. لكن اطمئن فقد هانت.. خمسة أشهر وأضع لكِ طفلك، ثم تتأكد أنه طفلك.. ثم تكتب له من أملاكك ما يؤمن مستقبله.. ثم آخذه ونختفي من حياتك للأبد

— فعلا أتمنى أن ينتهي كل شيء سريعا سريعا على خير دون أن يعلم أحد وكانت الزوجة المسكينة أحلام تعيش حياتها الرومانسية الحاملة وحدها مع طفلها القادم، فرحت كثيرا لحملها، وبدأت أكثر تقربا لزوجها، بل زاد حبها للخادمة سونيا كثيرا.. ترى فيها وجه الخير، فقد كان قدومها

إلى الفيلا للخدمة قدوما سعيدا عليها، إذ حملتُ بعد سنواتٍ وحرمانٍ من
نعمة الأطفال، وصارت تنتظر بشغفٍ اليوم الذي تحمل فيه فلذة كبدها
بين يديها.. هياتُ له كل شيء، وهياتُ أيضا للحامل الأخرى معها
الكثير، لدرجة أنها كانت تأخذها معها لمتابعة حملها عند نفس الطبيب.

وبالطبع أقلق ذلك سونيا، فكيف ستكذب بشأن نوع من في بطنها
ليكون كمن في بطن أحلام، لكن قلقها لم يَطُلْ، فسرعان ما جاءت
البشائر من الطبيب تعلن أن من في بطن أحلام ولد، ومن في بطن سونيا
ولد.. فيا لجمال تلك البشائر التي هبَّتْ على سمع الخادمة سونيا!.. ويا
لسعادة تلك الشيطانة المخلصة في كل أفعالها للشيطان!.. ويا لسوء ما
ينتظره البيت الهانئ السعيد!

(٧)

داخل مستشفى الولادة

يا لتدبير الأقدار !! في مستشفى خاصة كبيرة من أرقى وأعلى المستشفيات تحدد موعد ولادة المرأتين ليكونا في توقيتين متقاربين كثيرا.. سيُجري الطبيب عملية الولادة أولا للخادمة سونيا، ثم ينتقل بعدها بساعاتٍ قليلة ليُجري عملية الولادة للمرأة الثرية أحلام المصري، وبالطبع سيكون زوج صاحبة الفيلا المهندس معتصم موجودا، في حين لن يحضر زوج خادمة الفيلا سالم الساعاتي، لكن زوجته الثانية نور سوف تحضر، فقد أخبرتها سونيا بخطتها لتبديل الطفلين، وأملت عليها أكثر من مرة ما يجب عليها فعله بكل حذر ودقة، ووعدتها بأموال كثيرة نظير هذا الإجراء الخطير، وستتواجد أيضا وعد والدة سونيا، فحتما ستفيد خبرتها في الكثير، وحتما قد أخبرتها سونيا عن قصة حملها من الرجل الثري.

أما كيف وافقت نور سونيا في كل شيء؟، فهذا يعود إلى دهاء سونيا وأثواب نور الملوثة بالخيانة لسالم كسونيا تماما.. إنَّ هذه الأمور الشيطانية

عند سونيا ونور أمورا عادية، فالشر الذي تجذرت جذوره في أرض بعض البشر قد فاق كل حد، ولا ينبت غرس خير ويطول ويثمر، إلا وينمو بجواره غروس من الشر الدفينة تبغي أن تثمر شرا أكثر، لكن يشاء الله أن يجعل غراس الخير بالنهاية تغطي بظلالها كل شر.

كانت الماكرة سونيا قد اختارت اللحظة المناسبة التي تخبر نور بشكوكها حولها لتضغط عليها حتى تشاركها بتدبيرها الإجرامي، وأن تبقى الأمر سرا، فقالت لها لتجبرها على أن تساعدتها:

— ابنتك زهرة.. أنا أعرف أنها ليست بنت زوجنا سالم

وفوجئت نور بكلام سونيا، وسارعت تقول:

— اخرسي.. ماذا تقولين؟

— أقول الحقيقة

— ومن أدراك أنها الحقيقة؟

— نور.. أنا أعرف كل شيء.. فلا تنكري

— أنت لا تعرفين أي شيء

— بل أنا أعرف ما لا يخطر على بالك.. الطب تقدم يا نور.. ويمكن

لسالم الآن عمل فحوص وتحاليل بسيطة.. ليعرف إن كانت زهرة

ابنته أم ابنة رجل آخر

— هو حر.. فليذهب ويفعل ما يشاء

— إن فعل سيعرف أنه لا ينجب.. ستكون مصيبة عليك وعلى

وصممتُ قليلا، وصممت نور أيضا وهي تفكر وتنظر إلى بطن سونيا،
فقالت سونيا:

— علام تنظرين؟ .. سالم لا يُنجب يا نور

فضحكتُ نور كثيرا وأشارت على بطن سونيا وقالت:

— ومَنْ الذي نفخك هكذا؟

— ليس سالم

— مَنْ إذن؟

— رجل غني جدا

قالتها بكل جرأة جعلتُ نور تصارحها هي أيضا بالحقيقة، فأخبرتها
أنَّ زهرة فعلا ليست ابنة سالم، إنها كانت مجرد غلطة مع عشيق لها ذهب
لحال سبيله.. قالت سونيا:

— لا يهمني إنَّ كان ذهب لسبيله أم ما زال هذا لا يهمني..

إنَّ ما يهمني شيء أهم من ذلك بكثير.. وأريدك أن تساعديني

وسكتتُ نور قليلا ثم قالت بكل حماسة:

— أنا تحت أمرك يا سونيا.. أنا معكِ.. لكن احكِ لي كل شيء

وحكَّتُ سونيا لنور القصة كاملة، كما حكَّتها لأُمها، حتى كان يوم
الولادة راحت تعيد وتكرر عليها الحذر والدقة حتى تتم جريمة تبديل
الطفلين في سلام.



و دخلت الخادمة سونيا حجرة العمليات، وخيرها الطبيب بين البنج الكلي أو البنج النصفي، فاخترت البنج النصفي لتكون واعية لما يدور حولها بحيث لا تدع شيئاً للصدفة.

وأجرى الطبيب عملية الولادة لها، ورأت بعينها ابنها.. كان طفلاً جميلاً.. تناولته من الممرضة فنظرت له قليلاً، ثم أعادته لها دون أن تقبله ليوضع في الحضّانة، وأمها بجوارها تنظر لها، وتطمئنّها بنظراتها ألا تقلق، فكل شيء سيمضي كما خطّطنَ له.

وتَمَّ نقل الخادمة سونيا من حجرة العمليات إلى حجرة أخرى لتتعافى فيها.. كانت حجرة غاية في النظافة والترتيب.. جاءوا لها بأفخم أنواع الطعام والشراب والدواء.. همست سونيا لأُمها:

— أنا قلقة

ربتت على كتفها وقالت:

— لا تقلقي

وفجأة دخلت إحدى الممرضات والخوف يغطي وجهها وكلماتها..
قالت في ذعر:

— الولد.. الولد

سألته سونيا سريعاً في قلق:

— ماذا حدث؟.. ماذا تقصدين؟

قالت المريضة:

— ابنك.. إنه غير موجود في الحضّانة

تبادلّت سونيا وأمها وعد النظرات، وتظاهرا بالقلق والغضب الشديدين.. راحت الأم وعد تصرخ وتلطم خديها، وتروح وتجيء في الحجرة وخارجها في الممر، وراحت سونيا أيضا تصرخ وتبكي وهي تقول:

— ماذا تقولين؟.. ابني.. أين ابني؟.. سأحبسكم جميعا

واستمرت الأم وعد في الصراخ:

— حبييتي يا بنتي.. خطفوا ابنك منك،، حرموك حتى من حضنه..

أكيد نور بنت الحرام وراء ذلك.. مَنْ غيرها قد يفعلها؟

وسادت حالة من الاضطراب في المستشفى في نفس الوقت الذي كانت حجرة عمليات الولادة تُهيأ من أجل مهندسة الديكور أحلام، ولحظ زوجها المهندس معتصم شرف الدين هذا الاضطراب.. سأل فلم يصل لشيء، فقد تعمدت إدارة المستشفى أن يبقى أمر اختطاف الطفل الوليد سرا حفاظا على سمعتها، كما حرصت سونيا وأمها وعد ألا يثيرا قلقا كثيرا، فتوقفا عن الصراخ حتى ينتهي هذا الأمر سريعا دون تعقيدات أو مفاجآت، ولجأتا إلى الهدوء والتركيز في إكمال جريمتهم الشيطانية.

وكانت مدام أحلام في غرفتها تستعد لدخول حجرة العمليات.. يجلس بجانبها زوجها المهندس معتصم ممسكا بيديها يطمئنها.. نظرت له وقالت:

— أخيراً يا معتمد سارى ابني.. أخيراً سأحمله بين يدي وأقبله وأحتضنه
ابتسم لها زوجها وقال:

— الحمد لله يا حبيبتى.. أنتِ طيبة وتستحقين كل خير
وضغطت على يد زوجها وقالت:

— معتمد.. بعد نزول الطفل لا بد أن تكون موجوداً.. احذر أن
يقع خطأ فيسجلوا طفلاً آخر باسمنا.. معتمد هذا الأمر يقلقني جداً
وضحك المهندس معتمد وقال لها:

— يا حبيبتى لا تقلقي.. ودَعِكِ مِنْ حكايات الأفلام هذه.. هذه
مستشفى كبيرة لا يقع فيها مثل هذه الأخطاء.. ابعدى الأوهام
عن تفكيرك

— ربنا يستر

ودخلت مدام أحلام حجرة العمليات، وكان المهندس معتمد
يقف خارجها قلقاً، وبجواره تقف أخته نرمين وأخوه مدحت.. جاءا
متأخرين، ووقفوا على ظاهرهما يدعوان لزوجته أخيهما وجنينها بكل خير،
لكنهما كانا في الحقيقة الخفية يتمنيان كل شر خاصة للجنين الذي سيرث
عنها كل شيء.

ولمح المهندس معتمد من بعيد امرأة متجهة ناحيته تنادي باسمه..
كانت وعد أم خادمته سونيا.. قالت له وقد تظاهرت بالبكاء:

- سونيا تريدك يا سعادة البيه
- نظر إليها باستغرابٍ شديد، وقال لها:
- مَنْ أَنْتِ؟
- أنا أمها
- ماذا تريد سونيا؟
- لم تخبرني بشيء
- لكنني مشغول الآن
- لن تتأخر عليها.. تعال معي دقيقة واحدة
- قلت أنا مشغول
- فطلب منه أخوه مدحت أن يذهب ولا يقلق على زوجته، فذهب على مضض، فقالت نرمين:
- ماذا يحدث؟
- ضحك مدحت وقال:
- عرفتُ أَنَّ خادمتَه ولدتُ في نفس المستشفى
- قالت نرمين لمدحت غاضبة:
- ما شاء الله.. مؤكّد على حسابه.. أمواله كثيرة
- نرمين.. ألن تتوقفي عن الطمع في أموال معتصم؟.. زوجك ليس فقيراً.. ومعتصم تغرّب وتعب كثيراً لكي يجمع هذا المال.

نظرت له وقالت بغضبٍ أكثر:

— قل هذا الكلام لنفسك.. أنت أكثر مني طمعا

ودخل المهندس معتمٍ إلى حجرة سونيا، فانخرطت منذ رأته في البكاء، وتركتها أمها وحدهما وخرجت.. جلس بجوارها على سريرها، وأسرع قائلاً لها:

— هل تعرف أمك شيئاً؟

قالت كاذبة:

— لا

فنظر بجانبها، فلم يجد الطفل، فقال لها:

— لماذا تبكين؟.. ماذا حدث؟.. أين الطفل؟.. هل هو في الحضانة؟

فقالت له بتوجعٍ مصطنع وحسرة مفتعلة:

— ألا تعرف؟

— ماذا أعرف؟

— خطفوا ابني

فأصابته دهشة وذهول أعقبهما ارتياحٌ خفي، وقد فهم سبب الاضطراب والتوتر الذي ساد المستشفى.. قال لها متظاهراً بأنه قد تأثر بسبب خطف الطفل:

— كيف؟.. إنها مستشفى كبيرة.. كيف يحدث ذلك فيها؟

— لا أعرف

- مؤكد هناك أحد يعرفك فعل ذلك.. هل تشكين في أحد؟
- نعم.. أشك في نور
- مَن نور؟
- زوجة زوجي
- ولماذا تفعل ذلك؟
- الغيرة قتلتها منذ علمتُ أني حامل في ولد.. مَن غيرها يفعلها؟
- معقولة!.. ماذا تظن هي؟
- تظن أنها ستحرق قلبي على ابني بذلك
- كيف؟.. البلد فيها قانون.. يجب أن تحبسها
- ونظرتُ له وما زالت تبكي:
- طبعاً سوف أحبس هذه المجرمة.. لكن لا تقلق أنت.. سيعود ابننا
- ونظر لها في اندهاش وقال بسخرية شديدة:
- ابننا!
- نعم ابننا.. هل ستبدأ في الإنكار؟
- ورأى المهندس معتمداً أنه من الأفضل له أن ينهض ويتركها، فأسرعتُ
سونيا وخففتُ من صوت بكائها، وسألته عن زوجته مدام أحلام،
فأخبرها أنها على وشك أن تنتهي من الولادة، ونهض من مكانه فأمسكتُ
بيده، وتظاهرت بأنها تشعر بالألم الشديد، وأنها على وشك الإغماء بسبب أن

مفعول البنج قد زال، وراحت توصيه إن ماتت أن يبحث عن نور، ويستعيد طفلها منها، ويربيه في بيته كأخيه الآخر من أحلام، والمهندس معتصم لا يعرف ماذا يفعل أو كيف يتصرف ليتركها ويذهب سريعا ليطمئن على زوجته ويرى طفله منها.. لم تترك له الشيطانة فرصة لأن يتركها.

شيطانةٌ خلقت من شر ومكر ودهاء، لا تكلُّ، ولا تملُّ عن أن تصل لهدفها وأن تُنهي جريمتها كاملة.. كان كل حرصها على ألا يرى المهندس معتصم طفله من أحلام.. تخاف أن يحفظ شكله.. لا شك الآن أن الممرضات سيضعون طفل أحلام في الحضّانة، وهنا يأتي دور أمها وعد، ستأخذ الطفل من نور التي شعرت بالندم فأعادته، وبالطبع ستضع وعد طفل أحلام في الحضّانة على أنه طفل سونيا، ونضع طفل سونيا في حضّانة أخرى على أنه طفل أحلام، لكن لماذا الخطف؟

الخطف كان ضروريا حتى لا يُسمح للممرضات برؤية طفل سونيا وحفظ شكله وتسجيله باسمها، ولكن قد تُسجن نور لخطفها الطفل، لا يهم أن تُسجن يوما أو يومين، فقد ندمت وعادت، وهذا سيجعل عفو سونيا عنها شيئا طبعيا مقبولا.

هكذا هي بقايا الخطة المرسومة، لكن هناك نرمين أخت المهندس معتصم وهناك مدحت أخوه، لقد ظلّا واقفين أمام حجرة العمليات، لا شك أنها سيريان طفل أخيهما من أحلام بينما تخرج به الممرضة، فماذا لو كانا ممن يتسمون بقوة الملاحظة فيحفظا شكله؟.. تلك حقا كانت

المفاجأة التي لم تكن في حسابات سونيا.. لكنها والله محظوظة، إذ لم يطبقا البقاء واقفين ليريا الطفل الوليد الذي سيرث الأملاك ويحرمهما، فذهبا فور ذهاب معتصم لاحتماء فنجاني قهوة، ومرّ الأمر بسلام.

حقاً.. ما أخطر أمر الحضانة بعد الولادة ! إنه أكثر شيء مثير للقلق في عيادات ولادة النساء.. من السهل جدا اختلاط المواليد الجديدة، ومن السهل جدا وقوع الأخطاء دون تعمّد، ومن الوارد أن تسهو ممرضة فتضع اسماً لمولود آخر غير المقصود بالخطأ، ومن الجرائم الميسورة أن يتم تبديل المواليد دون أن ينتبه أحد.. إنه أمرٌ خطير يُرعب كثيرين، لذلك فما أفضل الزمن القديم عندما كانت النساء تلد في حجرة نومهن بعيداً عن احتمالية هذه الأمور الخطيرة المضيفة للأنسب والأموال والمشاعر !

وها هي مدام أحلام الثرية قد خرجت من المستشفى بطفل الخادمة سونيا والفرحة تغمرها، وبجوارها زوجها الثري المهندس معتصم، وها هي أيضاً الخادمة سونيا قد خرجت من المستشفى بطفل مدام أحلام الثرية والفرحة تغمرها.. حدثت تلك الجريمة لينشأ ابن الخادمة وينمو ويكبر في حضان القصور والنعيم، وينشأ ابن القصور والنعيم في حضان خادمة متسولة، كلُّ حياتها شر ودهاء وإخلاص لإبليس.

ياسين سالم السعدي.. ياسين هو الاسم الذي سجّل به ابن المهندسة الثرية أحلام، وسالم هو اسم الأب على غير الحقيقة الذي نُسب له ياسين

ابن القصور، وبدر معتصم شرف الدين.. بدر هو الاسم الذي سُجِّلَ به ابن الخادمة سونيا، وقد نُسِبَ فعلاً لأبيه الحقيقي المهندس معتصم، وإن كان ابن حرام من الخادمة سونيا صاحبة كل حرام.

أما عن التحاليل التي ذكرها المهندس معتصم لسونيا للتأكد من أبوته لابنها، فقد حاول الرجل أن يتملص منها أكثر من مرة، ولكن لم تمنحه الخادمة سونيا فرصة التملص.. هددته بأن تخبر زوجته أحلام، بل وتخبر أخاه وأخته ومعارفه والناس أجمعين.. قالت له:

— الولد يشبهك تماماً.. كل من سيراه سيعرف أنه ابنك ويفضح أمرك وتندمر حياتك.. لكن بالنسبة لي فأنا مجرد خادمة.. وكل ما سيصينني أن يطلقني زوجي سالم.. وهذا ما أريده

— أنتِ شيطانة يا سونيا

— أنا أعرف أي شيطانة.. فكن أنتِ الملاك.. وحقق وعدك معي

— اتفقنا.. سنبدأ في عمل التحاليل

وأُجْرِيت التحاليل أكثر من مرة عند أكثر من طبيب يثق بهم المهندس معتصم.. أثبتت جميعها أن الطفل ياسين ابنه ومن صلبه، وحتماً لا بد أن يكون ابنه، هذا بسبب التبديل الإجرامي، وليس فقط لأن المهندسة أحلام سيدة مخلصه له بنت أصول لا تخون، وبالطبع فإن بدر هو أيضاً ابنه لا ابن سالم، وذلك لأنه كان يشبهه كثيراً كما يشبهه ياسين إلى درجة كبيرة تقطع أية شكوك.

وطلب المهندس معتصم من الخادمة سونيا أن تقابله يوما في مكان ما خارج الفيلا.. ذهبَتْ ومعها ياسين.. كان ينتظرها في سيارته.. ركبت الخادمة بجواره وياسين على يديها.. ألقى الأب نظرة على طفله دون أن يتسم له أو حتى يقبله.. قالت له:

— إنه ابنك ياسين.. كيف لا تحمله وتقبله وتلاعبه؟

قال في غضبٍ شديد:

— دعكِ من هذا الكلام.. لقد ربتُ لابنكِ كل شيء.

— هذا شيء جميل.. أخبرني ماذا ربتَ؟

— سأحول في البنك أموالا غدا باسمه تغنيه طوال حياته.. فوائدها

فقط تجعله يعيش غنيا.. وسأعطيك مبلغا تشتري به شقة باسمه..

ليتزوج بها عندما يكبر

— وأنا.. ماذا ستكتب لي؟

— وما دخلي بك؟

— أنا أم ابنك.. أم أنك كنتَ تعاشر بقرة!

— ستأخذين أنتِ أيضا فوق ما تتوقعين.. وبعدها عليك أن تحتفي

من حياتي للأبد

وسكتت الخادمة سونيا للحظة تفكر، ثم قالت:

— أنا موافقة.. لكن متى تفعل ذلك؟

— غدا صباحا.. انتظريني في نفس المكان

وبالفعل.. فقد نفذ المهندس معتمد شرف الدين كل ما وعد به الخادمة مع التأكيد عليها ألا تعود إلى فيلته أو تخرج أمامه في طريق يسلكه، فقالت له:

— وماذا إن سألت عني مدام أحلام؟

— سأخبرها بأنك قررت أن تتفرغي لتربية ابنك

— ولماذا نكذب؟.. أنا لا أحب الكذب

فنظر لها المهندس معتمد نظرة اندهاش ثم قال:

— سأكذب أنا وأخبرها أنك تركت الخدمة في البيوت

— لكنني سأظل أعمل

— أنت حرة.. فقط سأقول لها ذلك وينتهي الأمر.. هل تظنين أنها

ستراك بعد ذلك؟

قالها معتمد بغضب فقالت سونيا وهي تبسم بكل ثقة:

— ربما

(٨)

سونيا وقامر الغمراوي

أقامت الغجرية سونيا بشقتها بالعبور وليمة كبيرة يوم سبع ياسين،
دعت إليها أهلها ومعارفها.. أكل الجميع حتى شبعوا ثم انصرفوا..
طلبت سونيا من نور وراضية أن تبقيا للمبيت عندها.. حمل الزوج سالم
الطفل الوليد ياسين والفرحة تغمره.. نظر إلى زوجته سونيا وقال لها:

— أنتِ وجه السعد والخير عليَّ يا سونيا.. ما أجملَ هذا الطفل!..
لكن لماذا لا يشبهني؟

فنظرت له سونيا نظرة احتقار لم يلحظها، ثم قالت:

— ملاحه لم تظهر بعد

ونظرت نور لسونيا ثم قالت لسالم:

— عندما يكبر ملاحه ستقلب لك يا سالم

وشعرت راضية بحسرة، لكنها أخفتها بداخلها، ونصنعت الابتسامة قائلة:

— ربنا يبارك يا سونيا.. يتربى في عزك يا سالم

فألقي عليها سالم نظرة غضب مشوبة بالازدراء ثم سكت في حين

قالت سونيا تسألها عن عملها:

— ما أخبار الشغل معكِ يا راضية؟.. ألم تعودى لبيت الدكتور
أشرف وحنان؟

فابتسمت راضية، وقد تذكرت ما فعلته سونيا مع إياد، فقالت:

— طبعا لم أعد لبيتهم.. وأنتِ تعرفين السبب
وتدخل سالم وقال يسألها:

— ما السبب؟

قالت راضية بسرعة:

— لا شيء يا سالم

ونفضت من مكانها تستأذنهم في أن تذهب للنوم، وألقت سونيا
الطفل ياسين ثديا ليرضع وينام، في حين سألت نور بعد أن انصرفت
راضية إلى إحدى الحجرات:

— ما لها راضية؟

قال سالم غاضبا:

— مؤكدا أنها حاقدة عليكما.. إنها أرض بور.. والأرض البور تؤلم
كل من يمر بها

وكان أول شيء فعله سالم بعد ذلك خاصا براضية أن طلقها،
وأخرجها من شقتها معه في منشية ناصر، ونقل سونيا مكانها.. وارتاحت
سونيا لذلك كثيرا، فقد قرَّبها نقلها من مدينة نصر.

اطمأنت سونيا وفرحت كثيرا، ومَن في مثل فرحتها؟ .. إنها قد صارت صاحبة الأموال بالبنوك، ولديها شقة بالحي السادس بمدينة نصر، فقد صدق المهندس معتصم في كل ما وعدها به من أجل ياسين، حتى أنه أعطاهم مبلغا كبيرا للشقة، لكنها بخلت فاشترت بنصفه شقة السادس واحتفظت بالباقي في البنك مع الأموال الأخرى، وبالطبع لم تنسَ نور من هذه الغنائم، كما لم تنسَ أمها.

لكن الزوج الساذج سالم بالطبع لم يكن يدري بأي شيء من ذلك، إنه قد حمل زهرة ابنة نور ولاعبها كثيرا على أنها ابنته، وصار يحمل ياسين ويلاعبه كثيرا على أنه ابنه، إنه الزوج المخدوع خديعة السنين، إنه لا شيء عند زوجتين خانتاه كثيرا، ولا تزالان على استعداد لأن تخوناه كل يوم، لكن راضية الزوجة الأولى له، الأصلية التي أحبته ولم تخن قد طلقها، طلقها لأنها أرض بور كما يظن مخدوعا.

واشتاقت سونيا العجرية إلى عمل التسول رغم ثرائها الخفي الذي لا يعلمه غير نور وأمها، فبدأت تواظب على الذهاب إلى مكان تسولها القديم بإشارة تقاطع شارعي الطيران ومصطفى النحاس أمام مطعم البرج، وكانت قد أكدت على ريبا ابنة خالتها وعلى نوال أنها ستعود، وكانت خلال الشهور السابقة تعود بالفعل من وقت لآخر، فتأخذ ما تستطيع أن تأخذه منها ثم تغادرهما على أن تعود.

وكان قد مرَّ ما يقرب من عام منذ وضعتُ، وأحزنها أن أضاعت عاما كاملا بلا عمل وبلا غنائم جديدة، لكن عند عودتها أخذتُ الطفل ياسين معها إلى العمل، وبالطبع فإنها لم تأخذه لترضعه دائما فلا يجوع بدونها، ولم تأخذه لأنها لا تقوى على مفارقتها، ولم تأخذه حبا له.. هي لم تشعر بعد أنها تحبه، لكنها قطعاً تشعر ببعض الحب لابنها ابن بطنها بدر، لكنها أرادت أن تستثمره لينفعها وينفع نفسها الشريرة الطموحة قبل أن ينفع نفسه، ولهذا زرعت زرعاً شيطانيا مؤلماً داخل هذا البيت الثري كوديعة لها تسترد كامل ربحها يوما ما كثيرا كثيرا.

وإنَّ الطفل ياسين أيضا كان لا بد أن تستثمره، فأخرجته للعمل متسولا وهو ابن عام.. ياسين ابن الحسب والنسب والجاه والقصور والأملأك والأموال التي لا آخر لها سيحيا حياته في الشارع وداخل الحارات الشعبية وسط رفاقٍ من المتسولين واللصوص والبلطجية.. ماذا لو علمتُ أمه الحقيقية صاحبة القصور بذلك؟ تلك المرأة الرومانسية الرقيقة مهندسة الديكور، ماذا لو علمتُ أن ابنها هو طفلٌ آخر غير الذي يحبو بقصرها فوق الحرير، طفلٌ اسمه ياسين؟ ذاك الذي تحمله كل يوم متسولة تتسول به تحت حر الصيف الذي يصهر الحديد، وتحت برد الشتاء الذي يقرص الدببة.. أجل ماذا قد تفعل المهندسة الثرية أحلام المصري إذا علمتُ أن الطفل بدر الذي ترضعه الآن، وتصب عليه الحب صبا، وتحفيه بعينها من كل لفحة هواء، وتحبه أكثر من حبها لنفسها ليس طفلها؟.. يا الله!

وقف تاكسي جانبا أمام مسجد نوري خطَّاب على الجهة المقابلة لحي مدينة نصر والمواجهة لمطعم البرج حيث كان تسول سونيا، نزلت منه امرأة شابة جميلة تحمل طفلا رضيعا.. كانت سونيا، قد استقلت هذا التاكسي من منشية ناصر حتى مكان عملها، وبالطبع ليس خوفا على ياسين، إنما لأنها قد صارت تحب الترفيه عن نفسها كثيرا، تأكل جيدا، وتشرب جيدا، وتلبس أيضا جيدا للدرجة أنها قد صارت ليس فقط مثار حديث المتسولين والمتسولات، بل صارت أيضا محط إعجاب الزبائن.

قال لها يوما شاب من نافذة سيارته بعد أن أخذ منها علبة مناديل صغيرة وأعطاهما عشرين جنيها:

— أنا لا أصدق أنك متسولة.. ومع ذلك سأعطيك العشرين جنيها من أجل جمالك

ابتسمت له وقالت:

— كلك ذوق يا بيه.. ربنا يكتر من أمثالك

فركن سيارته جانبا وهي تتبعه وعلى يديها الطفل.. سألها:

— الجميل.. ما اسمه؟

أجابت بمكر:

— ياسين

ابتسم وقال:

— لا أقصد الطفل.. إنما أقصد من تحمل الطفل

ابتسمت وقالت:

— سونيا

ضحك وقال:

— وأنا تامر

وتناول من درج سيارته ورقة، وكتب بها رقم تليفون، وناولها الورقة مع عشرين جنيها أخرى وهو ينظر لها ويبتسم قائلاً:

— كلميني على هذا الرقم

أخذت سونيا الورقة والعشرين جنيها، ووضعتهما بحقيبة صغيرة معها دون أن تنظر بالورقة، وراحت تُكْمِل عملها، وكان الطفل ياسين قد انخرط في بكاءٍ طويل مؤلم للقلب، فلم تلتفت له وكأنها لا تسمع بكاءه حتى جاءتها نوال.. قالت لها وهي تنظر للطفل وترق لحاله:

— سونيا.. سأسألك سؤالاً

نظرت لها بترقب وكأنها توقعت سؤالها وقالت:

— اسألي

— هل هذا الطفل ابنك أم إيجار.....؟

قاطعتها قائلة بكل ضيق:

— وما دخل أمك بذلك؟

— إنه يبكي منذ فترة.. اجلسي جانبا وأرضعيه

— لا تتدخل في ذلك.. أو خذيه وأرضعيه أنتِ
فوضعتُ يدها على صدرها وقالت وهي تبتسم:
— كنت أتمنى ذلك.. لكن من أين آتي باللبن له؟
ضحكت سونيا ضحكة غير سوية وقالت تمازحها:
— اذهبى واحملي وهاتي لنا طفلا ولبنا.. أم أن الموكوس زوجك لا
فائدة منه؟

وضحكت نوال قليلا ثم سألتها:
— الشاب الذي أعطاك ورقة منذ قليل.. ماذا يريد منك؟
فنظرت لها سونيا بغضب وقالت:
— اهتمي بشغلك فقط.. لا تشغلي بالك بي
— سونيا يا حبيبتي.. احذري منه
— هل تعرفينه؟
— نعم.. لكن ريبا بنت خالتك تعرفه أكثر.. ألم تخبركِ؟
— بَمَ تخبرني؟

— هو السبب أنها لا تأتي هنا منذ فترة
والتفتت لها سونيا باهتمام أكثر، وطلبت منها أن تخبرها بالقصة كاملة.
أخبرتها نوال أن هذا الشاب يعمل في العقارات وكل شيء يجلب
مالا، وهو نصاب محتال.. بدأها مع ريبا بتمثيل دور المعجب ثم العاشق

الولهان، وذهبت له وقابلته، واختليا ببعضهما، ووثقت به، فأخذ منها أموالا كثيرة بحجة أنه سيستثمرها لها، ويعطيها منها عائدا كبيرا، وبالفعل كان يعطيها ربحا كبيرا في البداية، ثم فجأة أخبرها بأنه خسر كل أمواله، واختفى بعدها، ثم ظهر ثانية منذ أسبوع.

نظرت سونيا لها وقالت بكل تحد وعزم:

— إذن سأريكِ يا نوال ما سأفعله بهذا النصاب

— ماذا ستفعلين؟.. سونيا احذري.. إن رينا لم تأخذ منه أي حق أو باطل

— أنا لست رينا الموكوسة.. لكن أخبريني.. هل هو غني؟

— انظري إلى سيارته لتعرفي.. طبعاً غني.. لكنه نصاب ومكار

— المهم أنه غني.. هذا ما أريده

وكان بالشقة التي انتقلت لها سونيا في منشية ناصر تليفون أرضي.. كان أول شيء فعلته عندما دخلت شقتها أن ألقت ياسين على سرير بحجرة صغيرة.. بكى فأغلقت الحجرة عليه.. ضغطت سبعة أرقام، كانت رقم الشاب تامر.. ردَّ عليها:

— آلو

لم تتحدث، إنما راحت تتنهد دون أن تُخرج صوتاً مفهوماً.. فهم أنها أنثى تعاكسه.. قال لها:

— أَلن أسمع صوتك؟.. آلو.. عموماً أنا مرتاح هكذا.. لو بقيتُ

أسمع تنهيداتك هذه ليوم القيامة فلن أشعر بملل.. يبدو منها

أنك جميلة جداً وأنثى جداً

أغلقت الخط حتى تغير ملابسها.. رنَّ جرس التليفون.. عرفت أنه هو، وقد عرف رقمها من إظهار الرقم عنده.. تركت التليفون يرن، وتركت ياسين يبكي، وكانت قد جلبت معها طعاما وفاكهة وهي عائدة من العمل.. جلست تأكل وتشرب، والتليفون يرن، وياسين يبكي ويسكت ثم يبكي بكاءً يقطع نياط القلب، لكن ماذا لو كانت تلك الشيطانة بلا قلب؟

أكلت وشربت حتى شبعت.. اتجهت ناحية الكاسيت.. وضعت به شريطا لميادة الحناوي.. أدارت الأغنية: (أنا بعشقك أنا.. أنا كُلِّي لك أنا.....)

عاد جرس الهاتف يرن.. لم يكن لديها خدمة إظهار الرقم.. أوقفت أغنية ميادة ثم رفعت الساعة.. انتظرت حتى سمعت صوت الشاب، ثم أجابت بكل أنوثه ودلال:

— ألو

قال الشاب وهو يخمن أنها هي سونيا المتسولة التي أعطهاها رقمها أول اليوم:

— مَنْ معي؟

لم ترد، إنما أدارت الكاسيت.. ووضعت ساعة التليفون على سماعة الكاسيت ليسمع الشاب تامر صوت ميادة الحناوي: (أنا بعشقك أنا.. أنا كُلِّي لك أنا.....) ذهبت، وألقت نظرة على الطفل المسكين ياسين فوجدته قد سكت

ونام، فذهبتُ ونامت وتركت تامر يسمع أغاني ميادة الحناوى على أمل
أن يسمع صوت سونيا المحروس بعدها.

وفي الصباح في مكان عملها وقفت بجانبها سيارة تامر.. ألقت نظرة
فوجدتُ تامر ينظر لها ويبتسم، ثم وجدته يدير كاسيت سيارته لسمع
صوت ميادة الحناوي: (أنا بعشقك أنا.....)

ابتسمتُ له ففهم أنها هي.. قالت له:

— انتظري الليلة.. سأتصل بك

ضحك وقال لها:

— أغنية مَنْ سأسمعها الليلة

ابتسمتُ بأثوثة وقالت:

— أنتَ وحظك

— المهم أن أسمع صوتك بعدها

— سوف تسمعه

وعند منتصف الليل اتصلتُ به ولم تتحدث، إنما تركته يسمع أغنية
قارئة الفنجان: (جلستُ والخوف بعينيها.. تتأمل فنجاني المقلوب..
قالت يا ولدي لا تحزن.. فالحبُّ عليك هو المكتوب.....)

بعد انتهاء الأغنية أغلقتُ الخط.. اتصل فأجابت:

— ألو

قال في شوقٍ لأنَّ يتحدثنا:

- أخيراً سأسمع صوت القمر
- لقد وعدتكَ أن تسمعه.. وها قد سمعته.. هل هناك شيء آخر تريده؟
- نعم أريدك.. أقصد أريد أن نتحدث كثيراً
- هل تعطي رقمك لكل مَنْ تبيع المناديل في الشارع؟
- لا طبعاً.. أعطيته لك فقط لأنني معجب بك
- هكذا دون أن تعلم عني شيئاً.. اسمي.. أهلي.. سكني
- أنا معجب بك أنت.. لا باسمك ولا أهلِكَ ولا سكنك.. ومع ذلك.. ها أنا أسألك عن اسمك
- اسمي سونيا المحروس
- طبعاً أنتِ متزوجة؟
- ولماذا أنتِ متأكدة؟.. هل قرأتِ على وجهي أنني متزوجة؟
- لا.. لكن من الطفل الذي تحمله وأنتِ تبيعين المناديل
- ألا تعرف أننا نؤجر الأطفال لنعمل بهم؟
- أسمع ذلك لكنني لا أصدق
- يجب أن تصدق.. فنحن مجرمات جداً
- ربنا يحفظنا
- عموماً.. أنا ما زلتُ بنتاً يا أستاذ تامر
- وبالطبع فهي تكذب على تامر الذي صمت قليلاً ثم سألها:

- أين تسكنين؟
- في كوكب الأرض
- ظريفة يا أستاذة سونيا.. لكن أين في كوكب الأرض؟
- في قارة أفريقيا
- أين في قارة أفريقيا؟
- في مصر
- أين في مصر؟
- في القاهرة
- أين في القاهرة؟
- لِمَ كل هذا؟.. هل ستستخرج لي بطاقة شخصية؟
- نكتة ممسوخة
- وأنتَ مثلها
- لِمَ هذا الكلام؟
- أنتَ مَنْ بدأتَ؟
- وأنتِ لستِ فتاة عادية
- أعرف
- وأنا لستُ شابا عاديا

- أعرف.. لهذا أكلمك الآن
- هل لكِ تجارب سابقة يا سونيا؟
- ماذا تقصد؟
- أقصد أنكِ فتاة جميلة.. مؤكدة قد مررتِ بتجارب حب أو.....
- ماذا تقصد بـ أو؟
- جنس
- تأدب يا تامر.. لا يغرنك أننا وحدنا والشیطان ثالثنا
- ضحك تامر وقال:
- لا تفهميني خطأ يا سونيا
- إنَّ مشكلة كل الرجال معي أني أفهمهم فهما صحيحا
- صدقيني أنا غرضي شريف
- ما هو غرضك الشريف إذن؟
- أن نتعرف أكثر.. ونتقابل.. ثم نقرر
- ماذا تعمل يا تامر؟
- أنا رجل أعمال.. كل الأعمال.. لي في كل شيء
- هذا جيد.. قد نعمل سويا
- وضحك تامر ثم قال:

- كيف؟.. ماذا نعمل سويا؟
- هل تظنني فقيرة لأنني أبيع مناديل
- لا أقصد والله.. لكن.....
- تامر.. أنا أغنى منك مهما كنت غنيا.. لا تنسَ كلمتي تلك
- وسارع تامر يقول:
- لا نفهميني خطأ يا سونيا.. كنتُ أمزح معكِ.. عموماً.. أتمنى أن
- نعمل سويا
- وأنا أتمنى ذلك
- وسكتَ تامر قليلاً فقالت له:
- لماذا لا تتكلم؟
- أسكت لأسمع دقات قلبي
- لِمَ يدق قلبك؟
- مِنْ شدة إعجابه بكِ
- ما هذا الكلام الجميل يا تامر؟.. هل أنت شاعر؟
- مَنْ يسمع صوتكِ.. لا بد أن يكون كل كلامه شعراً
- كلامك فعلاً جميل جداً
- وظلَّ تامر لفترة صامتاً فقالت سونيا له:
- لماذا تسكت كثيراً؟

قال لها بصوتٍ فيه تأثر :

— كنتُ أفكر فيكِ يا سونيا

— ما الذي أعجبك فيَّ؟

— شعرتُ أنكِ متميزة.. وأنَّ وراءك أسراراً كثيرة

— أنا فعلاً كلِّي أسرار.. فاحذر مني

— أنا أعشق الأسرار

— هل هذا فقط ما جذبكِ لي؟

— طريقتكِ في اللبس أيضاً تعجبني جداً.. مختلفة عن كل مَنْ تقف

في الإشارة

— ألم أقل لكِ إنني غنية؟

— إذن ماذا تلبسين الآن أيتها الغنية؟

— يا لئيم.. لن أخبركِ

— أرجوكِ

— شورت أحمر.. وتشيرت حمالات أخضر يظهر نصف صدري..

ويصل فقط حتى الصُّرَّة

— الله!.. كنتُ أتمنى أن أراكِ في هذا اللبس

— لِمَ أيها المجرم؟

— لأعبر لكِ عن إعجابي بلبسك

- ألا تستطيع أن تعبر عنه بالتليفون؟
- طبعا أستطيع.. لكنني أشعر بالخجل
- وضحكت سونيا ضحكة خليعة قائلة:
- لا تخجل يا تمورة.. هيا تحدث.. تحدث كأنك تتحدث إلى نفسك
- ألن تغضبي؟
- كيف أطلب منك أن تتحدث ثم أغضب؟
- مهما قلت؟
- قل خلصني
- لو كنتُ معكِ وأنتِ أمامي بهذا اللبس.. كنتُ.....
- كنتَ ماذا؟
- كنتُ سأجلس بجانبكِ على السرير
- ثم ماذا؟
- أنظر في عينيكِ
- ثم ماذا؟
- أقترِب منكِ وأمسك يدكِ
- ثم ماذا؟
- أقرب شفتي من شفتيكِ

— ثم ماذا؟

— أتخسس بيدي شعرك وأسفل عنقك

— ثم ماذا؟

— أقبلك

— أين؟

— في شفتيك ورقبتك

— ثم ماذا؟

— أنزل بيدي على صدرك و.....

وهنا أغلقتُ سونيا الخط متعمدة أنْ تفعل ذلك عند هذا الحد من الكلام لتتركه على حالته تلك من النشوة ولهفة الرغبة.. اتصل تامر مرة ثانية فأجابته، فقال بصوتٍ يملؤه التأثير:

— سونيا لماذا قطعتِ الاتصال؟

قالت وهي تتصنع البكاء:

— تامر.. للأسف أنتَ فهمتني خطأ

— لماذا تقولين ذلك يا سونيا؟

— أنتَ تفهم.. فلا تسأل

— أرجوك لا تغضبي مني.. لا أستطيع تمالك نفسي أمام صوتكِ الجميل

— أعطني وعداً ألا تعود لكلامكِ هذا

- أعدكِ ألا أعود لهذا الكلام
- قل لي يا تامر.. هل تعمل في شراء الشقق وبيعها؟
- أجل
- وأنا أيضا أشتري شققا وأبيعها
- معقولة !!
- هل نسيتِ؟.. أخبرتكِ أنني غنية.. يمكننا أن نعمل سويا
- إذن تعالي إلى مكتبي لتتحدث عن العمل.. لن ينفع الكلام عن العمل في التليفون
- سأتي طبعاً.. لكن إياك أن أجِد نفسي وأنت وحدنا
- بصراحة.. أنا أحلم بهذه اللحظة
- أية لحظة؟
- أن نكون وحدنا
- ماذا ستفعل عندما نكون وحدنا؟
- عندما تأتين ستعرفين
- لا صبر عندي.. أخبرني الآن
- أنتِ تغضبين مني في النهاية يا سونيا
- لن أغضب.. هيا تحدث
- وأعطته سونيا الإذن لينطلق في كلامه المثير دون توقف، فتجراً وقال:

- لو جئت لمكتبي.. سأفتح لك الباب ثم أغلقه خلفك ثم أحملك إلى سرير بحجرة داخلية
- هل ستقدر على حملي؟
- طبعاً.. أنتِ رشيقة.. جسمك جميل
- ماذا يعجبك في جسمي؟
- كل شيء
- مثل ماذا؟
- يجب أولاً أن أجردك من ثيابك لأصفه جزءاً جزءاً
- هيا جردني من ثيابي
- ألن تغضبي
- كيف أغضب وأنا أريد ذلك؟
- بجدي يا سونيا
- بجدي يا تامر
- أحبك يا سونيا
- هل تقولها صدقاً أم أنه كلام ليل؟
- المهم أني أشعر بها الآن
- هل لي أن أطلب منك شيئاً يا تامر؟
- تفضلي.. اطلبي

- هل تسمح لي أن أحضنك؟
- طبعاً.. تعالي
- تعال يا تامر
- سونيا
- نعم
- أريد أن أنام معكِ
- وهنا أغلقت سونيا الخط، فعاد واتصل فردتُ باكية:
- لم أقصد أن نصل إلى تلك الدرجة يا تامر.. كنت أطلب مجرد
حضن.. حضن فقط
- سونيا.. أنا أحبك
- تامر.. لا تتعجل
- لا أستطيع أن أنتظر.. شوقي لك يقتلني.. أشعر بالنار في جسدي
- وأنا مثلك
- إذن هيا.. تعالي
- لا غدا
- هل سنتحدث غدا بكل حرية؟
- سنتحدث ونفعل كل شيء دون قيد
- سونيا.. بلا إغلاق للخط؟

- أصلاً لن نتحدث في التلفون
- لِمَ؟
- لأنني سأكون بين يديك يا تامر
- كيف؟
- في مكتبك
- معقولة!!.. كم أنا متشوق لذلك!
- أنا أكثر منك
- بجد.. لِمَ؟
- لأنه مهما كان الخيال جميلاً في هذا الأمر.. فإنَّ الواقع يكون أجمل

(٩)

نهاية تامر الغمراوي

الساعة الثانية ظهرا.. دق جرس شقة بحي السفارات.. فتح الباب تامر الغمراوي.. كان وحده بالمكتب.. نظر فوجد أمامه سونيا.. وقف للحظة يتأكد أنها هي.. كانت مختلفة تماما عما تكون عليه وهي تعمل.. كانت تلبس ثيابا جميلة كأنها سيدة أعمال تسكن بأرقى المناطق وليست مجرد متسولة أو بائعة مناديل.. كانت الثياب قد جسدت جسدها تجسيدا مثيرا، فبانت كل مفاتيحه.. وجهها المشبع بالحمرة يشع حيوية وأنوثة.. عيناها الزرقاوان ظهرتا أجمل بكثير، صدرها ظهر تحت ملابسها مستديرا ملهبا للأنظار.

وبالطبع فهي لم تذهب لعملها هذا اليوم، إنما ركبت تاكسيا من سكنها بمنشية ناصر حتى إشارة العمل.. سلمت الطفل ياسين لزميلتها نوال دون أن تنزل من التاكسي، وهمست بجانب أذنها تؤكد عليها بأن تنبه على كل من يعمل بالمكان ألا يخبر أحدا منهم أي أحد أنها متزوجة، فقد خافت من أن يذهب تامر الغمراوي ليعرف إن كانت متزوجة أم لا.. قالت ذلك ثم استكملت حتى حي السفارات.

دخلتُ وأغلقُ تامر خلفها الباب.. ابتسمتُ له وابتسم لها وقال:

— ما هذا الجمال؟.. أنا لا أصدق عيني أنكِ سونيا

— هل جئتُ لتتحدث عن جمالي أم عن العمل؟

— نتحدث عما تريدين أنتِ

نظرتُ في عينيه وقالت بدلال:

— أريدكُ

لم يتمالك نفسه، وحملها إلى إحدى الحجرات.. جلستُ بجانب
السريـر.. جلس بجوارها.. قال لها :

— ما أجملَ العمل معكِ يا سونيا!

قالت في جراءة وأنوثة:

— هذا فقط عربون العمل

ضحك تامر وقال بنبرة صوتٍ مرتعدة:

— أريد شيئاً قبل دفع العربون

— ما هو؟

— أن ترقصي لي

— أمرك.. سأريك الرقص على أصوله

— ما أجملكُ يا سونيا !

وخلعتُ معظم ملبسها، وحزمتُ وسطها، وتامر ينظر لها بنشوة، ثم
اتجه إلى كاسيت وأدار موسيقى راقصة، فقامت ترقص بطريقة غاية في
التميز والاحتراف والإثارة وهي تغني بصوتٍ جميل:

أنا سونيا.. سونيا المحروس

أنا أجمل.. مِنْ إيرما لادوس

أنا سونيا.. سونيا المحروس

أنا مَطْلَب.. أتعس متعوس

أنا أحلى.. مِنْ إيرما لادوس

أنا سونيا.. سونيا المحروس

ومرّت ساعاتٌ في الحرام.. أعادا الكرّة أكثر من مرّة.. كلُّ شيء حدث
بلا خجل، بلا حد، بلا تراجع، بلا لحظة تأنيب للضمير، بلا أن ينتبه تامر
إلى أنها ليست عذراء، ولم ينتهِ الاثنان مِنْ سُكْرهما إلا مع أذان المغرب
الذي أتى مِنْ مسجد مجاور.. دخل تامر الحمام سريعاً ثم عاد ليجد سونيا
جالسة بجانب السرير عارية تتصنع البكاء وتواري وجهها بكفيها كأنها
تشعر بالخجل.. سألها:

— لماذا تبكين؟

رفعتُ رأسها مِنْ بين كفيها وقالت:

— ألا تعرف؟.. ألا ترى هذه الدماء التي ملأتُ مفرش السرير؟

نظر تامر ثم قال:

— لا تخافي يا سونيا.. لن أتخلى عنكِ

— أنا مرعوبة من أن تتخلى عني

— اطمئني.. أنا لستُ نذلا

— لقد جعلتني امرأة.. سلبتني شرفي.. أرجوك.. لا تتركني يا تامر

— فابتسم تامر ابتسامة حذرة وقال:

— كيف أترككِ يا سونيا؟.. ثم هل نسيت أنه سيكون بيننا عمل كثير؟

فضحكت وقالت:

— المرة القادمة ستقابل خارج شقة المكتب هذه.. ونتحدث في

العمل فقط

— طبعا طبعا

— بعد ذلك ستحدث عن حل لهذه المصيبة.. اتفقنا

قال في تردد:

— اتفقنا

وبالفعل فقد تلت هذه المرة مرة ثانية.. جلسا خلالها في كافيتريا بشارع

عباس العقاد.. تحدثا فيها عن العمل، وقد أرادت في البداية أن تكسب

ثقتهم وتثبت له أنها تمتلك المال الكثير، فقالت له:

— هل لك خبرة بأنواع السيارات؟

— طبعا

— أريد شراء سيارة

وأنزل تامر كوب الشاي من يده، ونظر لها بابتسامة وقال:

— بسيطة.. لي صديق عنده معرض سيارات.. سنذهب له سويا..

ونطلب منه سيارة مستعملة بحالة جيدة.. واطمئني.. سيخدمني في

ثمنها كثيرا

ضحكت ووضعت قدما على أخرى وقالت:

— ومن أخبرك أنني أريدها مستعملة.. أريد شراء سيارة جديدة..

زيرو.. من السيارات الغالية.. لكن آخر الشهر.. من فوائد أموال

وودائع لي.

فبرقت عيناه ذهولا وقال:

— من فوائد أموالك!!.. تشتري سيارة من الفوائد؟

— أجل

— إذن أنا سأترك عملي بعد ذلك.. وأقف بجوارك في الإشارة

فضحكت سونيا وقالت:

— لن تفلح يا تامر.. عملنا يحتاج لمواهب معينة مع التدريب

— يمكنك أن تدربيني على كل شيء

— سأدربك.. فقد تضطر فعلا للتسول ذات يوم

— ربنا يستر

— هيا يا تامر نتحدث في العمل

— هيا.. فيم تريدين أن تستثمري أموالك؟

— في العقارات.. وهل هناك أضمن منها؟

— معك حق والله يا سونيا

وسكت لفترة يفكر، ثم قال لها:

— ما رأيك أن نشترى شقة بالمشاركة بالنصف ثم نبيعها.. وهكذا

— أنا موافقة.. هل يوجد شيء جاهز الآن؟

— طبعا يوجد.. سيكون جاهزا بعد أربعة أيام

وبالطبع كان لا يوجد شيء جاهز، إنما هذا دائما يكون من صميم عمل السماسرة، دائما عندهم عقارات جاهزة للبيع والشراء، فإن طلب الزبون التنفيذ فقد يجد وقد لا يجد بأية حجة أو ذريعة، وتامر الغمراوي هنا بالطبع لم يكن لديه شيء في هذه اللحظة لتشتريه سونيا مناصفة معه، ربما يظهر شيء خلال الأيام الأربعة التي ذكرها، وأيضا لم يكن لديه نية للنصب عليها، على الأقل الآن، فأوجدت هي ما تبحث عنه، وليس مجرد شقة، بل فيلا.

فبعد هذا اليوم بيومين دخلت امرأة شقراء الشعر مكتب تامر الغمراوي.. وقف لتحياتها ثم جلس.. أمر عامله أن يحضر لها مشروبا.. قالت له:

— أنا دكتورة جاسيكا.. عندي فيلا جئت أعرضها للبيع

سألها عن مكانها ومساحتها وأوراقها وأوصافها، وعدد الأدوار
والحجرات والحمامات ونوع التشطيب والثلث المطلوب فيها، وسجّل كل
ذلك عنده، ثم سألها إن كان هناك إمكانية لإنزال السعر قليلاً.. قالت له المرأة:

— الفيلا ثمنها أكثر من مليونين بكثير.. ولكن أنا مستعجلة جداً..
مهاجرة كندا لأستقر مع زوجي هناك.. لذلك فأنا مضطرة أن أبيع
بمليونين أو أقل قليلاً

وفهم تامر من كلامها أن السعر قابل للتزليل كثيراً.. سألها عن
تليفون لها ليتواصل معها من خلاله، فأملته عشرة أرقام، فنظر لها
باستغراب وقال:

— ما هذا الرقم الغريب؟

فابتسمت وقالت:

— هذا رقم تليفوني المحمول.. خط كليك

فأسرع يقول بشغف:

— نعم نعم.. سمعت عنه من صديق ولم أصدق.. هل فعلاً هذا

حقيقي؟.. هل فعلاً يوجد تليفون بلا سلك.. ويحمله الإنسان في

يده معه في الشارع؟

ووضعت المرأة يدها في حقبتها وأخرجت تليفونها المحمول قائلة:

— هذا هو

فنظر تامر له مذهولا وقال:

— سبحان الله.. وهل هذا غالي الثمن؟

— إلى حد ما

— هل يُباع في مصر؟

— نعم.. لكن من النادر جدا أن تراه مع أحد

— إن شاء الله أشتري واحدا

— طبعا طبعا

ووقفتُ المرأة وقالت له

— أستاذك وسأنتظر مكاملة منك

كانت المرأة الشقراء تتحدث بجدية جعلت تامر لا يفكر أبدا في المزاح أو الخروج خارج حدود العمل بكلمة أو ابتسامة، وفي المساء اتصل بسونيا، وتحدثا طويلا وقبل أن يُنهي المكالمة سألته:

— هل وجدت شيئا مناسبا لشتره

فأخبرها عن فيلا الدكتورة جاسيكا فسألته:

— كم ثمنها؟

— هي تطلب مليونين.. لكن من الممكن تنزيل السعر

— إذن علينا أن نضغط عليها.. ونزّلها للمليون ونصف مناصفة بيني وبينك

فاندesh تامر الغمراوي وسألها:

- سونيا.. وهل معكِ سبعمائة وخمسون ألفاً؟
- نعم معي.. وأنا أسألك لماذا لم تخبرني عنها منذ بداية مكالمتنا؟.. هل تريد أن تغدري وتشتريها لحسابك وحدك أيها الأناني الغدار؟
- لا والله.. بل لم أخبركِ لأنني لم أتوقع أن يكون في قدرتك أن تدفعي نصف ثمنها
- بل في قدرتي ذلك وأكثر.. المهم هل تقدر أنت؟
- بصرحة هذه صفقة كبيرة سنكسب منها الكثير.. وأنتِ شجعتني.. لذلك سأجمع كل أموالي ونشتريها مناصفة.. لكن أتمنى أن توافق المرأة على مليون ونصف
- المهم أن نذهب ونرى الفيلا أولاً.. فقد لا تستحق حتى المليون ونصف
- معكِ حق.. عليك أن تأتيني المكتب غدا.. ثم نذهب سوياً لمعاينة الفيلا
- قالت ضاحكة:
- كما تريد.. ولكن عندما آتيك هل سيكون عملاً أم.....؟
- ربما الاثنان معاً.. لكن لننجز موضوع الفيلا أولاً ثم.....
- وذهبت له إلى مكتبه.. جلست وطلب لها مشروباً ثم فتحت الصفحة التي سجل فيها بيانات الفيلا ليتصل بصاحبها، وإذا به ينتبه إلى أن رقمها شيئاً جديداً عليه ولا يعرف كيف يتصل بها، فأخبر سونيا بذلك فقالت له بكل هدوء:
- يمكنك أن تتصل من تليفونك الأرضي.. لكن يجب أن يكون فيه خاصية المباشر

— للأسف هو محلي فقط

فابتسمت له ثم وضعت يدها في حقيبتها وأخرجتها بتليفون محمول وقالت له:

— قل لي الرقم

فبرقت عينا تامر وضرب جبهته مندهشا وقال:

— ما هذا؟.. أنت أيضا؟.. أنا خائف أن أكون أنا الوحيد في مصر الذي لم أحمله.. أخبريني بسرعة.. من أين اشتريت هذا الشيء؟

فعادت سونيا وابتسمت قائلة:

— لا تقلق.. لن تكون الوحيد الذي لم يحمل هذا الشيء

وأخرجت من حقيبتها تليفونا محمولا آخر، وناولته له قائلة:

— خذ.. هيا انضم للأغنياء.. هدية مني لك.. وبالخط أيضا

وهنا وقف تامر الغمراوي والتقطه منها والفرحة تملكه، ولسانه لا يتوقف عن شكرها، وعلامات الدهول والدهشة تقود كل تصرفاته وكلماته.

اتصل بالدكتورة جاسيكا، وذهبا وعائنا الفيلا.. أعجبتها جدا، ووافقت الدكتورة على مليون ونصف بعد تفاوض طويل، لكن كان هناك أشخاص آخرون يعاينون الفيلا في نفس الوقت، فقلق تامر كثيرا.. خاف أن يسارع الآخرون ويشتروها قبلها، فترك عربونا كبيرا، فأخذته الدكتورة جاسيكا، لكنها اشترطت عليه أن يدفع البقية ويتم البيع صباح الخميس كآخر مهلة، وإلا ستبيع لغيرهما، فوافق على كل كلامها دون اعتراض منه على شيء.

وكان اليوم صباح الأربعاء.. انشغل تامر خلال اليوم كله بتجهيز سبعمائة وخمسين ألفاً نصف ثمن الفيلا، وكان قد اطمأن من سونيا إلى أنَّ مبلغها جاهز، وصار من الحتمي أنَّ يتم دفع ثمن الفيلا وكتابة العقد والتوكيل صباح الخميس كما اشترطت جاسيكا.

واتصلت سونيا بشريكها تامر منتصف اليوم تخبره بأنها قلقة وتطلب منه أن يذهب أولاً قبل أن يدفع بقية المبلغ صباحاً فيطمئن على أوراق الفيلا بنفسه من صاحبها ومن حي مدينة نصر، وبالطبع لم يكن أمام تامر وقتٌ لذلك، وكان قد دفع مبلغاً كبيراً كعربون، وخاف إن طلب التأجيل ألا توافق صاحبة الفيلا، وقد تلجأ كما قالت لبيع الفيلا لآخرين.

وأراد تامر أن يُشعر شريكته سونيا بالاطمئنان، فأخبرها كاذباً أنه ذهب بالفعل واطمأن على كل شيء، وعليها ألا تقلق، ولتثق به وتعتبره المسئول عن أي شيء، فأكدت عليه بنبرة جادة وكرّرت كلامها في ذلك، وأخبرته أنها لا تعرف غيره، ولن تتركه إن ضاع منها تحوِشة العمر.

وفي صباح الخميس ذهب كل منهما بسبعمائة ألف جنيه إلى الفيلا، ودفع المبلغ للدكتورة جاسيكا مع كتابة عقد ابتدائي، ثم همست سونيا لتامر أنها ستركب مع جاسيكا في سيارتها حتى الشهر العقاري تجنباً لاحتمال أية محاولة نصب من الدكتورة، فضحك تامر هازئاً من كلامها وقال:

— هذه دكتورة يا سونيا.. هل سمعتِ عن دكتورة تنصب؟.. النصب يا حبيبتى يخرج من أمثالي وأمثالك فقط

فقلت بلهجة تبدو غاضبة:

— قصدك أمثالك أنت يا تامر

— هل غضبت؟

— نعم غضبتُ

قال باسمًا في صوتٍ هامسٍ حتى لا تسمع جاسيكا:

— لا تغضبي.. سأصالحك الليلة في شقة المكتب.. قد اشتقتُ

إليك كثيرا

وركبتُ سونيا مع تامر في طريقهما للشهر العقاري.. لم يتوقف تامر خلال الطريق عن أن يفتخر بنفسه لأنه أنجز صفقة العمر، وعليها أن تشكره كثيرا وتحفظ له أن جعلها تربح ما لا كثيرا في صفقة واحدة.. ألقْتُ عليه سونيا نظرةً غربيةً بطرف عينيها، وأخذت نفساً عميقاً ثم قالت:

— ما رأيك ألا نبيع الفيلا يا تامر؟.. نتركها ونكتبها باسمي واسمك..

ونعيش فيها معا

ونظر لها تامر باستغرابٍ، وقال كأنه يمزح:

— وماذا نفعل معا؟

— نعيش بها سويا بعد أن نتزوج

— إن شاء الله يا سونيا.. إن شاء الله

قالها سريعا كأنه يتهرب من الحديث في هذا الأمر، فراحت تقول له:

— أنتَ وعدتني ألا تتخلى عني يا تامر.. أم نسيتَ أنكَ أفقدتني عذريتي؟

— قلتُ لن أتخلى عنكِ يا سونيا

— إذن هل وافقتَ على أن نتزوج في الفيلا؟

— طبعاً طبعاً.. وستحدث أكثر في موضوع الزواج هذا بعد تسجيل الفيلا

وعاد فسكت، فراحت تقول له:

— لماذا سكّتَ يا تامر؟

— لا شيء

فاستدارتُ قليلاً في مقعدها ليكون وجهها له وقالت:

— تامر عندي خبر لك.. لا أعرف إن كان سيفرح أم يحزنك

— ما هو

سكتتُ قليلاً ثم قالت:

— أنا حامل

وهنا ضغط تامر على الفرامل فجأة وأخذ جانباً وتوقف قائلاً:

— ماذا قلتَ؟

— أنا حامل منك

— كيف عرفت؟

— عندما انقطعت الدورة ذهبتُ فوراً للطبيب.. فأخبرني أنني حامل..

وأعطاني تقريراً بذلك.. بالحالة وتوقيت الحمل وتاريخ اليوم

وظل تامر صامتا في ذهول فقالت له:

— أظن أن هذا سيجعلنا نتزوج سريعا

— طبعاً طبعاً

— أظنكَ عرفتَ سببَ طلبِي الاحتفاظ بالفيلا لنا

قال تامر في نبرة هادئة:

— إن شاء الله بعد تخليص الأوراق سنتحدث

— تامر.. أنا قلقة منك

— لا تقلقي يا حبيبتِي

وأدار تامر سيارته، وسونيا تراقب بطرف عينيها ما طرأ على وجهه من تعبيرات التوتر الشديد، ولم يصدر بينهما أي كلام حتى وصلا للشهر العقاري.. ركن تامر سيارته جانباً، ودخل وبجواره سونيا.. لم يجدا الدكتورة جاسيكا بالداخل.. اتصل بهاتفها المحمول فوجده مغلقاً.. بحث عنها في كل مكان داخل حجرات الشهر العقاري فلم يجدها.. إنها لم تصل بعد.. ولن تصل أبداً. وكانت سونيا لا تزال تراقب تحركاته وحالته القلقة وهي في قمة متعتها وسعادتها.. تمتنّ لو تطول تلك اللحظات كثيراً وهي تشاهده هكذا متوتراً زائغ البصر والبصيرة.. بالطبع إنها لن تمل أبداً من مشاهدة هذه النهاية الحزينة لقصة تامر الغمراوي معها.. وتمنّت أيضاً لو كانت معها ريم ابنة خالتها لتستمع هي أيضاً بمشاهدة هذا الشاب النصاب

المسكين الذي احتال عليها في عشرين ألفاً، فسلبته سبعمائة وخمسين... هي كل ما يملك في الحياة.

أجلُّ أجلُّ.. فلتأتِ الآن ريماً وترى وجهه وهو يتحسر ويهذي إلى درجة الاقتراب من الجنون، حيث يبدو أنه خسر كل شيء، هذا غير الخزي والعار الذي قاده سونيا إليه لكي يعيش معه بسبب حجب التهرب التي سيلجأ إليها تهرباً منها، ثم الهرب بعيداً بعيداً عنها، والله إنها ليست أقل من شيطانة تخدم في كل أفعالها إبليس، بل لقد تفوقت على معلمها.. حقاً لقد غلبت سونيا بذلك الشيطان نفسه.

اتصلت الشيطانة بتامر مساء يومه المنحوس، تسأله وهي تبكي عن أية أخبار عن جاسيكا.. أخبرها في صوتٍ مخنوقٍ أنه أسرع إلى الفيلا بعد أن تركها بالشهر العقاري، فأخبره الحارس أن الدكتورة جاسيكا صاحبة الفيلا الحقيقية بكندا ولم تأتِ لمصر منذ عام، فسأله عن المرأة الشقراء التي باعت لهما الفيلا، فأجابه الحارس بأنها مجرد مستأجرة استأجرت الفيلا لأسبوعين، لكنها لم تكملها بسبب ضرورة سفرها المفاجيء.. سأله عن اسمها، فأخبره أن اسمها كما أخبرته هو جاسيكا أيضاً.. سأله عن كتبها عقد إيجار الفيلا فأخبره أنه من أجّر الفيلا لها دون عقد بعلم صاحبيتها جاسيكا الحقيقية، وهذا أمرٌ يتبعه في غيابها طالما كانت مدة الإيجار قصيرة.. ذهب وأبلغ الشرطة وأعطاهم أوصاف جاسيكا الشقراء، وصورة من بطاقتها الشخصية، فأخبروه أن صورة البطاقة مزورة.

رَنَ صَوْتُ صراخ سونيا في التليفون وهي تخبر تامر بأنه المسئول الوحيد عن إرجاع أموالها لها، فهي لا تعرف غيره، وذكرته بأنها طلبت منه وأكدت عليه أن يسأل ويطمئن على كل شيء خاص بالفيلا قبل الدفع.. أخبرها في حُرقة أنه سيعيد لها أموالها، فعادت تصرخ فيه لتسأله هذه المرة عما سيفعله معها بعد أن أفقدها عذريتها، وجعلها حاملا.. أجابها في عَجَلَة بأنه سيجد حلا لكل شيء.

وكان الحلُّ الوحيد الذي لم تترك له الشيطانة سونيا سواه بعد أن خسر كل شيء هو أن يسعى سريعا لبيع سيارته، ثم يجهز جواز سفره، ثم يسترد ما دفعه كمقدم حين إيجار مكتبه للعقارات، هذا دون أن يغلق هاتفه أبدا في وجه سونيا حتى لا تشك في شيء، ثم فجأة في غفلة منها كما يظن مخدوعا، عليه أن يتجه إلى مطار القاهرة حيث الطائرة التي ستطير به وبجرائمه الثلاثة في حق المسكينة.

كانت الجريمة الأولى أنه أفقدها عذريتها، والحقيقة أنها هي مَنْ أفقدته عذريته، فلم يكن صعبا لها حين غفلةٍ من تامر الثائر المنتشي أن تضع سائلا أحمر كالدم على مفرش سرير الحرام، والجريمة الثانية أنه جعلها حاملا منه، والحقيقة أنها أرادت فعلا ذلك الحمل منه أو من غيره طالما ظلَّ زوجها سالم عاجزا عن ذلك، أو حتى ولو صار قادرا، لا يهم، والجريمة الثالثة أنه جعلها تخسر سبعمائة وخمسين ألفا من الجنيهات، والحقيقة أنه هو الذي خسر كل ذلك.

فليركب الآن طائرة الهروب مع الحسرة والندم على اليوم الذي وقف فيه بإشارة تقاطع شارعى مصطفى النحاس والطيران بجانب المتسولة سونيا ليعطيها رقم تليفونه.. ولينزل المنحوس من طائرته بأي بلد غير بلده الحبيبة، بلد لا يسمع فيها صوت سونيا أو يراها.. هناك يعيش بقية عمره إن استطاع أن يكمل حياته هكذا بحسرة هاربا متهربا من خادمة إبليس، والحقيقة أنها هي من كان عليها أن تهرب منه إن كان بنصف ذكائها ومكرها.. فودعا تامر الغمراوي.

(١٠)

بين ياسين وبدر

بعد بضعة سنوات.. قريبا من موقف الأتوبيسات بالعباسية مساء أحد الأيام في مطعم الشرقاوى ملك الكبدة الأصلي، كانت المرأة التي كانت شقراء الشعر باسم الدكتورة جاسيكا تجلس في زاوية من المكان.. راحت تضع قطعة من شرائح الكبدة المقلية داخل قطعة خبز، ثم تغمس طرفها داخل الملح أو الطحينة أو سلطة الكبدة، ثم تلقيها في فمها في نهم وشغف، وتعود فتذهب يدها لكرة مخ مقلية بحجم بيضة اليمامة تقريبا، وتفعل بها نفس الشيء، وكانت ترفع إلى فمها خلف كل لقمتين أو ثلاث كوبا صغيرا من الإستانلس، عندما بدأت الأكل وُضع أمامها هذا الكوب ممتلئا عن آخره بهاء السلطة الخضراء المشطشط.. تشرب منه تباعا، وكلما فرغ أشارت للشاب العامل أن يملأه من جديد، فيسارع إليها بذلك طامعا في البقشيش حين دفع الحساب.

وكانت المسماة بجاسيكا تجلس بغير ذلك السمات الأشقر.. كان شعرها الأصفر مجرد باروكة، فلما نزعتها عن رأسها عادت إلى أصلها،

عادت إلى نور، الزوجة الثانية لسالم.. لم تكن وحدها تأكل الكبدية والمخ وتشرب ماء السلطة المشطشط.. فهناك في مواجهتها امرأة ليست أقل جوعاً منها، تضع على مقعدٍ بجانبها طفلة جميلة صفراء الشعر زرقاء العينين اسمها هايدي.. كانت تلك المرأة هي الشيطانة سونيا المحروس، وكانت هايدي هي طفلتها من تامر، وهي الخديعة الثانية التي صار يعيش معها زوجها سالم السعدي، تماماً كزهرة ابنة نور من رجل غيره.

وكان صوت قهقهات سونيا ونور يملأ المطعم، ويجذب أنظار المحيطين.. تركت نور طفلتها زهرة، وتركت سونيا الطفل ياسين مع المتسولات بإشارة العمل أمام مطعم البرج.. جاءتا من مدينة نصر إلى العباسية لتأكلًا.. تذكرت نور ما فعلتاه بتامر الغمراوي، فقالت ضاحكة:

— أين أراضيك الآن يا تامر؟

وانخرطت سونيا في ضحكٍ متواصل جعل الجميع يتركون أكلهم ويلتفتون إليهما فصاحت فيهم:

— لماذا تنظرون لنا؟.. ألم تشاهدوا امرأتين من قبل تضحكان؟

لم يرد عليها أحد، وأداروا عيونهم عنهما إلى حالهم، وعادت المرأتان إلى حالهما من الضحك والقهقهات حتى أنهيتا أكلهما وشربهما، فقامتا واتجهتا ناحية سيارة مرسيدس عيون.. قادتها سونيا حتى مدينة نصر.. توقفت بعيداً عن إشارة العمل حتى لا تُلفت انتباه أحد من زميلاتهما أو الزبائن إلى سيارتها الفارهة.. ذهبت نور لإحضار زهرة وياسين.. أخذت

سونيا ياسين وعادت به قاصدة سكنها بمنشية ناصر.. وبالطبع ركنْتُ السيارة في جراج بجانب شارع الأوتوستراد الرئيسي ثم صعدتُ منه على قدميها طريقاً مزدحماً بالناس والباعة الذين سدوا الشارع سداً بما يبيعون من ناحية محطة المزلقان، وخرجتُ من الشارع المزدهم وهي تعاني وتسب جهراً وسراً كلَّ مَنْ حولها لتسلك تلك الشوارع الضيقة الفقيرة العشوائية حتى وصلتُ إلى زقاق أكثر فقراً وضيقاً بشارع الرزاز.. دخلتُ من مدخل ضيقٍ لبيتٍ قديمٍ متهاكٍ تنبعثُ منه رائحة صرف بغیضة تصدر من مواسير المجارى الصّدئة المثقوبة، هذا مع رائحة أخرى عَفنة انبعثتُ من أكوام القمامة المبعثرة بمدخل البيت وأمام باب كل شقة تمر عليها.

وصعدتُ سونيا منذ دلفتُ من المدخل الضيق سلماً مظلماً ضيقاً أيضاً، لا يتسع إلا لجسدي واحدٍ صعوداً أو هبوطاً، وخلفها كان يتابعها الطفلان ياسين وهايدي، وكانت معظم درجات السلم قد تكسرتُ، فصارت خطراً على كل من يصعد دون أن يحذر لمواقع قدمه، ولذا فقد تعودتُ منذ حملتُ التليفون المحمول أن تنير شاشته لترى أمامها، ثم غيرته بتليفون آخر له مصباحٌ لتبصر من خلاله حين صعود هذا السلم المظلم ليلاً ونهاراً، وكانت قبل ذلك تتبع بعينيها النور المنبعث من أبواب الشقق المفتوحة، فالناس في مثل هذه البيوت العشوائية الفقيرة لا تغلق أبواب شققها في الغالب، تتركها مفتوحة إلى نصفها أو آخرها ليأتيهم منها أية نسمة هواء هاربة لهم من أية فتحة عشوائية أو شعاع ضوء أو

شمس يتسلل لأجسادهم من ثقب عشوائي أيضا، فالنوافذ بداخل كل شقة نادرة إن لم تنعدم في بعضها، ولذلك فأمرض الجسد هناك كثيرة، وأمراض النفوس أكثر، وماذا ينتج عن العشوائية غير ذلك؟

وبداخل شقتها جلست سونيا على كنية بالصالة الضيقة أول ما دلفت من الباب، وانسحب ياسين وهايدى داخلين إلى حجرتهما الصغيرة التي لا تحوي غير سرير واحد صغير لهما سويا ودولاب موازٍ له، في حين راحت سونيا تنظر إلى الصورة الوحيدة المعلقة على الحائط الملطخ بدهان الجير أمامها.

نظرت للصورة باشمئزاز واحتقار، ودائما لا تلقى منها هذه الصورة كلما رأتها إلا تلك النظرات الساخرة مع هزات رأسها الهازئة.. كانت الصورة لزوجها سالم وحده جالسا على مقعد.. يضع قدما على قدم، وخده على قبضة يده في تلك الحركة الشاردة الباهتة المسوخة، وعلى جانبيه هذه الورود البلاستيك مع حمامتين يمينًا ويسارًا.. مؤكداً أنه التقط هذه الصورة قبل الزواج، والتقطها له مصور غير محترف في أستوديو رخيص.. ولعل سالم كان يظن نفسه فارس أحلام الفتيات، لكنه الآن لا يساوي شيئا عند حمامتين بشريتين خائنتين له في كل ليلة لا يبيت عندهما فيها، هما زوجتان لا يريدان منه غير اسم يستندان إليه في سلوكهما القذر. وبالحظة التّعس ومصيره الغامض!، هذا لأنه قد صار فعلا أكبر عَقبة أمام سونيا في حياتها الجديدة مع المرسيدس وشقة السادس والأموال

الجارية في البنوك من غنيمة معتصم ثم تامر، إنها بسبب زواجها منه لا تستطيع أن تترك هذه الشقة والمنطقة القذرة لتسكن في المكان الذي تهواه. صارت سونيا تشعر بنقمة كبرى على زوجها سالم كلما فكرت في أنه من يحتم معيشتها في هذه المنطقة العشوائية.. همّت أكثر من مرة أن تطلب منه الطلاق بلا تراجع، لكنها كانت تتراجع، فليس هناك من سبب واضح يجعلها تطلب ذلك.. إنها ما زالت رغم نفسها الطموحة الشريرة ومكرها الشديد لا تريد أن تثير أحدا من أهله أو أهلها ضدها، وليس لديها الوقت والبال لأن تنقل قدميها ما بين المحاكم والمحامين وعملها إن عاند سالم.

فماذا تفعل سونيا لتنتقل إلى شقة أخرى مناسبة لها بطريقة لا تُغضب سالم وفي نفس الوقت لا تنقله معها؟.. إنها لم تخبره بأمر سيارتها المرسيدس أو حتى تخبر أحدا من أهلها غير أمها، فهل تُقدم على ذلك وتتقبل فكرة أن تنقله معها إلى حياتها الجديدة التي تأخر انتقالها إليها، أم تصبر حتى تجد حلا عاجلا أو آجلا لتسكبه سكباً نهائياً من حياتها للأبد دون إجراءات الخصام والصلح والطلاق؟

في النهاية قررت أن تُكمل سكنها لفترة في منشية ناصر مع سالم الذي يأتيها في يومين كريهين لها، لكنها ألحقت ياسين بمدرسة لغات خارجها، فلعله ينفعها في شيء إن علمته علم المدارس الغالية.. والعجيب أنه صار يذهب لمدرسة اللغات صباحاً ثم يصطحبها للعمل متسولاً في المساء.

ومع الأيام صارت تسأم من الوقوف بنفسها في الإشارة لبيع المناديل والتسول كالتسولات العاديات، أو ربما قد صارت تستكثر على امرأة في مثل ثرائها وجمالها وأنوثتها أن تقف هكذا كالأخريات.. كانت تركن سيارتها المرسيدس بعيدا كالمعتاد ثم تذهب لتُشرف على العمل في الغالب، وتُصلح أي شجار يقع بين التسولات والمتسولين، ثم تأخذ نصيبها تاركة الطفلين ياسين وهايدي يتسولان وحدهما أو بالتبعية لأية متسولة بالأجر، وأحيانا كانت تشتاق للتسول فتعود إليه قليلا ثم تسأم كثيرا.

لكن ما الذي يجعلها تُبقى جذورا لها في هذا العمل طالما سئمت منه؟..
إنها تمتلك مالا كثيرا من خداعها للمهندس معتصم شرف الدين، ثم من صفقة الاحتيال والنصب على المسكين تامر.. فوائد أموالها كفيلة لجعلها تعيش حياة ثرية بلا عمل، فلماذا التسول تحت أي مسمى؟.

الجواب يعود إلى طبيعة حياة العجر، أم هل نسينا أنها عجربة الأصل؟.. تلك ثقافتهم، العمل ثم العمل، خاصة للمرأة، ومهما اكتنزوا فلا يزال بالجيب متسعا للأكثر، ولأنهم يحترفون عمل التسول، فهم ينجحون فيه أكثر من غيره وأكثر من غيرهم، فلماذا يخاطرون بتركه وإن صاروا من الأثرياء؟.. لماذا يتركون الساحة والميدان الذي يمتلكونه أينما حلُّوا للهواة الذين لا يعرفون كيف يُخرجون النقود من أغلب الجيوب لجيوبهم بكل رضا وهدوء.

ولأنَّ قوانين الترقى والعلو في الدرجات لم تترك عملاً إلا وقيدته، فكان لا بد لها من الترقى كثيراً في عمل التسول، ولترك خلفها من يحمل العبء عنها فيه، فنوال نائبة عنها، وابنة خالتها ريباً قد عادت إلى عاداتها القديمة، عادت إلى التسول بعد أن أرجعت لها سونيا العشرين ألفاً التي سرقها منها تامر بالاحتيال، والطفل ياسين المسكين الذي بدلته مع طفلها ابن بطنها بإمكانه أن يرث عنها العمل الذي سُمِّت منه.

فهذا هو ياسين يتنقل بين السيارات المتوقفة في الإشارة يحمل علماً صغيرة من المناديل وهو يمد يده من نوافذها لأصحابها في إلحاحٍ بغض إن كانت مفتوحة، ويطرقها إن كانت مغلقة، يردد:

(ساعدني يا بيه.. ساعدني يا هانم.. أنا طفل يتيم يا أبله.. ساعدني يا مدام.. أنا يتيم وأمي مريضة.. نصف جنيه يا بيه)

وكان أصحاب السيارات بالطبع يرمقونه بنظراتٍ من الشفقة والعطف لأنه طفلٌ صغير مع نظراتٍ من السُّخْط على محترفي التسول من الكبار حوله، لكن منذ متى كان المتسولون كباراً أو صغاراً يبالون بشيءٍ من هذه النظرات إن لم يصاحبها مدُّ الأيدي بالمال لهم؟.. إنهم لم يستحووا من الله عندما احترفوا سؤال الناس، فهل يستحون من بشر أو يبالون بنظرة لوم أو استهجان؟.. لا أظن أن هناك متسولين يشعرون بالخجل من الناس؟.. إنهم في قرارة ذاتهم قانعون ومقتنعون أنهم يمارسون مهنة شريفة.

وفي كل الأديان السماوية حث للناس على الصدقات ومساعدة المحتاج، لكن لأنَّ العقل البشري فطنٌ ماطر، فقد اتخذت تلك الحفنة الكسولة من البشر مواعظ الحث على الخير دافعا للخروج ومدد اليد طلبا للمساعدة من الناس.. يعرف هؤلاء الكسالى الأذكىاء أنَّ الناس تحبُّ تقديم الخير، فخرجوا وملأوا الشوارع لأخذ هذا الخير بالحيلة، وجعلوا أنَّ هناك بجانب الحث على الصدقة خُلقا جميلا هو التعفف.. وبالطبع فإنَّ لكل إنسان الحق والحرية في أن يُعطي المتسول أو يمنعه.. إن أعطيت محتاجا منهم أخذت ثوبا، وإن أعطيت غير محتاج أخذت ثوبا أيضا، ويحمل من يتظاهر بالحاجة منهم وزر الكذب.

ومن المثير للدهشة والألم معا أن يمر الشخص بمتسول فيسمع منه أجمل كلمات الأدعية له بأن يحفظه الله ويحفظ الأولاد والزوجة، وأن يوسع من رزقه ويمد كثيرا في عمره، ويصاحب ذلك مدد اليد وطلب المال فإن أعطاه الشخص تركه لغيره، وإن تجاهله ولم يُعطه تنقلب الأدعية التي كانت له أدعيةً أخرى عليه، يحدث هذا في السر أو العلن بصوت منخفض، والأكثر ألما أنه يحدث أيضا من أطفال.

ولذلك فقد كان كل ما يتعلمه الطفل ياسين في المدرسة صباحا على أيدي المعلمين يهدمه في المساء الطفل ياسين المتسول على أيدي الشارع، ذاك المعلم الأكبر الذي صبغه بكل ما هو شر ومكر، فصار غرسا سيئا، ولم لا؟.. فقد شرب حتى آخره من بئر سونيا، وطعم مع طعامها الحرام،

وارتوى نبتة اليافع من كل خصالها؟.. لقد صار نسخة كربونية منها، لا يميزهما عن بعضهما غير أنها الشيطانة الكبيرة، وهو تلميذها الصغير.

دخل عليها ذات يوم عائدا من المدرسة بحذاء غير حذائه.. قالت له:

— هذا الحذاء ليس حذاءك.. من أين أتيت به؟

قال لها وهو يتسم:

— أعجبني.. فخلعتُ حذائي وبدلته مع صاحبه

— وهل رضي صاحبه؟

— طبعا لم يرض.. فضربته وأخذته رغما عنه

— لكن حذاءك أفضل.. أعد له حذاءه غدا واسترد حذاءك

— سيظن أنني خفتُ منه

— قل له.. إن ياسين لا يخاف من أحد

— طبعا أنا لا أخاف من أحد

وفي يوم آخر عاد لها، فأخرج من حقيبته مقلمة ليست له.. رأتها فسألته:

— من أين أتيت بها؟

قال في زهو:

— سرقتها

فضحكتُ قائلة:

- أيها اللص الصغير.. سنتفمني كثيرا عندما تكبر
- هل تُعجبك المقلمة يا ماما؟
- نعم.. لكن أعددها لصاحبها غدا.. لا تسرق شيئا بلا قيمة
- فعاد لها في اليوم التالي ويده فردة حلق ذهب، فتناولته منه وعرفت أنه ذهب فقالت له بفخر:
- ياسين يا حبيبي.. هكذا أحبك أكثر
- إذن كل يوم سأتيك بذهب
- فأسرعت تقول:
- لا لا.. ليس كل يوم حتى لا يشك أحد فيك
- معك حق يا ماما
- أخبرني كيف أتيت بهذا الحلق؟
- فابتسم الولد وراح يأكل كعكة محشوة بالعجوة ويقول:
- رأيته أسفل مقعد البنات.. فأخذته دون أن أخبر أحدا
- فضحكت سونيا قائلة:
- وأنا من ظننت أنك قد صرت لصا كبيرا
- فقال لها ياسين:
- هل هذا الحلق يساوي ثمن دراجة؟
- لا أعرف.. لكن هل تريد دراجة؟

— نعم يا ماما.. أرجوكِ

— طيب طيب.. سأشتري لك دراجة.. طالما قد صرتَ تكسب المال الكثير وأقبل الولد عليها يقبلها ففتحتُ ذراعها له وقبلته، وكانت المرة الأولى التي يحدث بينهما ذلك حتى أنها استغربت هذا منه ومن نفسها.. قالت:

— يبدو أنني سأحبك يا ياسين

فأسرع لها الطفل يقول مستغربا:

— ألا تحبينني يا ماما؟!

فابتسمت وقالت:

— أقصد أنني سأحبك أكثر

وبالطبع فهي لم تنسَ يوما أنه ليس ابنها، إنه ابن مهندسة الديكور أحلام المصري، أما ابنها فهو هناك في أفخم قصر بالزمالك، تربيته لها بنت الذوات تربية أولاد الذوات، لكن عشرة الأيام والسنين قد تجلب الحب حتى بين الشياطين.

وإنَّ الرجل والمرأة قد يتزوجان زواج الصالونات، ثم تطول بينهما السنوات التي تلد الحب لهما كأنه جنينٌ نقي، إنَّنا بين يدينِ حانيتين شَبَّ أفضل بكثيرٍ من قصص الحب التي تدبّل بعد الزواج، وسونيا وإنَّ كانت بقلبٍ ميتٍ في الغالب فإنه في النهاية موجود، حيث لا إنسان بلا قلب، لذلك فمن الوارد أن تحب ياسين بسبب طول العشرة بينهما وإن كان حبا منقوصا،

أما ياسين فهو طفلٌ صغيرٌ، وسونيا له هي الأم التي أنجبته.. لم يشك في ذلك يوما، ومن الطبيعي أن يحب الطفل أمه حتى ولو كانت قاسية.

لكن ما قد يجعل القلب ينزف حزنا يوم أن وقف الطفل ياسين وسط الشارع يواصل عمل التسول في ساعة ممطرة.. كانت مساحات السيارات تتسارع وهي تنفض الماء عن الزجاج ليبدو لراكبيها المختبئين من المطر طفلٌ صغيرٌ يُمسك بعلبة منديل مبتلة تمتد بها يده ناحية النوافذ المغلقة، في الوقت الذي راح فيه بعض الأطفال يطلبون من ذويهم فتح النوافذ لتمتد أيديهم منها عبثا ومرحاً ليجمعوا قطرات المطر فوق أكفهم في سعادة طفولية تُبهجهم وتُبهج قلوب الأهل.

ليس هذا فقط هو المحزن، بل كان المنظر الذي يجعل حتى أشد النفوس قسوة تبكي، هو أن من بين هؤلاء الأطفال العابثين مرحا بالمطر كان الطفل بدر معتصم شرف الدين.. كان يركب في المقعد الخلفي خلف أبيه المهندس والمرأة الطيبة الحانية التي يظنها أمه وتظنه ابنها.. نقل بدر نظراته من المطر إلى الطفل المتسول ياسين صائحا:

— بابي.. مامي.. انظرا إلى هذا الولد.. كيف يقف تحت المطر هكذا؟

انتبه الأب أولا، فنظر إلى ياسين وابتسم وقال لبدر:

— بدر.. قل الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا

فراح بدر يردد خلف والده، بينما كانت الأم منشغلة بالتحدث في تليفونها المحمول، فلما انتبهت لصوت بدر وهو يشير تجاه ياسين التفتت

إلى ياسين، فإذا بها بطريقة لا إرادية تُلقِي التليفون من يدها ولما تنته
مكالمتها بعد، وقد ظلت بعدها لسنوات لا تنسى هذا الموقف، وتفكر
كثيرا لتجد تفسيراً لما فعلته، وكانت قد صرخت أيضا في زوجها أن يقف
جانبا وينتظرها، ونزلت من السيارة بسرعة إلى الطفل ياسين.. أخذت
بيده بكل رفق وحنان، واتجهت به تحت سقف كابينة مرور، وظلت تمسح
بيديها ماء المطر عن شعره ووجهه.. سألته:

— ما اسمك؟

أجابها مبتسما بصوتٍ رقيق:

— ياسين

قالت وهي تنظر إلى وجهه وتبتسم:

— لا نقف تحت المطر يا حبيبي

فنظر لها الطفل ياسين نظرة ارتياح، وظل لفترة لا يتكلم ثم قال
بصوتٍ يرتجف:

— أنا أحب الوقوف تحت المطر

قالت له وهي تبتسم:

— حبيبي.. هل تريد أن تمرض؟

— لا

— إذن اسمع كلامي.. أنا خائفة عليك

وظلَّ ياسين ينظر لها منتظراً أن تعطيه مالا، وبالفعل قالت له:

— انتظرني يا حبيبي.. سأعود

عادت بسرعة إلى السيارة.. تناولت نقوداً كثيرة من حقيبتها، ثم
مدّت يدها لجاكت بدر في المقعد الخلفي.. أخذته على يدها.. وصلت
إلى ياسين الذي ظل يتابع كل خطواتها بشعورٍ غريبٍ.. ألبسته الجاكت
بيدها ووضعت داخله النقود قائلة:

— الجاكت والنقود لك.. عد لبيتك الآن

— شكراً يا هانم

— لا تعمل تحت المطر مرة ثانية

— حاضر

— هل تريد شيئاً آخر؟

— لا.. وأشكرك يا مدام.. ربنا يحفظ لك أولادك

— أشكرُك يا حبيبي.. ربنا يحفظك

وتركته خلفها في حين ظلت عيناه متعلقة بها حتى ركبت سيارتها،
فرفعت يدها تلوح له، ورفع يده يلوح لها، ثم التفت المهندس معتصم إلى
ابنه بدر وقال له:

— هذا الولد يشبهك كثيراً يا بدر

وعقبت المهندسة أحلام قائلة:

— فعلا والله

فأسرع بدر غاضبا يقول:

— كيف؟ .. إنه متسول

قالت الأم بلهجة غاضبة:

— إنه فقير يا بدر.. ويجب أن نساعد الفقراء.. اشكر الله أن جعلك غنيا

قال بدر بنفس غضبه:

— لكن الجاكت يا مامي

— بدر.. سأشتري لك غيره

ودخل ياسين على سونيا مرتديا جاكيت بدر، ولم يكن يحكي لها قبل ذلك عما يحدث له أثناء عمله في التسول من مواقف وأحداث على كثرتها كل يوم، لكنها ما إن رآته حتى سارعت تسأله:

— من أين هذا الجاكت الجميل؟.. ولماذا عدت مبكرا؟

فقال لها مسرورا:

— امرأة أعطتني الجاكت.. طيبة جدا.. وأعطتني معه مائة جنيه

— صحيح؟!.. أين المائة جنيه

فأخرج من جيبه كل غلة اليوم ومن بينها ورقتان كل منهما بخمسين جنيها.. أخذت سونيا النقود، وراحت تعدها، ثم سألتها سؤال كل يوم:

— هل نسيت نقودا أخرى معك في جيبك؟

— لا يا ماما

— ماذا ركبتِ من مدينة نصر إلى المشية؟

— ركبتُ الأتوبيس ككل يوم

— أريدك أن تعتمد على نفسك.. أنت لست صغيرا

— طبعاً يا ماما

— هيا ادخل وغير ملابسك المبتلة.. وأكلك في المطبخ

أما عن الطفل بدر، فلم ينقطع طوال الطريق إلى فيلتهم في الزمالك عن السؤال عن الأطفال المتسولين والفقراء وعن آبائهم وأمهاتهم وأخوتهم، وعن سبب التسول والفقير، وكيف يترك الأهل أولادهم هكذا في الشوارع؟، وكان أبوه المهندس معتصم شرف الدين دائماً بعد كل إجابة يطلب منه أن يشكر الله، بينما كانت المهندسة أحلام شاردة القلب والعقل مع الطفل المتسول ياسين.. كانت دموعها تسيل من خديها فتوارىها كلما طافت بذهنها معه تتذكر حالتها عندما رآته، وقد ظلت تقسم لزوجها معتصم بقية الطريق أنها لم تشعر بنفسها أبدا وهي تلقى الهاتف من يدها، حتى إنها لم تتذكر أنها صرخت في وجهه أن يقف بالسيارة جانبا، واقتنع الاثنان أن ذلك قد حدث بسبب الشبه الكبير بين ابنها بدر والطفل المتسول. وفي فيلتهم بالزمالك أسرعَتْ مربية بدر تحمله من على سلم الفيلا إلى الداخل.. أدخلته إلى الحمام وظلت قريبا منه حتى اغتسل، فناولته منشفته وملابسه الداخلية ثم ألْبسته البقية.

وكانت خادمة الأسرة الجديدة امرأة كبيرة السن بقلب حنون، قد وضعت ما لذ وطاب من الطعام على السفرة المذهبة جوانبها.. جلس بدر بين الزوجين الهائنين يأكل طعامه اللذيذ، يتسابق الاثنان في حثه على أن يأكل أكثر، فإن لم يستجب لهما وعداه بهدية جميلة في الغد إن استجاب وأكل، وما أكثر الهدايا له في كل يوم!، وما أكثر أعباءه غالية الثمن التي تملأ كل أركان حجرته الواسعة المزينة بأروع الأثاث، والمكسوة جدرانها بأحدث أنواع ورق الحائط ذي الألوان والرسومات الطفولية!

وأما المهندس معتصم شرف الدين فقد تاب إلى ربه وحج البيت الحرام، هو بالطبع لم ينس تلك الشهور التي عاشتها معها الخادمة سونيا في الفيلا، ولم ينس لحظات الحرام معها التي أنجبت منها الطفل الحرام.. فكر كثيرا في لحظات الورع والخشوع أن يبحث عن هذا الطفل ليحميه بأية طريقة من بين برائن أمه الشيطانة، ثم كان يتراجع سريعا خوفا من أن يعيد القلق إلى بيته المستقر، واعتمادا على أنه قد أمّن مستقبله تأمينا يريح ضمير، والمسكين لا يعلم أن الطفل الحرام هو بدر الذي يحيا منعما بين يديه وأمام عينيه ليل نهار، وطفله الحلال هو ياسين المتسول تحت المطر والشمس وقهر الأيام.

وعلى أية حال فإن مأساة الرجل رغم هولها لا تُقاس بمأساة زوجته المسكينة أحلام، كتب عليها القدر أن تربي في حضنها طفلا حراما، وضع زوجها الحبيب غرسه بالخيانة لها، وعليها هي أن تتعهد هذا الغرس الحرام

فوق كفيها يوما بيوم، تسقيه من دموعها وشوقها وخوفها وراحتها
ليشبَّ رجلا سويا، في حين أن الابن الحلال هو ياسين الذي يحيا هناك
حياة الأشقياء متسولا تحت المطر والشمس وقهر الأيام.

في المساء دخل الطفل بدر حجرته مع المربية.. جلست بجانبه على
السريـر تحته على أن يُنهي كوب اللبن الشهيـ اللذيذ، وما إن شرعت تحكي
له حكاية جديدة حتى أخبرها أنه يريد أن يسمع حكاية الليلة من أمه
أحلام.. هكذا يظن أنها أمه.

خرجت المربية وعادت بمدام أحلام.. لم تشأ أبدا أن ترفض له طلبا،
ورغم أنها في منتصف حملها بينت كما أخبرها الطبيب إلا أنها استلقت
بكل حب بجانب ابنها، هكذا تظن أنه ابنها.. حكّت له أكثر من حكاية
حتى نام فنامت بجانبه.

وفي الصباح تناول السائق حقبة الأمير المدلل بدر من المربية على سلم
الفيلا، ثم سار بجانبه حتى السيارة.. فتح له الباب بكل رفق وحرص
عليه.. قاد السيارة حتى مدرسته الأجنبية الخاصة بالتجمع الخامس
ليقضى يوما دراسيا رائعاً بين أطفال في مثل ثرائه ورفقه وتدليله، وعاد
بعد يومه الدراسي ليرتمي بين أحضان النعيم.

(١١)

الشیطانة تعشق

صیف سنة ٢٠١٣

تركتُ سونيا شقتها بمنشية ناصر إلى شقة كبيرة فاخرة بالرحاب..
هي نقلتُ كبيرةً قررتها في النهاية بعدما بلغتُ مبلغاً لم تستطع بعده أن
تتحمل زوجها سالم السعدي.. لم تعد تبالي به أو تبالي بغيره من أهلها،
فطالبته صراحة بالطلاق فرفض رفضاً قاطعاً، فعرضتُ عليه مالا مقابل
ذلك، فعاند أكثر.

تركتُ شقتها وهي لا تزال زوجته.. انتقلتُ إلى الرحاب دون أن تخبر
أحدًا بمسكنها الجديد، وغيّرتُ أرقام هاتفها وهاتفي ياسين وهايدي..
حاول سالم كثيراً أن يصل إلى أرقام هواتفهم الجديدة حتى وصل أخيراً..
اتصل بها فطالبته بعدم الاتصال طالما يعاند معها.. قال لها الزوج والأب
المخدوع:

— أريد أن أرى أولادي

— إن طلقني سأجعلك تقابلها

- لن أطلقكِ أبدا يا سونيا.. سأجعلكِ معلقة هكذا
- ولمَ هذا الشر؟
- لأن الأموال غيرتكِ.. صرتِ تكبرين عليّ.. أنتِ إنسانة خسيصة
- الزم حدودك يا سالم
- أريد أن أرى أولادي
- طلقني أولا
- لن أطلقكِ
- إذن لن تراهم أبدا

وكانت حياة الرحاب مختلفة تماما عن الحياة في منشية ناصر، الفرق بين الحياتين كالفرق بين الجنة والنار، والصحة والمرض، والغنى الفاحش والفقر المدقع، وكان ياسين رغم دراسته في مدارس اللغات قد عاش حياة هؤلاء الفقراء والمتسولين هناك.. أصحابه من هؤلاء إما أن يكون بلطجيا أو لصا أو متسولا أو فقيرا محروما يائسا، وكانت هايدي لا تختلف عنه في ذلك إلا قليلا، فلما انتقلا إلى الرحاب لقيا صعوبة في البداية قبل أن ينخرطا في المجتمع الراقى الجديد.. في الرحاب لا تجد إلا حياة منظمة نظيفة منتظمة راقية في الظاهر.. كل شيء بحساب، حتى إن كل كلمة من ساكنيها مقصودة دونثرثرة.

وياسين الذي كان لسنوات كثيرة يعمل في التسول أحيانا وفي السرقة والنصب حيناً آخر، ها هو قد صار شابا في السابعة عشرة من عمره..

يحمل على كتفه حقيبةته نازلاً من شقتهم الجميلة ليركب سيارة سونيا الحبيب الجديدة مع أخته هايدي.. دقائق معدودة ثم تقف سونيا بسيارتها أمام نادي الرحاب لينزل ياسين وهايدي ليقضيا وقتاً جميلاً طويلاً في النادي، بينما جلست مدام سونيا مع سيدات تعرفت عليهن، يتحدثن في أمور تفهمها وأمر كثيرة لا تتقن أمامها غير الصمت حتى لا تبدو جاهلة في شيء.

وكانت سونيا لا تزال رغم انتقالها إلى تلك الحياة الجديدة في كل شيء تداوم على الذهاب بين وقت وآخر إلى إشارة التسول في تقاطع شارع الطيران ومصطفى النحاس، والغريب أنها صارت تبدل ملابسها وتتخفي لتعود للتسول بنفسها بعدما كانت قد اقتصرت على مجرد الإشراف.. دفعها إلى ذلك أنه لم يبقَ معها من المال إلا القليل، إن اعتمدت عليه فقط ستعود للفقر القديم، فلم يكن لها من عملٍ تحترفه وتقنه كثيراً غير التسول.

إنَّ معظم رصيدها في البنك قد أنفقت على شراء شقتها الكبيرة في الرحاب وتغيير سيارتها إلى سيارة أغلى ثمنًا، وحياتها الجديدة مع الغلاء الفاحش صاروا يكلفانها بذل الكثير من الأموال في كل يوم، وصار ياسين وهايدي يحتاجان لأموالٍ كثيرة من أجل دراستهما، لقد أدخلت الاثنين نفس المدرسة التي بها بدر وأخته من أحلام لشيء في نفسها الشريرة.

وسونيا بالطبع لم تنسَ ابنها بدر يوماً واحداً.. هي منذ أن غرسته في التربة الثرية تنتظر هذا اليوم الذي يكبر فيه لتعيده إليها بكل ثرائه، أو تذهب له بكل فقرها وطموحها ومطامعها الشريرة.

كانت منذ اليوم الذي بدلته مع ياسين تراقبه من بعيد.. كانت تنتظر الساعات أمام فيلا الزمالك الفخمة لتراه بينما يركب السيارة متوجها إلى مدرسته وتراه بينما يعود منها داخلا إلى الفيلا، حتى إنها كانت تتبع سائق السيارة حتى المدرسة وحتى النادي، فعلت ذلك لتعرف كل شيء عنه.

عرفت أن أباه معتصم شرف الدين وزوجته أحلام لا يزالان على قيد الحياة، وعرفت أن أحلام قد أنجبت له أختا اسمها يارا، وقد أعاظها ذلك وأغضبها.. هي تريد الثروة كلها لابنها بدر.

وعرفت أن مدحت الأخ الأكبر لمعتصم، ونرمين أختها الوحيدة يترددان دائما على الفيلا.. هما أيضا لديهما حُلُم الثراء الأكبر عن طريق ساكني هذه الفيلا المرصودة من الأعين الحاقدة.

ولقد تعمدت الشريرة سونيا أن تعلم ياسين وهايدي تعليما غاليا غاليا كما يتعلم بدر ويارا، وقد كلفها ذلك المال الكثير حتى أوشكت على مشارف الإفلاس.. هي تخطط لأن يتقابلا ويتعارفا.. تريد أن تقترب كثيرا من حديقة حلمها حُلُم الثراء.. تريد أن تحت جذور الشجر الذي قد يعوق طريقها نحو جنى الثمار.. لكن حتى هذا الحين هي مضطرة لأن تنزل بنفسها للتسول لجمع بعض النقود بعدما كانت قد انقطعت فترة طويلة تعتمد فقط على فوائد أموالها وعلى ما تعطيه لها نوال.

الجميع يقدرون ذكاء وعزم اليهود والغرب عندما يتوحدون حول هدف واحد، والكثيرون سمعوا عن بروتوكولات حكماء صهيون..

وضعوا خططا لمطامعهم ورسموا طريق طموحهم منذ سنين... يموت الواحد منهم ويأتى الآخر بعده ليُكمل نفس المقصد، لديهم إصرار وعزيمة للوصول لكل ما خططوا له، ومثلهم سونيا بكل شرها ومخططاتها.. فكرها فكرُ يهود، وعزمها عزمٌ من حديد... والنجاح حليفُ الأذكىاء أصحاب العزم والعمل والثبات على المبدأ وإن كان شيطانياً، والفشل حليفُ الأغبياء الكسالى فاقدى أي هدف، أصحاب التقليد الأعمى لكل خسيس وضع لا عظيم.

ها هي سونيا تعود إلى أرض التسول بأنوثة ما فوق الثلاثين، وجمال فاق جماها القديم، وجمال المرأة يزيد مع تعاقب السنين مثل غرس الشجرة المثمرة، كلما طال عليها العهد حلى ثمرها طعماً ومذاقاً.

صار جمال سونيا يجذب كل عين، ولا يصدق كثيرون أنَّ صاحبة هذا الجمال هي متسولةٌ في الحقيقة، فثياب التسول لم تستطع أن تغير تلك الطفرة التي زادت في جماها لسببين أولهما النضج الذي يزيد الأنثى - أية أنثى - أنوثة، وثانيهما جوار حياة الأغنياء في الرحاب.

في أول يوم لها بعد العودة أقبل عليها المتسولون والمتسولات لتحياتها والترحيب بها.. قالت نوال:

— نورِ مكانكِ يا سونيا

— النور نوركِ يا نوال

ثم نظرت لها نوال مأخوذة بطغيان جماها وأنوثتها:

— آه لو كنتُ رجلاً

ضحكتُ سونيا قائلة:

— امشى يا شاذة

— يخرب بيت جمالك يا سونيا

— أي جمال؟.. أنا في الآخر متسولة

— مثلك يجب أن تسكن القصور

— الله أعلم يا نوال.. فقد يحدث قريباً

— أنا متأكدة أنه سيحدث

قالت نوال وضحكتُ ضحكة خليعة مسموعة ثم التفتت لعملها،
وراحت سونيا تمارس مهنتها وتنتقل بين السيارات وتردد (منديل يا بيه..
منديل يا هانم.....)

وانتظمت حياتها على ذلك النمط الممل بسبب شخصيتها الجديدة
ومسكنها الراقى، وقد كرهت أن تمضي بها الحياة هكذا طويلاً رغم أن
المال قد بدأ يعاود جريانه في كل يوم إلى نهرها.. إنها صبورة في الأساس،
وتحب أن تتقن كل خطتها، ومع ذلك فقد بدأت تستعجل الوصول إلى
حلمها حلم الثراء الفاحش الذي لا عودة منه لفقر أبدا.

ومضت أيامها على ذلك حتى كانت تجلس يوماً بالرصيف أسفل
شجرة تحتسي كوباً من الشاي، فسمعت ضحيجاً على الطرف الآخر من

الطريق من ناحية مبنى حي مدينة نصر.. كان كثيرٌ من الناس يحيطون
برجلٍ زري الهيئة، شاحب اللون، ثيابه متسخة وممزقة، حافي القدمين،
بوجهه آثار جروح طفيفة لم يَطلُ عليها الوقت، وكان يتلقى الضربات
وقذائف الحجارة وكلمات السخرية من المحيطين دون أن يتحدث إلى
أحد.. كان فقط يريد أن يجلس في ظل شجرة ويكي.

سألت سونيا عامل الشاي عن سبب الضجيج، فنهض من مكانه
واقفا وأرسل عينه بعيدا ثم قال لها:

— لا شيء.. فقط الناس تجري خلف مجنون

ضحكتُ سونيا ثم ارتشفتُ بعضا من الشاي، وأخرجتُ تليفونا
محمولا قديما، وراحت تتصل بهايدي لتطمئن عليها، فهي بالطبع ابنتها
بنت بطنها غير ياسين الغريب، لذا فهي لا تنقطع عن أن تطمئن عليها في
كل وقت.. إنها تحبها حبا جما، فهايدي تشبهها كثيرا، وكلما كبرت ولفَّ
خراطُ النساءِ جسدها اقتربتُ منها أكثر لتكون سونيا الثانية بكل سحرها
وأنوثلتها الطاغية.

ولم يكف الناس عن مطاردة المجنون، وكلما ابتعد عنهم اقتربوا منه
حتى عبر الشارع إلى الجانب الذي تجلس فيه سونيا، وصار قريبا جدا من
مكان جلوسها، ورغم ذلك لم تهتم حتى جاءت لها نوال مسرعة تقول لها
في رفقٍ وتأثر:

— والله حرام

فنظرتُ لها سونيا ضاحكة وقالت:

— ماذا بكِ يا نوال؟

— ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء

— آه منك يا نوال يا أم قلب طيب

— ماذا فعل لهم المجنون ليقذفوه بالطوب؟

— هيا يا نوال.. عودي إلى عملك.. لا دخل لنا بالمجانين

وظلّت نوال واقفة، واقتربت من سونيا أكثر تستعطفها أن تقف وتمنع الناس والمتسولين من ملاحقته وضربه، فابتسمت سونيا واستجابت لها واقفة وهي تقول لها:

— ما رأيكِ أن تطليبي الطلاق من زوجك لنزورك هذا المجنون؟

— والله أتمنى ذلك.. إنه على حالته تلك أحلى من المتعوس زوجي

— وضحكت سونيا، ووقفت تغمزها أسفل صدرها قائلة:

— آه منك يا.....

واتجهت سونيا من مكانها ناحية المجنون الذي كان قد جلس جانبا، ثم وارى وجهه بين كفيه وأخفض رأسه وانخرط في البكاء وهي تنادى فيمن حوله أن يتركوه حتى اقتربت منه تقول له:

— تعالَ معي.. لا تخف.. تعال اشرب شاي

ورفع المجنون رأسه لها صامتا والدموع تسير على لحيته الطويلة المبعثرة، ما هذا؟!.. لقد ظلّت لفترة تنظر له فقط دون أن تتكلم.. إنها

تعرف هذا الوجه.. تعرفه بدون ملامح الشحوب والقهر والحزن التي تعلوه، وبدون تلك اللحية وكثرة الجروح والندوب.. إنه هو.

عندما تعشق الخير، وتُفني نفسك من أجل أن ترى البسمة على الشفاه، ثم يأتي أقرب الناس إليك، ولا يكون له هدف غير أن يقطع يدك الممتدة له ولغيره بالإحسان، فهذا في رأيي من علامات النهاية بآخر الزمان.. يفعل قريبك هذا لأنك لا تقصرها عليه، فإن فشل معك في الجولة الأولى انتقل إلى جولات أشد حقدًا ومكرًا، ولا يكون أمامك رغم كل صدمة فيه ومنه إلا أن تقاوم وتقاوم لتبقى واقفاً تُقرب الخير لمن يحتاج، وأنت تعرف مع ذلك أن منتهى الحسرة والألم أن تشعر أنك إن سقطت سقط كل شيء، وإن فقدت قوتك خارت كل القوى، وإن استسلمت في النهاية وأنت القوى أصابك الجنون كبديل.. تلك نهاية الدكتور أشرف الأمير في بيته.. نعم هو أشرف المجنون.

وعند العودة للوراء سنينا نذكر أن سونيا الخادمة كانت قد أبلغته أن زوجته حنان قد طلبت منها الإيقاع به في الجنس معها لهدف في عقل الزوجة الشيطانة يخدم خططها لقهره.. أخبرته سونيا حينها بمكر الزوجة لأنها عندما وازنت بين أمورها وجدتها ترجح أكثر في كفة أشرف، وأوقع الدكتور أشرف بمعاونتها بزوجه حنان، لكن حنان أخبرت أشرف بعلاقة الجنس الحرام التي تمت بين سونيا وأخيه إياد، وأخطأ أشرف خطأ حياته، فأبقى على الشيطانة حنان في بيته، وطرده الشيطانة سونيا الخادمة.

وها هو الدكتور أشرف يُطْرَد من بيته على يد حنان وإياد وبقية الأسرة والأهل، حتى إنَّ فلذتي كبده مالك وحببية قد وقفا في صف الأم حنان.. لم يحركا ساكنا للاحتفاظ بأبيهما.. حب المال والرغبة في الانحلال دائما يفسدان قلوب الضعفاء، فاخرقت سهام الغدر طيبة الرجل وثقته بالناس.. كانت الصدمات المتتالية عليه كبيرة وكثيرة فأصابته عقله، لكن صدمة قلبه كانت أكبر، فخرج للشوارع متحسرا مجنونا، يتقلب بين أمواجه الهادرة حتى وصل منتهاها جاثيا أمام الشيطانة سونيا.

صاحت في ذهول:

— دكتور أشرف!!

ظلَّ لفترة ساكنا ينظر لها دون أن ينطق فأعادت:

— دكتور أشرف.. صح أنتَ دكتور أشرف؟

لم يرد وظلَّت تطلب منه الكلام وهو لا يتكلم فقالت له:

— لا أستطيع أن أصدق عيني.. تحدث لأسمع صوتك.. أنا أحفظه.

ولم يتحدث، فراحت تقول:

— أنا سونيا.. هل تتذكرني؟.. أظن أن زوجتك هي سبب ما أنتَ

فيه الآن

فنظر لها، وأشار برأسه أنها الحقيقة فقالت بغضبٍ وتأثر:

— كنتُ أعرف.. الله يحرقها

سألته عن إخوته فلم يرد، فسألته عن مالك وحببية، فنظر لها وبكى..
قالت له في رفق:

— مؤكد أنك جائع

نظر لها ولم يتكلم، فوقفَتْ ونادت نوال.. أسرعتْ نوال إليها،
فأعطتها سونيا نقودا، وطلبتْ منها أَنْ تُسرِعَ إلى مطعم أرابياتا قبل آخر
الشارع بقليل وتأتى بأفضل طعام للمجنون.

أكل المجنون أشرف وشرب، ونظر دون كلام بنظرات الشكر لسونيا
التي جلستْ بجانبه تراقب كل حركاته وتعبيرات وجهه.. تذكرتْ
عندما كان يعود من عمله مشرق الوجه رغم التعب فيضع حقيبته ثم
يفتح ذراعيه بكل حنان، فيقبل عليه طفلاه لثما وتقبيلًا.. تذكرتْ إنفاقه
على الفقراء.. تذكرتْ زوجته حنان التي كانت تقف أمامه دون حراكٍ
خوفا منه رغم ميولها الشيطانية، لقد كان الأمر الناهي في ذاك البيت
الغني الكبير، لكن كانت كل تدبيرات حنان من خلف ظهر الزوج
الطيب.. راحت تتساءل في نفسها كيف استطاع الشياطين إيصاله إلى
تلك الحال؟.. نظرتْ إلى الجروح في وجهه فقالت له:

— سأأخذك معي لأعالج جروحك

أشار لها رافضا، فقالت تصيح فيه:

— سأأخذك رغما عنك

وجذبتَه من يده.. اتجهتُ به ناحية السيارة وأركبته بصعوبة، وفي الطريق راحت تتحدث له وهو لا يفعل شيئاً غير أن يهز رأسه لها حتى صاحت فيه أن ينطق ليجيب على سؤالها:

— هل تعرفني؟... هل تتذكرني؟

التفتَ لها ونطق أخيراً:

— أنتِ سونيا

فخفق قلبها بسماع اسمها يجري على لسانه حتى إنها رفعت يده إلى فمها بحركة لا إرادية وقبلتها.. إنها لا تتعامل معه على أنه أشرف المجنون، بل تتعامل على أنه الدكتور أشرف الأمير، ذلك الذي تمتته كثيراً منذ سنوات ولم تحجلْ عن أن تذكر ذلك لزوجته حنان.

أطلقت زغرودة عالية من السيارة دون اهتمام بالناس، فابتسم لها فابتسمت وقالت:

— أنا سعيدة جداً أنك تذكرني

قال لها بصوت هاديء:

— مثلك لا يُنسَى يا سونيا

ابتسمت ابتسامة صافية من أعماق قلبها وقالت:

— والله أنا لا أصدق أنك مجنون

قال لها مبتسماً:

— وأنا لا أصدق أنك عاقلة

— لِمَ؟

— لا أعرف تحديدًا.. لكننا نعيش في دنيا معقدة لا ثوابت فيها..
وهذا ما يجعلها أرض المعاناة

— دكتور.. أنا لا أفهم كلامك الكبير هذا.. خاطبني على قدر عقلي
— فضحك الدكتور أشرف وقال:

— باختصار ليس هناك حقيقة ثابتة إلا الله وما أخبرنا عنه الله
— والله معك حق يا دكتور.. بدأت أفهم

ووصلنا إلى الرحاب، وصعدا إلى شقتها.. فوجيء ياسين وهايدي
بسونيا تدخل عليهما شقتهم الجميلة النظيفة وفي يدها رجل مجنون..
صرخت هايدي:

— ماما.. مَنْ هذا؟

قالت لها وهي تتجه به ناحية الحمام:

— رجل مجنون

وفي اليوم التالي لم تذهب لعملها في التسول، إنما ذهبت به إلى نادي
الرحاب.. كان يمشي بجوارها بعد أن حلق لحيته وألبسته أحسن الثياب
كأنهما زوجان خرجا للتريض.

كانت سعيدة به جدا وفخورة به جدا.. تشعر بالحماية في كنفه وهي
المرأة القوية الشريرة التي عاشت حياتها الزوجية السابقة الأثني والرجل،
بل لقد تأبطت يده وتشبثت بها، وتعمدت أن تسلك به كل مكان في

النادى قد يتواجد بها صديقاتها.. تلك فطرة الخلق عند المرأة الطبيعية، أن تسرع قدماها ناحية الرجل لتختبيء تحت جناحيه مهما كان ضئيل الشأن ومهما كانت هي.. يكفي أن يحمل اسم رجل.

والحقيقة أنه لم يكن عاقلا تماما، ولم يكن أيضا مجنوننا تماما.. إنه شخص مثقف ثري بقلب نقي، تعرض لصدمات كبيرة وكثيرة أحدثت خللا فيه، وإن أكبر مأساة يعيشها أنه كان أعقل الناس وأطيب الناس وأنقاهم، وهو حقا الآن كذلك، لكنها النسخة المجنونة، ولا يجب أن نستغرب، فمعظم البشر لهم وجهان، الأصل الظاهر يكون عاقلا، والثاني يكون مجنوننا، لكنه خفي يظهر ويغيب.

وقد يتساءل البعض: هل هناك شخص مجنون عاقل، والجواب نعم هناك كثيرون، وإنني لم أسمع أكثر الكلام حكمة إلا من يعتبرهم الناس مجانين، بل إن نصف أصدقائي مجانين، وهؤلاء أول من يوفون بالعهود ويتقنون الأعمال.. يكفي أن المجنون لا يكذب، لا يكره، لا يخون.

أقول ذلك لأنني أعرف منهم الكثيرين، لا فرق بينهم وبين من يعيشون بمستشفى الأمراض النفسية والعقلية غير أن من أعرفهم يعيشون بيننا في البيت والشارع والعمل، بل إنك نفسك قد تكون مجنوننا لكنك لا تدري، ومن منا لم يُصَبْ بلحظة جنون في حياته على امتدادها سواء أرادها أم جاءته بغتة، أما عني، فقد كنتُ أعتمد على إحساسي أكثر من كل شيء كإنسان عاقل، فلما صرْتُ أعتمد على وحي أفكاري الفجائية المجنونة رأيت الحياة أجمل، فعشتُ أغلب لحظاتي فجائيا مجنوننا.

وإني أرى أنَّ حياة المجنون مستقرة أكثر من حياة العاقل، فقد تلقى الصدمة وخرج عن دائرة العقلاء واستراح، وصار لا يُسأل عن الكثير لكون الناس تحشى الاقتراب منه، كما أنه غير مُلزم بتفسير تصرفاته لمن حوله، وغير مطالب بإظهار آرائه الشخصية إلا بإرادته.. فأهلاً بالجنون.

قال ياسين الغاضب لسونيا أمام أشرف المجنون بينما كانت تتأبط يده خارجين من شقة الرحاب:

— ما هذا الذي تفعلينه؟

— كما ترى

— أبي لو عرف ما تفعلينه مع هذا المجنون سيغضب جدا منك ومني

— أبوك في حكم الرجل الغريب بالنسبة لي

— لكنه لم يطلقك بعد

— وما شأنك بذلك؟

— إنه أبي وإن كنت بعيدا عنه

وبالطبع لم تستطع سونيا أن تخبره بأن سالم السعدي ليس أباه.. تركته وانصرف مع غضبه منها وغضبها منه، لكنها أخفت غضبها وكانت خبيرة في عدم إظهار غضبها، وخارج البيت انتظرت من أشرف أن يخبرها أنه غاضب من كلام ياسين، لكنه لم يتحدث عن ذلك، فالمجنون في مثل حالة الدكتور أشرف غالبا يجب فقط، لذا سألتها إن كان غاضبا أم لا فأشار برأسه أن لا،

فأخبرته أنها قررت أن تنقله لشقة بالحي السادس بمدينة نصر لتكون قريبة منه، فأشار برأسه أنه موافق.

كانت شقة ياسين الغاضب التي اشترتها ببعض المال الذي أعطاه لها أبوه المهندس معتصم نظير بذرته الحرام، وبالطبع لم يكن ياسين يعلم عن تلك الشقة شيئاً.. كانت شقة صغيرة في حي شعبي لكنها معقولة لأن تأوي أشرف بجنونه حتى يعود عاقلاً.

ذهباً سوياً واشترت فرشها، وبعد أن رتبّت له كل شيء فيها أمسكت بيده وأخبرته أنها ستأتي له بالطعام والشراب كل يوم، وعليه ألا يخرج منها إلا معها حتى لا يتعرض لخطر الشوارع، فأشار برأسه مبتسماً بعلامة الموافقة والعرفان لها، لكنها عندما أخبرته أنها ستأخذه إلى طبيب نفسي غضب غضباً شديداً، وانتابته حالة جنونية، فأخذته من يده وأجلسه على أريكة، وراحت تمسح على شعره ووجهه وتمس له بصوت حنون، وقد اقتربت منه كثيراً:

— أشرف أنا أعرف أنك لست مجنوناً.. أنت فقط تعرضت لصدمة كبيرة وتحتاج لبعض العلاج البسيط لتعود إلى حياتك الطبيعية وعملك.. هل نسيت أنك طبيب قلب؟

فأجاب مسرعاً وهو يهز رأسه ساخراً:

— وكيف أنسى أنني طبيب القلب الذي أبلغت عنه زوجته كذبا أنه يتحرش بمريضاته وممرضاته؟

— تلك الكلبة.. كيف تجرأت حنان على أن تفعل بك ذلك؟

— وأكثر.. لقد ملأت الدنيا بشائعات عني

فقالت سونيا له برفقٍ وحنان:

— دَعَكَ مِنْ هذه الشيطانة.. ألا تريد العودة لأولادك وأخوتك؟

— إخواني وأولادي تحالفوا معها ضدي.. أبلغوا عني أنني أبدد ثروتهم

على الفقراء

فأخذت نفساً ثم قالت:

— إذن عُدْ إلى الفقراء.. ما ذنبهم أن تستسلم وتمنع خيرك عنهم؟

— الفقراء هم أول مَنْ يسخرون مِنِّي الآن.. إنهم يلقونني بالحجارة

في الشوارع كلما شاهدوني

اقتربتُ منه أكثر، ورفعتُ رأسه لها، ونظرتُ في عينيه قائلة:

— إذن عُدْ لي يا أشرف

فنظر لها طويلاً باستغراب وهي تنظر له بابتسامة ساحرة شغوفة به،

ثم قالت:

— نعم لي.. أريدك أن تذهب للطبيب ليعالجك من أجلي

وظلَّ أشرف الأمير ينظر لها دون كلام، فوضعتُ رأسها على كتفه

فرفع يده وطوقها، رفعتُ رأسها سريعاً له سعيدة بذلك وعيناها لا

تفارق عينيه، ثم هوت على وجهه ورقبته تنثر قبلاتها الملتهبة الحارة وهو

مستجيب مستكين سعيد بكل ما تفعله، فدخل بذلك معا عالما سحريا جميلا، وأحسّت معه بمشاعر لم تشعر بمثلها أبدا من قبل .

إنه العشق الذي جاء يطرق باب شيطانة، فهي تملك قلبا بشريا، ولا أظن أن قلبا بشريا عاش سنينا طويلة أو قصيرة ثم رحل دون أن يمسّ الحبّ قلبه.. لقد عشقتُ الإنسانية سونيا الإنسان أشرف بلا تلك الألقاب والأوصاف والصفات التي تظل دائما حاجزا حديديا أحق بين القلوب العاشقة.. لقد كان حبا صافيا نقيّا من النوع الذي يدوم نقاؤه فلا تلوّثه قاذورات البشر .

وصارت تتعجل أن تُنهي عملها كل يوم لتذهب بكل احتياجات أشرف إليه، وتجلس معه لتتحدث كل أحاديث العشق التي عاشت عمرها دون أن يجري على لسانها كلمة منها، ووصلت إلى درجة أنها لم تعد تستطيع أن تتركه، فصارت تبيت الليل معه كثيرا في شقة السادس، بل بجواره على نفس السرير .

ولكن ماذا بالنسبة لأشرف؟ إنه ليس في حالته الطبيعية، فهل لقلب مجنون أن يخفق بالحب؟ الحقيقة نعم، وهل ينسى أحد قيس بن الملوح مجنون لبلى العامرية؟.. إنَّ قصة حبه لها خالدة عبر العصور، وهذا المجنون أشرف الأمير قد خفق قلبه بحب سونيا العجرية، سونيا الإنسانية كما عرفها، تلك التي حفظته من خطر الشوارع وسقته وأطعمته وأسكنته بشقة يتمناها كثير من العقلاء، وعالجت كل جراحه بيديها وبقليها وبأشياء أخرى، فكيف لا يحب تلك الإنسانية؟

لكن سونيا الخادمة، تلك التي عرفها تخدم في بيته، وسونيا التي تعمل في التسول كما رآها بعينيه، ماذا كان رأيه فيهما؟ أما الخادمة فلم يزعجه ذلك، وأما المتسولة فهذا ما كان دائما يلومها عليه، وكانت تخبره بأنها يوما ليس ببعيد ستترك التسول بلا رجعة لتنقل نفسها وتنقله معها إلى حياتها التي خططت لها من البداية تخطيطا شيطانيا لتحقيق حلم الثراء.

وهو بالطبع لم يعرف بعد سونيا الشيطانة تلك، إنه رجل مبادئ رغم أنه مجنون، والمجنون يظل محتفظا بمبادئه معه خارجا من رحلة العقل إلى رحلة الجنون، وما جعل أغلب العقلاء مجانين إلا تلك المبادئ التي تظل معهم، والتي بسببها يبدو جنونهم باديا للناس.

قالت له سونيا ذات ليلة:

— أشرف أنا أحبك.. فهل أنت تحبني؟

ابتسم لها ثم أمسك بيدها قائلا بحب:

— وهل مثلك لا يُحِبُّ يا سونيا؟

— هل ستظل تحبني يا أشرف؟

— وما الذي قد يمنع ذلك؟

— أن تبحث عنك حنان لترجعك إليها

— حنان شيطانة وأنت ملاك.. سأظل معك أنتِ

وابتسمت سونيا وقالت في نفسها: (يا خوفي من أن تعرف يوما حقيقتي!)

وانتبهت من شرودها على قوله لها:

— سونيا.. سالم زوجك

— ما له؟

— بالطبع أنا وأنتِ نخونه.. وهذا شيء لا أحبه

فابتسمت وربتت على كتفه وهي تقول:

— لا تقلق بسبب ذلك.. سأرفع عليه قضية خلع وبعدها نتزوج

ونعيش معا في الحلال

ففرح أشرف ثم قال لها:

— أتمنى أن يتم الخلع بسرعة

فابتسمت وقالت له:

— أشرف يا حبيبي.. ماذا ينقصك مني الآن؟

— تأنيب الضمير يا سونيا.. خائف من ربنا

— ألسنتُ تحبني؟

— بلى أحبك

— وأنا.. ألسنتُ أحبك؟

— بلى تحبينني

— الحب عقد زواجنا.. هذا يكفيننا

- لا يا سونيا.. نحن مسلمان في بلد مسلمة.. لسنا في بلاد الغرب
- تخيل أننا في بلاد الغرب
- سالم زوجك مسكين مخدوع.. حرام علينا
- أشرف يا حبيبي
- نعم
- طالما أنا وأنتَ معا فلا تحدثني عن زوجي سالم
- سونيا.. يجب أن يطلقك سالم.. ويجب أن نتزوج.. وإلا.....
- سألته بسرعة في اهتمام:
- وإلا ماذا يا أشرف؟
- سأترك شقتك.. وسأتركك
- وهل أهون عليك؟
- نعم تهونين.. فهذا أهون من نار جهنم

(١٢)

يعقوب الأصفر

عندما تلتقي الشياطين على هدفٍ واحدٍ فليبدأ الشر، ولنقل على الخير السلام، ولنودع الحق والأمن لنستقبل الغدر والقتل.. سونيا ويعقوب شيطانة وشيطان.. طموح واحد، غير أنَّ الأولى شيطانةٌ عاقلة، والآخر شيطانٌ مجنون، أو شيطانٌ عاقل يتظاهر بالجنون.. جمع بينهما الحب، حب الشر وحب المال بأي ثمن دون حد ودون رادع، كما جمع بينهما الكره والحقد، كان كل منهما يكره الأغنياء، ويحقد كل منهما على كل صاحب نعمة ومال.. متعتهما الكبرى أن يجدا غنيا في ورطة.. حاول يعقوب معها أكثر من مرة توطيد العلاقة بينهما على هامش العمل الشيطاني المشترك، بدأها باسم الحب مرة أو مرتين، ومرات باسم الجنس، لكن قلبها كان قد خفق الخفقة الوحيدة بحياتها لمجنون آخر، هو الدكتور أشرف الأمير.. ومن المعهود أن يُظَهِّرَ الحُبُّ الصادق القلوبَ الآثمة.. فهل سيحدث ذلك مع سونيا؟

وها هو أشرف يُعيد عليها أنه يشعر بتأنيب الضمير بسبب علاقتها الآثمة لأنها متزوجة من آخر، ولا يستطيع بسبب ذلك أن يتزوجها.. قال لها:

- سونيا.. ما آخر أخبار سالم زوجك؟
- لماذا تسأل عنه الآن؟
- لأعرف ما الذي فعلته معه في موضوع طلاقك منه
- هو يعاند معي.. لا يريد أن يطلقني
- والخلع؟
- يبدو أن الموضوع صعب يا أشرف
- فقال أشرف غاضبا:
- سونيا.. سأترك الشقة.. سأتركك
- أشرف أرجوك.. أنا أحبك
- وأنا أحبك لكننا نرتكب الفاحشة معا كل يوم
- أشرف نحن حبيبان.. فماذا في ذلك؟
- أنا لا أحب ذلك.. أريد أن أتوب.. ولن أتوب إلا بالزواج منك
- أو مغادرة شقتك
- فراحت سونيا تبكي وتحتضنه قائلة:
- أشرف إن تركتني سأموت.. ستتحوّل حياتي إلى جحيم
- وأنا يا سونيا ستكون آخرتي جحيم إن بقيت أطاوعك
- فنظرت له وقالت بكل إصرار:
- أشرف.. سأجد حلا.. هذه المرة أقولها لك.. وأنا على يقين أني
- سأجد الحل

— ما الحل؟

— أي حل يا أشرف غير أن تفارقني

— فيم تفكرين يا سونيا؟

— لا تقلق.. سأجد حلا

ولم تنم الشيطانة العاشقة ليلتها، بل ظلت عيناها مغمضتين بجانبه طوال الليل وعقلها يفكر فيما يجب أن تفعله لتُبقي أشرف معها.. كانت تتعجب من حالتها التي صارت لها بسبب العشق، وكانت تنقم على نفسها أن ذهبت بأشرف إلى الطبيب النفسي الذي عالج كثيرا من حالته، فاستيقظ مع ذلك كثير من مبادئه وقيمه.. تمت لو ظل ببعض الجنون الذي قابلته عليه، لكن حدث ما حدث، فلتفكر في شيء، أي شيء من أجل أشرف، حبها الأول والأخير.

ويبدو أن تفكير الليل قد هداها لشيء.. فذهبت منذ الصباح الباكر بسيارتها إلى عزبة الهجانة لتقابل نور أم زهرة زوجة سالم الأخرى، وكانت نور قد نقلت سكنها إلى هناك.. أرادت أن تلحق بها قبل الخروج للعمل.. وجدت على باب الشقة تستعد للنزول.. احتضنتها وطلبت منها نور الدخول.. دخلت سونيا وسألتها عن زوجها سالم.. قالت لها نور:

— هو بخير والحمد لله

أخذت سونيا نفسا عميقا ثم قالت:

— سالم لا يريد أن يطلقني يا نور

فابتسمت نور وقالت:

— والله سالم طيب جدا يا سونيا.. لماذا تريدین الطلاق؟

— نور ماذا تقولین؟.. هل صرتِ تحببینه؟

— العشرة يا سونيا

— وخيانتكِ له يا نور؟.. ابتكتِ زهرة.. تلك التي كبرتِ وصارت

تعمل في مصنع للملابس.. هل نسيتِ كيف أنجبتهَا؟

فغضبتُ نور وقالت:

— سونيا.. وهل أنتِ ملاك؟.. أنتِ مثلي تماما

— أنا لا أنكر أنى شيطانة.. وما زلتُ شيطانة.. لكني رأيتكِ أيتها

الطيبة تتحدثين عن طبيته.. وتستغربين طلبي الطلاق منه

فابتسمتُ نور ابتسامة فيها دهشة وقالت:

— وماذا في ذلك؟.. بالنسبة لي.. فسالم طيب ولا أريد الطلاق منه

— وماذا لو عرف أنه لا يُنجب

— ومن أين يعرف؟

— افتراضا.. لو عرف.....

— طبعا ستكون مصيبة على رأسي وعلى رأسك يا سونيا

— إذن ليس هناك إلا حل واحد

— ما هو؟

— ألا تعرفينه يا نور؟

— لا

— الموت.. أنا وأنتِ مِنْ مصلحتنا موت سالم

ولم تفهم نور على الفور مقصدها، فقالت كلاماً أذهل سونيا وأغضبها:

— بعد الشر عنه.. الأعمار بيد الله يا سونيا.. قد نموت قبله.. ربنا

يحسن ختامنا

فصرخت فيها سونيا قائلة:

— ماذا حدث لكِ يا نور؟

— لم يحدث إلا كل خير يا سونيا.. وأدعو لكِ بالهداية مثلي

— نور.. هل أنتِ طبيعية؟

— لقد أصبحتُ طبيعية بفضل الله ورحمته وكرمه

— هل صرتِ غبية أم صرتِ شيخة يا نور؟.. منذ متى هذه التقوى؟

— ألا تعرفين؟.. لقد اصطحبني سالم للعمرة منذ شهرين

فبرقتُ عينا سونيا استغربا، ثم قالت وهي تنهض ناحية الباب:

— تقبل الله منك ومنه.. سلاااام

ونفضت نور وراءها، لكنها لم تلتفت لها، ونزلت درجات السلم غاضبة

مسرعة إلى سيارتها.

قادت السيارة وعقلها يدور حول التغير الذي حدث لنور.. ترى

هل تابت نور فعلا عن كل شيء حرام بعد عمرتها وبعد نقلها للشقة

الجديدة.. أم أنها صارت نحب سالم.. أم الاثنين معا؟ لكن ماذا يفيدها من ذلك؟.. فلتذهب نور بتوبتها إلى الجحيم.

هكذا قالت لنفسها في النهاية، فلتفكر وحدها في مصيبتها.. فالأهم عندها هو أن سالم قد صار عثرة كبيرة في سبيل حبها واستقرارها مع أشرف، وفي سبيل طموحها نحو تحقيق حلم الثراء.. بوجود سالم حيا ستركها حبيبها أشرف لتكتوي بنار الشوق له، وأيضا ماذا لو اكتشف سالم أنه لا يُنجب؟ ستكون مصيبة كبرى، وفضيحة أكبر منها، وسيعلم ياسين وتعلم هايدى.. وقد يقتلها سالم نفسه أو يقتلها ياسين.. لا بد من قتل سالم.

كان ذلك الهدف هو الشيء الذي صار ذهنها لا يخلو من التفكير فيه.. فكرت في طرق كثيرة لقتله على أن يبدو الأمر موتا طبيعيا.. لكنها تحتاج إلى اليد المعاونة التي تعينها على مكرها وحيلها التي لا تنتهي دون تراجع، ودون توبة، فها هي نور يبدو أنها قد خرجت عن طريقها، فلتبحث عن يد أخرى غيرها.

لكنها قبل أن تبدأ البحث جاءتها اليد المطلوبة حتى مكان عملها في الإشارة.. كانت تقف تتسول ككل يوم.. اقترب منها رجل في عينيه شر وخبث ومكر شديد.. تحير هيئته وملابسه ووقفته أنه مجنون، لكنه ليس كأبي مجنون.. سألها كأنه يستجوبها:

— هل تعرفين مكان أشرف؟

نظرتُ إلى ملابسه المتسخة ولحيته الكثيفة المعقدة لتتأكد من أنه مجنون بالفعل، فقد خرجتُ كلماته من فمه، ووقعتُ على أذنها وقعا يوحى بأنَّ قائلها عاقل.. قالت:

— مَنْ أَنْتَ؟

— أنا صديقه يعقوب الأصفر

فضحكتُ وقالت له:

— فعلا والله أصفر

— علام تضحكين؟.. ألا يعجبك شكلي؟

— هل أَنْتَ مصري أم أمريكي؟

— طبعاً مصري ابن مصري

— والله أشك في ذلك

— لِمَ؟

— لا عليك.. لماذا تسأل عن أشرف؟

— قلتُ إنه صديقي

— ولماذا جئتَ تسألني أنا عنه؟

— الناس هنا أخبروني أنك تعطفين عليه وتعرفين مكانه

فحركتُ رأسها وفكرتُ قليلاً ثم أخبرته:

— تعال هنا غدا.. سيكون موجوداً

فنظر لها يعقوب نظرة خبث مبتسما قائلا:

— أمرك.. من أجل أشرف أنتظر العمر كله

فقالت سونيا في نفسها: (ما لهم المجانين هذه الأيام؟! .. نظراتهم
وكلامهم أعقل من العقلاء)

وفي المساء أخبرتُ أشرف عن صديقه يعقوب الأصفر فضحك
ضحكة مشوبة بالقلق قائلا:

— أخيرا ظهرت يا يعقوب.. ربنا يستر

قالت له باستغراب:

— لماذا تقول ذلك؟

— لا شيء.. لكن فقط احذري منه

قالت تستفسر منه أكثر:

— أشرف.. لماذا شعرتُ بأنَّ يعقوب هذا أشبه بالشیطان؟

ضحك أشرف وقال جادا:

— يعقوب هو الشيطان نفسه

— يا ساتر

— سونيا.. احذري منه كما قلتُ لكِ

— أشرف.. كلامه يدل على أنه إنسان عاقل

— فعلا هو إنسان عاقل جدا.. وحاقد جدا على الناس

- وما الذي يجعله كذلك؟
- يريد أن يمتلك الدنيا.. يَحْلُم ويخطط لأن يكون غنيا جدا
- يبدو أنه ماكر جدا
- يعقوب هو المكر نفسه يا سونيا
- وشعرتُ سونيا بالذهول مما تسمع فأكملتُ تسأل أشرف وأحسَّتْ أنها اقتربتُ من اليد الباطشة التي تبحث عنها لتعينها في شروها:
- كيف ينفق يعقوب على نفسه وبيته؟
- لديه أموال كثيرة.. جمعها من النصب والسرقة
- والقتل؟.. هل قتل أحدا من قبل؟
- ضحك أشرف وقال:
- قال لي مرة إنه قتل شخصا من أجل سرقة
- فصاحت سونيا تسأله في دهشة:
- حقا.. وهل صدقته؟
- لقد سألتُه إن كان صدقا.. فابتسم وقال إنه كان يمزح معي
- آه يا أشرف.. عينه كلها شر وخبث.. من الواضح أنه شرير جدا
- فعلا يا حبيبتى.. وفوق ما تتخيلين
- فسألته باستغراب:
- ولماذا تصادقه؟.. كيف يتصادق شيطان وملاك؟

- ليس لديّ ما يطعم فيه يا سونيا فأخاف منه
فصمتُ لحظة ثم قالت:
- كل كلامك يعني أنه يتظاهر بالجنون
- نعم.. هو بالفعل ليس مجنوناً
- هل هناك كثيرون مثل يعقوب؟
- ضحك أشرف وقال:
- نصف مجانين القاهرة ليسوا مجانين
- كيف؟
- كل من ضاقت به دنياه في هذه الأيام يخرج للشارع كأنه مجنون
هرباً من الفقر والمسئولية
- ولماذا لا يتحملون؟
- صبرهم ضعيف ونفوسهم مريضة
- ولماذا لا ينتحرون فيستريحوا ويريحوا الناس؟
- لأنهم يحبون أنفسهم أكثر من أي شيء.. لهذا يستسهلون التظاهر بالجنون
فاقتربت منه تهمس في أذنه:
- وهل أنت مثلهم يا أشرف؟
- أظنك تعرفيني أكثر من نفسي يا سونيا
- فعلاً يا حبيبي.. أنت ملاك

وفي الصباح أخذته معها حيث مكان العمل، ولم يكن يعقوب موجودا، فجلس أشرف قريبا منها لأكثر من ساعتين ينتظره، وأخيرا جاء من بعيد ينادي باسمه:

— أشرف.. أشرف

نهض أشرف من مكانه وأقبل يعقوب يتحسس ملابسه ويتعجب من شكله الجديد ونظافته:

— ما هذا الجمال يا أشرف؟.. هل شُفِيتَ من الجنون؟

— وهل رأيتني يوما مجنونا أيها الماكر؟

واقترب يعقوب من أشرف يقول له بصوت منخفض:

— هل كل ذلك بسبب هذه المرأة المتسولة الجميلة؟

فرمقه أشرف بنظرة غضب، ولم يرد على سؤاله، بل راح يسأله:

— هل أنت جائع؟

— نعم جدا

فناولته كيسا بلاستيكيًا بيده قائلا:

— يوجد بالكيس سندوتشات.. اجلس وكُل يا صديقي

تناولها يعقوب وجلس جانبا وراح يأكل، وجلس بجانبه أشرف ينظر له ويتسم من منظره وهو يلتهم الطعام، ثم جاءهما طفل بكوبين من الشاي، وضعهما أمامهما وهو ينظر لهما قائلا:

— الشاي من الست سونيا لكما.. اشربا أيها المجنونان
فضحك الرجلان، ونهض يعقوب من مكانه ناحية الطفل مازحا
يقول له:

— انتظر حتى يسلمح المجنون الشرير جلدك.. سوف أكلك فقط
أسرع الطفل جاريا من أمامه، وعاد يعقوب فجلس ليكمل طعامه،
ثم جاءت سونيا فوقف لها يعقوب سريعا، ورفع يده يؤدي التحية لها
كمن يؤدي تحية عسكرية، فنظرت له قائلة:

— يا أخي والله أنت لا تريحني.. اجلس
جلس يعقوب، وجلست سونيا تنظر له وتراقب حركاته في حين قال
له أشرف:

— أين تنام الليل الآن يا يعقوب؟
ضحك يعقوب ضحكة متقطعة ثم قال:
— كل الشوارع حجرات نومي الواسعة.. وكل الأرضفة سرائر
مريحة لي

ضحكت سونيا وقالت:
— وأين حمامك أيها الظريف؟
فأجابها مبتسما ثم ضاحكا:
— يا سيدتي.. حمامي في ظلال الشجر.. وعندما تعرق ثيابي.. أغسلها
تحت المطر

نظرتُ له سونيا نظرة ساهرة قائلة في نفسها: (ما لهذا المجنون!)..
وعاد أشرف ليسأله:

— صحيح.. أين تنام حاليا؟

قال يعقوب وقد توقف عن الضحك وسلك سبيل الكلام الجاد:

— بالأمس نمّت بجوار سور الحديقة الدولية

— وقبل ذلك.. أين كنتَ منذ آخر مرة كنا معا؟

— في العباسية وعبدّه باشا

ونظرتُ سونيا لأشرف تشير له وتحذره بعينيهما خوفا ألا يعرض عليه
المبيت معه بالشقة، وكان أشرف بالفعل قد فكر في ذلك بقلبه الطيب، فلما
أشارت له سونيا فهم مقصدها، فراجع عن ذلك، فسأل يعقوب أشرف
وهو يتنقل بعينه بينه وبين سونيا:

— وأنتَ يا صديقي.. أين تقضي حياتك الجميلة النظيفة تلك؟..

وأين تبیت ليلك الطويل؟

فأسرعتُ سونيا تجيب:

— هو حتى الآن يبيت عند أحد أقاربه

— أين يا أشرف؟

فأسرعتُ سونيا أيضا تغير مجرى الحديث قبل أن يجيب أشرف، فسألته:

— أخبرنا أنتَ.. أين تذهب عندما تختفي؟

فنظر لها يعقوب وقال ضاحكا بطريقة هستيرية؟

— وما شأنك بي؟

قالت سونيا بغضب:

— مجرد سؤال

فابتسم لها ثم قال بصوتٍ منخفض:

— إن كنتِ ستتهمين بي وتعطفين عليَّ مثل أشرف.. فسوف أخبركِ بكل شيء

فعاد أشرف ونظر له نظرة غضب ثم قال:

— يعقوب.. احذر في كلامك.. لا أريد أن أخسرك

فوقف يعقوب ونظر لأشرف ثم نقل عينه إلى سونيا، وأوقف عينه عليها وهو يقول:

— وأنا طبعاً لا أريد أن أخسر صداقتك يا صاحبي.. أنا ذاهب الآن..

ومكاني بجوار سور الحديقة الدولية إن أردتني.. سلام

وعمداً كان يعقوب يوجه كلامه الأخير لسونيا.. بالطبع هو يراها متسولة، ويرأها امرأة فائرة الأنوثة والجمال، ويتنظر منذ رآها تلك اللحظة التي تذهب له فيها جاثية أمامه، فهو يتعامل مع كل الناس خاصة النساء على أن وسامته ظاهرة للجميع رغم قذارة هيئته.. يتفاخر دائماً بشعره الناعم ووجهه الأشقر وعينه الملونتين وطوله الفارع، ولذلك فهو يرى نفسه قياساً بأشرف أكثر منه جاذبية للنساء.

هذا رأي يعقوب في نفسه، لكن رأي سونيا فيه مختلف، فهي تمقت شكله منذ اللحظة الأولى التي رآته فيها، وترى أشرف أكثر الرجال وسامة وشخصية وجاذبية، ففي رأيها ليس صاحب كل عينين ملوتتين جاذبا للنساء، منهم الكثيرون تأنفهم العين وتراهم منبوذين.

ومع ذلك فقد أخبرت سونيا أشرف في وقت متأخر من مساء نفس هذا اليوم أنها ذاهبة إلى الرحاب لترى ابنتها هايدي وياسين، ثم تعود رغم الوقت المتأخر للمبيت معه، والحقيقة أنها لم تكن ذاهبة إلى هايدي وياسين.. كانت ذاهبة إلى إبليس.

كان يعقوب نائما على الرصيف بجوار السور الجانبي للحديقة.. وقفت سيارة جيب بجانبه على الطريق الواسع الخالي من السيارات في الغالب.. ضغطت صاحبته على الكلاكس كثيرا حتى استيقظ يعقوب يفرك عينيه ليرى من يتعمد إيقافه، ظن منذ الوهلة الأولى أن أحدا سيعطيه مالا أو طعاما كما يحدث كثيرا في كل يوم، فحياة المجانين تقوم على ذلك، لكن كانت سعادته غامرة عندما رأى المتسولة سونيا هي من تطل بعينها من السيارة.. انتفض من مكانه مسرعا.. ابتسم ابتسامة النصر والزهو بنفسه.. راح لثوان ينظر من نافذتها إليها، ثم يدير عينيه على السيارة من داخلها وخارجها حتى قالت له:

— اركب

فتح الباب فإذا بها تمد يديها خلفها.. سحبت مفرشا بلاستيكيا.. بسطته تحته وخلفه قبل أن يرمي جسده.. فعلت ذلك حتى لا يتسخ المقعد من ملابسه.. انتبه لما فعلته فنظر لها وقال في غضب:

— سأقبلها منك الآن فقط لأنك لم تعرفيني بعد بعيدا عن الجنون

ضحكت ضحكة استهزاء وقالت:

— أنت مغرور يا يعقوب

نظر لها وابتسم قائلاً:

— وأنت ساحرة جدا.. وفوق ذلك أنت غنية.. سيارتك وحدها

تساوى أكثر من مليون.. كان يجب أن أعمل متسولا من البداية

أفضل من الجنون.. لم أحسن اختيار وظيفتي

— دع عنك هذا الحقد والحسد.. هذا لا يؤثر في.. أنا بالنهاية متسولة

— أنت أجمل متسولة رأيتها في حياتي

— يعقوب لا تحاول.. لن تصل لشيء معي مما يدور بذهنك

— وها أنت ذكية أيضا.. لذلك لن أياس.. فذكاء المرأة يثيرني أكثر

من جسدها

— يعقوب.. أنت آخر من أفكر فيه

فضحك وسألها:

— هل لأشرف علاقة بذلك؟.. هل تحببته؟

— لا شأن لك بذلك

— إذن لماذا أتيت لي؟

ضحكت سونيا ضحكة هادئة، وقالت جادة:

- جئتُ لك بسبب ما قاله أشرف عن شرك ومكرك
- نظر لها يعقوب ثم ضحك قائلاً:
- هل قال لك أشرف ذلك عني؟
- أشرف لا يُخفني عني شيئاً
- يا لحظك يا أشرف!
- وأوقفتُ سونيا سيارتها بجانب السور، وكانت قد دارت حوله أكثر من خمس مرات.. قالت له:
- يعقوب هل تريد بعض المال؟
- طبعاً.. أنا أعيش لأجمع المال
- هل تملك قلباً شجاعاً؟
- طبعاً.. طالما سأحصل في النهاية على المال
- وهل تحفظ السر؟
- أنا مجنون.. والناس لا تصدق المجانين.. فلا تخافي
- لهذا اخترتك
- ماذا تريدان؟
- مهمة بسيطة
- ما نوعها؟.. نصب أم سرقة أم.....
- ستقتل شخصاً

— مَنْ؟

— أهنأك فرق؟

— لا

(١٣)

ماس كهربائي

مع أول بزوغ لشمس يوم جديد ذهبْتُ سونيا لنور في شقتها بعزبة الهجانة.. أوقفتُ سيارتها بعيداً عن البيت في شارع غير الشارع.. فوجئتُ نور بطرقٍ على بابها في وقتٍ مبكر.. فتحتُ البابَ فدخلتُ سونيا بوجهٍ مبتسم غير الذي غادرتُ به من عندها آخر مرة.. بدا على وجه نور الاندهاش بسبب هذه الزيارة المبكرة، سألتها وهي لا تزال بالباب:

— خير يا سونيا

— خير يا نور.. فقط جئتُ في هذا الوقت لأتحدث إلى سالم.. ظننته عندك

— سالم لم ييت عندي الليلة.. لكن لماذا لا تتصلي به؟

— هو يغلق تليفونه في وجهي دائماً

— اذهبي له إلى محله في وسط البلد

— لا أعرفه

— سأخبرك بمكانه

وكان قد طال وقوفها بالباب دون أن تطلب منها نور الدخول،
فسألته سونيا:

— هل صرت بخيلة يا نور؟.. حتى الآن لم تقولي لي تفضلي

أشارت لها نور إشارة اعتذار بسبب سهوها عن ذلك ثم قالت لها:

— آسفة يا حبيبتى.. ادخلي.. البيت بيتك

تقدمت سونيا ناحية مقعد جانبي وجلست في حين انصرفت نور
ناحية المطبخ وهي تقول:

— سأحضر لك الشاي.. أعرف أنك تعشقين الشاي

وانتظرت سونيا مكانها لم تفارقه، لكن عينيها راحت تتجول بالمكان
وتحترق مداخل كل الأبواب، وعندما عادت نور سألتها سونيا:

— ما أخبار ابنتك زهرة يا نور؟.. لم أرها عندما جئتُكِ المرة السابقة

— بخير يا حبيبتى.. هي نائمة في حجرتها.. هي على وشك أن تصحو

للذهاب لعملها

— ولماذا لا تعمل مع سالم؟

— لا يعجبها العمل في الساعات

وابتسمت سونيا ثم قالت في خبث:

— وماذا تفعلين وحدك بالشقة يا لثيمة بعد نزول زهرة؟

فنظرت لها نور بغضب قاتلة:

- سونيا.. أنا الحمد لله أصبحتُ إنسانةً أخرى
- دائماً تفكيرك شمال يا نور.. لا أقصد ذلك
- إذن ماذا تقصدين؟
- أقصد مع سالم زوجك.. لا مع أحد غريب
- فقالت بصوت هادىء:
- فعلا سالم يأتيني كثيرا في هذا الوقت
- هنيئا لك.. اشبعي به
- طبعا أشبع به.. زوجي حبيبي
- أعرف أنه قد صار لك وحدك بعد أن طلق راضية
- فتنهدت نور وقالت:
- آه.. راضية.. والله كانت بنت حلال
- صحيح.. ما أخبارها؟
- راضية ما شاء الله عليها.. تزوجت من رجل غني وأنجبت منه
- فقالت سونيا على الفور:
- راضية أنجبت!!.. هذا يؤكد أن سالم لا ينجب فعلا
- وسكتت قليلا ثم قالت لنور مازحة وهي في الأصل تخيفها:
- ما رأيك أن أخذه إلى طبيب ليعرف حقيقتنا.. ويعرف كم ظلم راضية
- فأسرعت نور تقول في غضب:

— سونيا.. ألن تتوقفي عن ذلك؟

فأجبتها سونيا بلهجة أكثر غضبا منها:

— لا لن أتوقف.. تقولين إنكِ ذهبتِ للعمرة.. فهذا أكملّي توبتك
واعترفي له بخديعة السنين

فقالت نور لها:

— سونيا.. ماذا تريدین مني؟.. لماذا أتيت في هذا الوقت؟

— أتيتُ لأعرف متى يأتيكِ سالم لآتي وأتحدث له وأرجوه أن
يطلقني.. هل فهمتِ؟

فقالت نور في نبرة هادئة:

— سيأتيني غدا بعد خروج زهرة للعمل

فوقفتُ سونيا وأمسكتُ بكتفيها قائلة في ودّ مصطنع:

— نور يا حبيبتي.. حاولي أن تقنعيه معي أن يطلقني.. تلك آخر
خدمة أريدها منك

— حاضر يا سونيا

فربتتُ على كتفها بحنانٍ مصطنع ثم قالت:

— عندما يأتي سالم وتشبعان من بعضكما.. اتصلي بي دون أن يعرف
لأتيكِ فورا

— حاضر يا حبيبتي

- وأخرجت رقما من هاتفها، وقالت لها وهي تبسم:
- هذا رقمي الجديد.. رني رنتين فقط على هذا الرقم.. وسأتي فورا
- حاضر يا سونيا.. لكن لا تخبري سالم أنني وراء مجيئك هنا
- لا تقلقي
- وفي المساء توقفت السيارة الجيب أمام يعقوب بسور الحديقة الدولية..
- أطلت سونيا برأسها منها:
- اركب يا يعقوب
- ركب يعقوب منشر حامزها بنفسه بوجه مبتسم.. قالت:
- هناك تعديل بسيط يا يعقوب
- أوامر
- سنقتل شخصين مرة واحدة.. سنقتلها معا
- فضحك يعقوب قائلا:
- لا يهم.. قتل شخص مثل قتل شخصين.. الإثم واحد في الآخرة
- طالما تلوثت اليد بالدماء
- معك حق يا يعقوب
- لكن هناك شيء سيتغير
- ما هو؟
- الثمن سوف يتضاعف.. لكل شخص ثمنه.. مؤكدا أنك شعرت
- بمدى حبي للمال

- أَلَمْ تَقُلْ إِنَّ قَتْلَ شَخْصٍ مِثْلَ قَتْلِ شَخْصَيْنِ؟
- هَذَا فِي الْعِقَابِ مِنَ اللَّهِ.. أَمَّا حِينَ الثَّوَابِ مِنَ الْبَشَرِ الْمَحْرُضِينَ..
فَهُنَاكَ فَرْقٌ
- عَمُومًا.. سَأَعْطِيكَ كُلَّ مَا تَرِيدُ.. لَكِنْ يَجِبُ أَنْ أَخْبِرَكَ شَيْئًا
- مَا هُوَ؟
- احْذَرِ مِنَ الْمَالِ وَمِنْ نَظَرَاتِكَ الشَّيْطَانِيَةِ الْمَرِيضَةِ لِي.. فَغَالِبًا سَتَكُونُ
نَهَائِكَ بِسَبِيلِهَا
- فَابْتَسِمَ يَعْقُوبُ ثُمَّ قَالَ:
- عِنْدِي سَوَالٌ لَكَ
- أَسْأَلُ
- يَبْدُو أَنَّكَ خَبِيرَةٌ فِي الشَّرِّ وَالْإِنْتِقَامِ.. فَلَمَّاذَا تَسْتَعِينِي بِي؟
- فَضَحَكَتْ سُونِيَا قَائِلَةً:
- أَحْتَاجُ مِنْكَ شَيْئَيْنِ.. قُوَّتَكَ.. ثُمَّ خَبَرَتَكَ فِي الْكَهْرِبَاءِ
سَأَلَهَا فِي دَهْشَةٍ مَسْرَعًا:
- خَبَرْتِي فِي الْكَهْرِبَاءِ!.. مَنْ أَخْبَرَكَ بِذَلِكَ؟
- أَشْرَفُ
- أَرْجَعُ ظَهْرَهُ لِلْخَلْفِ فِي زَهْوٍ قَائِلًا:
- هَذَا صَحِيحٌ.. فَأَنَا خَبِيرٌ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ

— لا أريد الآن إلا خبرتك في الكهرباء

— سوف أبهرك

— يعقوب.. أريد أن نترك وراءنا جريمة نظيفة.. لا أريد أي شك

يحووم حولي

— أحتاج إلى معلومات لأفهم أكثر

— ستفهم كل شيء

وفي الغد في تمام العاشرة اتصلت نور تطلب موتها.. كان اتصالها رنيتين ثم أغلقت.. انطلقت الشيطانة لعملها ومعها يعقوب الشيطان.. أوقفت سيارتها بعيدا كالمعتاد.. جلس يعقوب على مقهى فقير في شارع بعيد بعد أن هذب من نفسه ولحيته قليلا.. صعدت سونيا درجات السلم وبيدها كيس به الكثير من عصير المانجو.. طرقت الباب.. فتحت نور.. تظاهرت بأنها تفاجأت بها.. خرج سالم من الحمام يرتدي ملابسه الداخلية فقط.. رآها فقال لها بصوتٍ غاضب:

— ما الذي أتى بك إلى هنا؟

قالت له برفق:

— جئتُ لأرى نور

قال بنفس غضبه:

— هذا بيتي.. بعد ذلك لا تأتي إلا بإذني

ونظرتُ سونيا لنور تغمز لها أن تتركهما، فانصرفَ نور إلى المطبخ
فاقتربتُ سونيا منه قائلة:

— سالم.. هل هانت عليكِ العشرة؟.. أرجوك لا تعاملني هكذا

— أنتِ مَنْ طلبتِ الطلاق.. وأنا لن أطلقكِ أبدا

واقتربتُ منه أكثر تهمس بأنوثته:

— ومَنْ قال أنني أريد الطلاق الآن؟

فقال لها سالم متعجبا وقد خارت قواه:

— هل أنتِ صادقة فيما تقولين؟

فقبلته بوجهه قائلة:

— طبعاً يا سالم.. أنا مشتاقة لك جداً

سكت سالم قليلاً ثم اقترب منها وقال:

— وأنا أكثر

— إذن ما رأيك أن ندخل قليلاً أية حجرة لنكون وحدنا؟

خارت قواه أكثر وقال لها:

— سونيا ماذا تقول نور؟.. ستفهم كل شيء

— أنتَ زوجي حلاي يا سالم.. وأنا زوجتك مثلها تماماً

— معكِ حق

— إذن سأدخل المطبخ حتى تحبرها

ونادت سونيا على نور، فخرجت لها مسرعة فقالت لها:

— نور جئتُ لكم بعصير مانجو.. سأدخل المطبخ أصبه لنا

قالت نور:

— لكنني أعددتُ الشاي مع الكيك

فضحكتُ سونيا قائلة وهي تنظر إلى سالم:

— الشاي يحرق الدم.. سالم يحتاج مشروبا ينعشه ويقويه

وانصرفْتُ إلى المطبخ وتركتهما.. راح سالم يخبرها أنه يريد أن يختلي قليلا

بسونيا، فسألته باستغراب:

— لا أفهم قصدك

— افهمي يا نور.. لا تكوني دائما هكذا غبية.. زوج وزوجته يريدان

أن يختليا.. هل فهمتِ؟

— فهمتُ يا سالم.. هذا حقكما ولكن.....

وعند ذاك خرجتُ سونيا بأكواب عصير المانجو، فقطعا كلامهما،

وناولتهما سونيا العصير مع ابتسامة ودّ وحنان.. شربا العصير، وشربت

سونيا العصير وهم يتحدثون عن الأولاد، ثم وضع سالم يده على فمه

وتثائب كثيرا، ومثله نور، ثم راحا في نوم عميق، وكان آخر نومهما.

اتصلتُ سونيا بـيعقوب الأصفر بأن رنت عليه رنتين ثم أغلقتُ..

راحت تفرغ بقية العصير في حوض المطبخ ثم غسلت الأكواب جيدا
ووضعتها بمكانها على الرفّ.

وجاء يعقوب.. حمل سالم كمن يحمل وسادة كبيرة ممتلئة.. وضعه
على السرير، ثم عاد وحمل نور ووضعهما بجانبه.. خرج سريعا ناحية
لوحة مفاتيح الكهرباء.. ذهبْتُ سونيا وألقت عليهما نظرة ثم أزالتهما
البصمات من كل مكان.. أتمَّ يعقوب كل شيء خاص بالكهرباء بخبرة
عالية، ثم غادر الشيطان اللعين بصحبة الشيطانة اللعينة مكان جريمتها
في سرعة ومهارة دون أن يرياها أحدا.

ثلاث ساعات مرّت ثم رنَّ هاتفُ الشيطانة.. كان ياسين يخبرها وهو

يبكي:

— بابا مات

قالت وعلى فمها ابتسامة مريجة:

— ماذا تقول؟

— بابا مات

— مَنْ أخبرك؟

— زهرة أختي

— كيف؟

— ماس كهربائي.. احترقت شقة الهيجانة

فسألته:

— وزوجته نور.. أين كانت هي؟

— ماتت معه

تمَّ دفنُ بقايا الجثتين المحترقتين معا في قبر واحد، وكان الغجر قديما يدفنون موتاهم في منازلهم أو أمام خيامهم، وكانوا يحرقون العربة الخاصة بالمتوفى أو المنزل الذي أقام فيه أو هياكل شبيهة، بل إنَّ السيدات الغجريات كنَّ يُدفننَّ بعد الوفاة بكل الحُلِي الخاص بهنَّ إلا إذا كان للمتوفاة بنتٌ من صلبها ترث حليها، وبالطبع فإنَّ كل ذلك تغير حديثا بعد الاختلاط بالمدن والناس، لهذا صارت أملاك سالم رغم تواضعها لياسين وهايدي وزهرة وسونيا.

ولم يشك أحد مطلقا في أنَّ الحادث كان شيئا غير الماس الكهربائي.. كانت سونيا تسير بالجنازة ترتدي السواد الأشبه بسواد قلبها وضميرها، وبجانبيها أمها وعد تصرخ وتبكي وتغمزها أن تصنع صنيعها، وكان ياسين والبتتان في بكاء مستمر.. سيكون جميعا أبا ليس أباهم، ويشعرون باليتم بفقدان رجل لا يَمُتُ لأي منهم بصلة.. عاشوا الحسرة والأسى بسبب شيطانة تُدعى سونيا.

ولم يمض يومان حتى كانت سونيا تُنهي إجراءات الميراث.. وزَّعت ما تركه سالم.. لم تبخس زهرة حقها حسب الشرع والقانون.. عادلة هي تلك الشيطانة.. أخبرتها أنها لن تتخلى عنها.. محظوظة أمها نور، ماتت بعد أن تابت واهتدت إلى الطريق المستقيم، ومحظوظ سالم ذاك الرجل الذي رباها،

مات محترقا مخدوعا.. عاش حياته من أجل غيره.. عاش كثيرا من عمره
يطعم ثلاثة أفواه غريبة عنه تماما.. ما فعلته العجربة سونيا تنهد له الجبال
الرواسي.. قال ياسين يوما لها وهو يشعر تجاهها بغضبٍ شديد:

— أظنك الآن قد استرحتِ

رمقته بنظرة غضبٍ قائلة:

— أنا حزنتُ مثلك تماما

— أشك في ذلك

— ياسين.. لقد كان أبوك طيبا معي رغم كل شيء

— أبي مات وهو غاضب عليكِ

— ياسين.. اسكت

— عليك أن تستغفري ربك

— ياسين.. تأدب في الكلام معي

— عندما أراك أما صالحة سأأدب في الكلام معكِ

فصرخت فيه بغضب:

— ياسين.. ماذا تقصد؟

— أقصد عشيقك المجنون.. أشعر بالعار مما تفعلينه.. كيف كنتِ

تنامين مع رجلٍ وأنتِ على ذمة رجلٍ غيره؟.. لستِ فقط متسولة..

بل أنتِ زانية

وصفغته سونيا على وجهه وهي تقول:

— اخرس يا كلب.. المتسولة الزانية هي مَنْ تطعمك وتسقيك
وتعلمك في أغلى المدارس.. هل كنتَ تظن أن الملاليم التي يرسلها
لك سالم خلال كل شهر.. تكفى ثمن حذاء لك أو لهايدي؟

قال ياسين بغضبٍ شديد وهو يضع يده على وجهه:

— إياك أن تضربيني مرة ثانية.. لا تنسي أني تربية شوارع منشية
ناصر.. لا يغرك أننا الآن نعيش بالرحاب

— أنا مَنْ أسكنتك بالرحاب

— لا أريدها.. منشية ناصر كانت أفضل عندي

— كان يجب أن أتركك فيها لتعيش خارج حدود الزمن.. لكن اعلم
أنني قد أَرْجُعُكِ إليها إن تعاملتَ معي هكذا مرة ثانية
فنظر لها ياسين باشمزاز ثم قال:

— هيا هيا اذهبي إلى المجنون.. أخبريه أن زوجك قد مات
فقال بكل تحد:

— طبعاً سأذهب له.. أنا حرة.. وستزوج

فهز رأسه ثم قال وتركها داخلا إلى حجرته:

— لو كنتُ مكانه ما تزوجتكِ

— ماذا تقصد؟

لم يرد.. كان قد دخل حجرته وأغلقها عليه.

(١٤)

همسات عاشقة

ذهبتُ سونيا على الفور إلى شقتها مع أشرف بالحي السادس.. دخلتُ
من الباب.. كان أشرف نائماً فأيقظته.. قالت له:

— عندي مفاجأة سارة لكَ

جلس من رقدته وابتسم قائلاً:

— أخبريني أولاً.. لماذا غبتِ عني كل هذه الأيام؟

— السبب هو المفاجأة السارة

— ما هي المفاجأة؟

— سالم زوجي.. ماااات

نظر لها باستغراب.. قال:

— الله يرحمه.. لكن لماذا أراكِ فرحة لموته هكذا؟

— ألا تعرف سبب فرحتي؟.. أنتَ أيضاً لا بد أن تفرح مثلي

نهض من سريره.. اتجه ناحية زجاجة ماء وشرب، وهي تتابعه

بخطواتها حتى قال:

— أنا لا أفرح بموت أحديا سونيا

اقتربت منه وقالت:

— أشرف.. هل نسيّت أنك تريد أن تتزوجني؟

— بالطبع لم أنسَ

نظرت في عينه وسألته مباشرة:

— هل ما زلتَ تريد أن تتزوجني يا أشرف؟

أجاب مسرعا:

— طبعاً يا سونيا

— إذن هذا هو سبب فرحتي لموت سالم.. أننا ستزوج ليرتاح ضميرك

أمسك كتفها بيديه وضمها إليه وهو يقول:

— لكن لا يجب أن نفرح بموت أحديا سونيا.. هناك أشياء كثيرة

عندك يجب أن تتغير.. ولن أتوقف عن أن أغيرها يا حبيبتي

ذابت بين يديه وقالت له:

— يا حبيبي أنا ملك يديك.. اعتبرني قطعة عجين شكلها كما تريد..

ثم وضعها بفرنك وحدك لتسويها نارك.. ثم كُلّها كُلّها وحدك..

كُلّي لك يا أشرف

— ما هذا الكلام الجميل يا سونيا؟

— بين أحضانك أقول أحلى كلام

ضحك أشرف وهمس في أذنيها:

— أحبك

— أعشقتك

قالتها ثم دفعته فوق السرير وألقت بنفسها فوقه وهو يسألها:

— كيف مات سالم؟

فقالت بينما كانت تنزع ملابسه وملابسها:

— ليس الآن

ومرّت أيام العدة ثم عقدا زواجهما عقدا شرعيا عند مأذون دون حفل زفاف، وسافرا إلى العين السخنة أسبوعين سعيدين، ثم عادا من هناك لتعود إلى عملها في التسول، وذات يوم قال لها أشرف:

— لا أحب أن تعلمي في التسول.. لذلك أفكر أن أعود لعملي

وبدا عليها أنها فوجئت بكلامه فقالت باستغراب:

— أي عمل يا أشرف؟

— سونيا هل نسيت؟.. أنا دكتور.. طبيب قلب

— والله كنتُ نسيت

— لكنني لا أنسى عملي أبدا

فسألته في حزن غير ملامح وجهها:

— وبعد أن تعود لعملك.. هل ستعود إلى أولادك وزوجتك؟

فضحك وقال:

— سونيا ماذا تقولين؟ .. أنتِ الآن كل حياتي.. أنتِ مَنْ أعدتِ لي كامل اتزاني.. أنتِ عالجتِ كل صدماتي.. أنا لستُ جاحدا للجميل.. لقد ملأتِ شروخي بالذهب، فكيف أترككِ؟

فراحت تمشط له شعره الناعم وتقول:

— وماذا لو عادت لكِ زوجتكِ حنان نادمة أيها الشاعر؟ .. ألن تعود لها مِنْ أجل أولادكِ؟

قال لها وهو بشعر بغضب على حنان:

— سونيا.. قد عرفتِ أَنَّ الشيطانة حنان وإخوتي وأولادي أغلقوا البيت وهجروا مصر كلها

— أين ذهبوا؟

— سافروا إلى لندن

— ألن يعودوا ثانية؟

— لا أعرف

— ومن أين علمتِ ذلك؟

— علمته يا سونيا.. لا تسألي

— ألهذا تزوجتني؟

— ماذا تقصدين؟

— أقصد أنك عندما سألت عنهم... وعلمت أنهم سافروا.. فقدت

الأمل في الوصول إليهم.. فتزوجتني لأنه لم يبق لك غيري

فأمسك بيديها ورفعها إلى فمه وقبلها واحدة بعد الأخرى وهو يقول:

— ما رأيك أني علمتُ بسفرهم بعد زواجي منك؟

فابتسمت ابتسامة جميلة وادعة، وسرى في وجهها حمرة ساحرة،

وقالت له وقد طوقت رقبتة بيديها:

— يا حبيبي يا أشرف.. أنا أعشقتك.. آه لو تعلم ماذا فعلتُ من

أجلك.. وما زلتُ مستعدة أن أفعل كل شيء من أجلك

— شكرالك يا حبيبتني

وأخذته من يده، وأجلسته على مقعد وقاربت بين رجليه ثم جلست

عليها وطوقت عنقه وراحت تنقل قبلائها بين وجهه وعنقه وشفثته قائلة:

— لي عندك طلب وحيد يا حبيبي

— اطلبي يا حبيبتني

— أريدك أن تؤجل موضوع عودتك لعملك

— لِمَ؟

— أغار من المريضات اللاتي سيأتين لك فتضع يديك على قلوبهن

— سونيا هذا عملي.. مجرد عمل

قبلته قبلة خاطفة على فمه وقالت بدلال:

— أنتَ طيب قلب امرأة واحدة يا أشرف.. هي أنا.. سونيا المحروس

— أنتِ غيورة جدا يا سونيا المحروس

— جدا يا حبيبي.. وكيف لا أكون كذلك وأنتِ عشقي الوحيد؟

وابتسم أشرف وراح يمرر أصابعه على شفثيها وأنفها وهو يقول:

— لكنني كرجل لا أحب أن أجلس هكذا في البيت وأنتِ تُنفقين عليَّ

قالت له بعد قبلة أخرى بشفتيه:

— أشرف.. سأخبرك بشيء لا تعرفه عني

انتبه لها قائلاً بسرعة:

— خيراً.. تفضلي

— هل سمعتَ عن الغجر من قبل؟

— الغجر!!

— نعم الغجر

— نعم أظنني سمعتُ

— ماذا سمعتَ؟

— هم أشخاص كل حياتهم مشاكل.. حتى أن الناس عندما تريد أن

تسبَّ أحدا تقول له.. أنتَ إنسان عجري.. وتلك تصرفات غجر

— وماذا سمعتَ غير ذلك؟

— لا شيء

— هل تأذيتَ من أحد منهم؟

— لا أبدا.. الحمد لله

— هل تعرف أحدا منهم؟

— لا

نزلت من على رجليه وجلسْتُ على مقعد مقابل وقالت له:

— الناس ظلمتُ الغجر كثيرا يا أشرف.. كلمة الغجر ليست سُبَّةً..

إنما هي مسمى لمجموعات من الناس.. ليسوا كلهم مثيرين

للمشاكل.. إنهم ككل أنواع البشر.. منهم السوي ومنهم غير

السوي.. منهم الشرير ومنهم غير الشرير

وكان أشرف يسمعها باهتمام شديد معجبا من طريقة كلامها،

ومتعجبا من اهتمامها بالحديث عن هؤلاء الناس والدفاع عنهم.. سألتها:

— والله معكِ حق.. لكن لماذا تقولين لي هذا الكلام يا سونيا؟

ضحكت وقالت:

— في عادات الغجر.. تخرج المرأة للعمل.. ويبقى الزوج غالبا في البيت

— فهمتكِ فهمتكِ.. لكن لا تحاولي.. سأخرج للعمل.. هذا عند

الغجر.. أنا لستُ غجريا.. وأنتِ كذلك.. لستِ غجرية....

قاطعته سونيا المحروس قائلة:

— دكتور أشرف يا حبيبي.. لم أخبركِ من قبل بحقيقة أصلي

— ما حقيقة أصلك؟

— أنا غجرية

فانخرط أشرف في ضحك متواصل، وسونيا تنظر له في توجس تنتظر
رد فعله عندما يتوقف عن الضحك، وتوقف بالفعل، فوقف وأمسك
بيديها وهو يصيح:

— يا الله زوجتي امرأة غجرية.. أحمذك يارب

وحملها إلى السرير، وألقاها فوقه وراح ينزع عنها ملابسها وهي
مذهولة من رد فعله، سعيدة بذلك وتردد:

— أحبك.. أحبك.. أعشقتك.. أعشقتك

وهمس في أذنها:

— وماذا في ذلك يا حبيبتي؟.. كونك غجرية جعلني أحب كل

الغجر.. ما أجملهم جميعا إن كانوا مثلك أيتها الساحرة الطيبة

— أشرف انتظر انتظر.. منهم هؤلاء وهؤلاء.. ككل الناس

— لكنني أحب كل الغجر

— لِمَ؟

— لأنك منهم

فقبلته بشفتيه قبله طويلا ثم سأله:

— هل ستخرج للعمل يا حبيبي؟

— بالطبع سأخرج لا تحاولي.. فأنا أريد أن أعمل لأنفق عليك
— طالما أنت مصمم على ذلك.. فأنا أوافقك يا حبيبي لكن فلتؤجل
هذا الموضوع الآن.. أخاف عليك من مواجهتك للناس وأنت ما
زلت تتعافى

ومرّت سنوات بعد ذلك اليوم دون أن يعود أشرف لعمله كطبيب..
كانت سونيا في كل إصرار منه على العودة للعمل تجد أكثر من طريقة
لتأجيل ذلك.. وما أكثر طرقها الملتوية من أجل أن تحتفظ به لنفسها فقط
بعيدا عن كل العيون !

لقد كتب الله على سونيا أن تعيش عشقين، أولهما لرجل غريب هو
أشرف الذي صار زوجها، وثانيهما لابنتها هايدي التي صارت تدير
خططها وشرورها على نحو تكون هايدي فيه هي الملكة بدلا منها،
وبالطبع هي لا تنسى الغرس القديم في حديقة الثراء، بدر ابنها.. قطعاً
هي تحبه، لكنها تحرص على ألا تنبش عنه في داخلها حتى لا تضعف
فتراجع، فتجذبه إلي حضنها قبل أن تُنضج النار الشواء.

قالت لها حبيبته هايدي أثناء تناول طعام الغداء:

- أخيرا رأيناك يا ماما
- أنا مشغولة يا حبيبي
- أخشى أن تنسي حفل تخرج ياسين.. إنه قريب

فقال ياسين بنبرة ساخرة:

— أساسا ياسين ليس على بال أملك نهائيا

نظرتُ سونيا له ثم لهايدي وقالت:

— ألا تعرفان أني أعمل ليلا ونهارا من أجلكما؟

قالت هايدي بعرفانٍ وحنان:

— ربنا يعينك يا ماما

وأسرع ياسين بطريقة فيها كثير من الاحتقار يقول:

— أنتِ لا تعملين لنا وحدنا.. بل من أجل المجنون العاقل أيضا

قالت بصوت هادىء:

— اسكت يا ياسين.. فأنتَ لا تعرف حقيقة هذا المجنون العاقل

قالت هايدي:

— أخبرينا أنتِ يا أمي عن حقيقته

— لقد علمتكما في أحسن المدارس وأدخلتكما أحسن الكليات..

لتحصلا على شهادة عالية مثله

ضحك ياسين وهز رأسه ثم وجه كلامه لهايدي:

— أملك تعلمنا لنكون مجنونين عاطلين تُنفق علينا امرأة

رمقته بنظرة غضب قائمة:

— المجنون العاقل هذا اسمه الدكتور أشرف.. طبيب قلب

وضحك ياسين بصوتٍ عالٍ ضحكاتٍ متقطعة في حين طلبتُ منه
هايدي أن يتوقف لتكمل أمها:

— ياسين انتظر.. هل المجنون هذا كان طبيباً يا ماما؟

— نعم يا حبيبتي.. وبإمكانه أن يعود إلى عمله في أي وقت
سألتها هايدي:

— ولماذا لا يعود؟

— أريده أولاً أن يتعافى تماماً ثم يعود وينخرط وسط الناس
فعاد ياسين وضحك قائلاً:

— أنا لا أصدق ذلك.. أمك تغار عليه يا هايدي.. النساء ستخطفه منها
ثم وجه كلامه إلى سونيا قائلاً:

— احفظيه في الثلاجة.. ليكون لكٍ وحدك.. ثم أخرجني منه قطعة
قطعة حسب الطلب

وصرختُ فيه سونيا متجهة ناحيته لتضربه:

— ياسين يا كلب.. اخرس

— تشتميني وتريدون ضربي من أجل مجنون؟!

— أنت زودتها كثيراً.. لم أعد أحتملك

ونفضتُ هايدي تحجز بينهما وهي تقول لأُمها:

— ماما.. لا تغضبي منه.. إنه يمزح

وتركتها سونيا وهي في قمة غضبها على ياسين عائدة إلى الحي السادس حيث حببها الدكتور أشرف، لكنها في الطريق قررت أن تنعطف قليلا على الحديقة الدولية ثم مكان عملها بإشارة التسول.

كانت قد طلبت من يعقوب الأصفر عدم مغادرة مكانه ليسهل عثورها عليه كلما أرادته.. لم ترد أن يكون الاتصال بينهما تليفونيا إلا اضطرارا وعلى خطوط مختلفة ليست باسمها، وتغيرها تكرارا حرصا منها ألا يتبع أحد مكالماتها.. كانت حذرة جدا لكل خطوة تحطوها في طريق الشر، لا تترك وراءها ذرة خيط قد يقود إليها.. يقولون: «ليس هناك جريمة كاملة»، لكنني أقول: «بل هناك جريمة كاملة إن كانت الجريمة سونيا المحروس»

لم تجد يعقوب في المكان المعهود بجانب سور الحديقة الدولية، فغضبت لذلك كثيرا، ذهبت لمكان العمل، فاطمأنت من بعيد على سيره كما تريد، ثم أكملت إلى الحي السادس، وقبل الصعود لشقة العشق اتصلت بيعقوب.. جاءها صوته قائلاً:

— حبيبتي سونيا.. انتظرتك كثيرا هناك.. لم أسمع صوتك منذ فترة قالت له بغضب:

— يعقوب.. لا تناديني بحبيبتك مرة ثانية

— كما تريدين.. سأناديك بمعلمتي.. هل يروق لك ذلك؟.. يا لحظ الدكتور أشرف!

- الدكتور أشرف هو زوجي يا يعقوب.. ألم يخبركَ أشرف بذلك؟
- بلى أخبرني يا معلمتي.. أنا أقابله كثيرا بين وقت وآخر
- أعرف ذلك.. أشرف يخبرني.. الأهم أين أنتَ الآن؟
- في الدنيا الضيقة
- كُنْ في أي مكان.. ما يهمني أن تكون في المكان المعهود مساء الغد
- هل هي مهمة جديدة؟
- أجل
- ما نوعها؟
- مهمة قتل
- مَنْ؟
- ابني

(١٥) المفاجأة

كانت المهمة قتل ياسين، لكن حدث شيء لم يكن في الحسبان أبداً حتى لسونيا.. كانت كُلية ياسين قد أعدت حفل التخرج في وقت سابق لموعده في كل عام.. حضر أولياء الأمور.. وبالطبع فإن ياسين وبدر في كلية واحدة كما حرصتُ على ذلك سونيا من البداية.

ارتدتُ سونيا ثياب الهوانم الثريات الراقيات.. نزلت من سيارتها الجليب الفاخرة.. تتأبط ذراع زوجها طبيب القلب الدكتور أشرف الأمير.. في قاعة الحفل نظرتُ له ابتهاهايدي نظرات إعجاب وتقدير جديدين عليها نحوه، فالرجل زوج أمها طبيبٌ أنيق، يسير في وقار وهيبة تملأ القلوب إعجاباً به.. إنه يبدو كنجوم السينما الأمريكية.. تابعته نظرات صديقاتها مأخوذاتٍ به.. سألتها صديقة:

— مَنْ هذا الرجل الوسيم الذي تشبثتُ أمك بذراعه؟

ابتسمتُ وقالت بكل فخر كاذبة عليها:

— إنه أبي

قالت ثانية :

— والو.. لم أكن أعلم أنَّ لكِ أبا بهذه الأناقة

سألتهِا ثالثة:

— ماذا يعمل؟

أجابت بنبرة تحمل قمة الفخر:

— إنه طبيب قلوب

وضعتُ واحدةٍ من الصديقات يدها على قلبها، وصرختُ مازحة:

— قلبي قلبي.. أرجوكِ يا هايدي.. قلبي يؤمني.. اطلبي من والدك
أن يكشف على قلبي

ابتسمتُ هايدي وأشارت على أمها قائلة:

— اذهبي إلى أمي واطلبي منها ذلك.. صدقيني قد تفتلك

وأقبل ياسين تجاه الدكتور أشرف.. نظر له فرأى أناقته الظاهرة،
ورأى الإعجاب به بأديا على وجوه الفتيات وأولهن أخته هايدي،
وسمعهن يتحدثن لهايدي على أنه أبوهما، فأعجبه ذلك فقط على سبيل
الزهو والتفاخر به لا على سبيل التودد والتعجب.. اقترب منه بوجه
مبتسم، وألقى عليه سلاما أرضى عنه سونيا كثيرا بعد أن كانت غاضبة
عليه.. قال ياسين بحال غير الحال الغاضبة دائما:

— أهلا يا دكتور أشرف.. شرفت الكلية

قال له الدكتور أشرف:

— أهلاً بك يا ياسين.. ألف مبروك

— الله يبارك في حضرتك

ثم نظر ياسين لسونيا وقال ووجهه في الأرض:

— شرفت الكلية يا ماما

— مبروك يا حبيبي

وأوشكت المقاعد أن تمتلئ عن آخرها بأولياء الأمور.. حرصت سونيا على أن تجلس في الصفوف الأخيرة المنزوية.. هي تعرف أن المرأة الثرية مهندسة الديكور أحلام المصري قطعاً لا بد أن تحضر بصحبة زوجها المهندس معتصم شرف الدين ليريا بدر في حفل التخرج.. تعمدت أن تُخفي نفسها عنهما.. فقط أرادت أن تراهما من حيث لا يريانهما، فلم يحن الألوان بعد لأن تخرج قاطعة الطريق إلى طريقهم لتبدأ جني الثمرات من غرس السنين.

وبالفعل جاءت مهندسة الديكور أحلام بصحبة زوجها المهندس معتصم وخلفهما كانت ابنتهما يارا.. رأتهم سونيا من بعيد، فراحت تتابعهم، ثم دارت بعينيها تبحث عن ابنها بدر.. وللحق فقد اشتاقت كثيراً لأن تراه.. إنه ابنها وهي تراه بين وقت وآخر من بعيد دون أن ينتبه لها، وقد حرصت على حضور هذا اليوم ليس من أجل ياسين كما هو الظاهر، إنما أرادت أن تمتع نفسها برؤية ابن بطنها بدر في حفل تخرجه من

الجامعة.. بالطبع ياسين لا يهتمها في شيء رغم تأدبه الأخير معها، حتى إنَّ هذا الاهتمام والحب اللذين شعرت بهما ناحيته في بعض الأحيان قد ذبلت أوراقتها مع كل كلمة إساءة منه لها أو لأشرف.. صارت لا تطيقه حقاً للدرجة التي جعلتها تفكر للحظة طارئة أن تذهب لأحلام لتخبرها قائلة:

(خذي ابنك.. أعطني ابني)

لكنها إن فعلت ذلك فقد أضاعت صبر السنين، ودهست بغضبها العشب الأخضر والشجر الموشك على الإثمار.. إن طموحها الكبير على وشك أن تعطي قمته.. صارت قريبة جداً من أن تحول حلم الثراء إلى واقع أروع من الحلم ذاته.. لا بد أن تصبر حتى يُنهي يعقوب مهمته.. الثروة كلها يجب أن تكون لبدر وهايدي ولها مع أشرف بأية طريقة.. فصبرا قليلا يا ياسين.

ظهر ابنها بدر لها بين مجموعة من زملائه.. نظرت له بكل لهفة وحب.. يبدو أن حبها لرجل قد حرّك معه مشاعر أنواع الحب الأخرى، ومنها الحب لابنها الذي كان بالنسبة لها غالبا لا شيء غير غرس ثمين في أرض ذهبية ثمينة تدخره للأيام.

وكان ياسين يقف بجوار ابنها بدر بين مجموعة من الزملاء، لكن عينيها لم تر غير بدر، ولم تثبت إلا عليه، لكن هناك بالقاعة بين الجلوس في الصفوف الأمامية عينين أخريين لامرأة أخرى كانت لا تفارق ياسين، إنها عينا أمه الحقيقية المهندسة أحلام المصري.

كانت أحلام تتابع ياسين بعينها رغما عنها أينما ذهب، شعرت معه بإحساس غريب جميل لم تشعر به من قبل إلا مرة واحدة سابقة، راحت تحاول تذكر هذه المرة السابقة، ثم عادت ولامت نفسها على انشغالها بغير بدر.. كيف تتركه وتتابع زميلا له؟.. إنها قد جاءت من أجل بدر لا من أجل ياسين، لكنها لم تستطع أن تمنع ذهنها من أن يدور حول ياسين.. فجأة تذكرت شيئا حدث لها منذ سنوات عندما نزلت من السيارة لتجري تحت المطر نحو الطفل المتسول بالإشارة، يومها سألته عن اسمه وأعطته نقودا كثيرة وجاكت بدر.. تذكرت أن الطفل كان اسمه ياسين.

يبدو أن مراسم الاحتفال بالتخرج قد بدأت.. جلس الطلاب بمقاعدهم المخصصة لهم.. راحت أحلام المصري من مكانها ترسل عينها حيث يجلس ياسين.. تفاجأت بأن وجدته يتحدث إلى بدر ويتضحكان.. فرحت لذلك كثيرا، قررت في نفسها أن تسأل بدر عن كل شيء عنه، كما قررت أن تطلب من بدر أن يطلب من ياسين أن يزوره في فيلتهم.

(لكن هل هناك صلة بين هذا الشاب الجامعي والطفل المتسول؟.. هل يكونان نفس الشخص؟.. وإن كانا نفس الشخص فما الذي يجعلني أتعلق به هكذا؟ ماذا لو علم زوجي الجالس بجواري أن كل عقلي مع شاب في سن ابننا بدر؟.. ماذا يحدث لك يا أحلام؟)

هذا ما حدثت به أحلام نفسها، وتلك أفكار كثيرة كانت تحتاحها.. ظلت تفكر في كل ذلك بسبب نفس الشعور الواحد عندما رأت هذا

وذاك، ثم طردت ذلك الفكر عنها عندما سألت نفسها سؤالاً تراها وجيهاً..
ما الذي يوصل طفلاً فقيراً متسولاً لأن يتعلم في أغلى الجامعات وأرقاها؟
ووقف رجل جهوري الصوت يرفع صوته بأسماء الطلاب للصعود
لمنصة الاحتفال واحداً بعد الآخر.. نطق الرجل اسم بدر معتمص شرف
الدين، فصعد سريعاً تتبعه نظراتُ امرأتين: الأولى أمه الحقيقية سونيا
الخادمة التي لا تفارقه عيناها للدرجة التي لفتت انتباه زوجها الدكتور
أشرف وابتنتها هايدي، والثانية أمه المخدوعة التي ربهت والتي تنقل عينيها
ما بينه وبين ياسين الزميل الآخر له.

ومرَّ وقت قصير ثم نطق الرجل اسم ياسين سالم السعدي، فأنجبه
ياسين من مقعده مسرعاً وصاعداً تلك الدرجات القليلة حتى اصطفَّ
في صفوف الطلاب.. وقفتُ المهندسة أحلام وهي تضع يدها على فمها
وتردد ذاهلة: (ياسين.. ياسين).. لقد جاهدتُ قلبها لتمنع نفسها من أن
تصعد خلفه إلى المنصة كما فعلتها من قبل تحت المطر.

ومرَّ وقت قصير آخر، ثم نزل الطلاب من المنصة إلى ذويهم.. وعين
سونيا تتبع بدر الذي ذهب ليرتمي بين أحضان المهندسة أحلام التي تتابع
بعينيها ياسين الذي ذهب ليقف مع أخته هايدي جانبا قريباً من الصفوف
الأمامية بعيداً عن أمها سونيا وزوجها الدكتور.

وتعمدتُ المهندسة أحلام أن تتنقل بعينيها مع ياسين حتى يصل لأمه
لترأها من باب الفضول، لكن العلاقة بين ياسين وسونيا ليست بهذا

الصفاء ليذهب إلى أحضانها.. استمر واقفا بعيدا عن سونيا يتحدث إلى أخته هايدي، لكن شيئا غريبا حدث كان مفاجأة غير متوقعة لأحلام، وأيضا مفاجأة غير متوقعة لسونيا.. كانت يارا تقف بين أمها أحلام وأبيها معتصم، فاستأذنت منها قائلة لها:

— مامي بابي.. أستأذنكما.. سأذهب لأسلم على زميلة لي

أشارت أحلام برأسها ليارا أن تذهب، لم تتبعها بعينها لترى أين تذهب ابنتها لأن عينيها كانتا مشغولتين راكزتين مع ياسين، لكن الابنة يارا ذهبت حيث ركزت عينا الأم.. ذهبت حيث يقف ياسين.. سلمت على هايدي ثم سلمت على ياسين ثم تركتهما هايدي.. ظل الشاب ياسين والفتاة يارا يتحدثان كعاشقين تحت رعاية عيني أمهما أحلام.. يا الله!! ماذا يحدث؟.. إنها قد صارا عاشقين، وهما في الأصل أخ وأخت، ولا يعلم ذلك أحد في هذه القاعة الواسعة كلها إلا امرأة واحدة هي سونيا.

لكن إلى أين انصرفت هايدي عندما تركت ياسين ويارا؟.. انصرفت إلى حيث يقف بدر بجوار المهندسة أحلام وأبيه المهندس معتصم.. أرادت أن يراها بدر.. رآها بدر فأسرع ناحيتها، وكانت عينا أمه الحقيقية بالطبع راكزة عليه تتابعه.. وأنه متبها ناحية ابنتها هايدي.. وقف عندها.. سلم عليها ووقفا يتحدثان كعاشقين تحت رعاية عيني أمهما سونيا.. يا الله!! ماذا يحدث؟.. إنها أيضا قد صارا عاشقين، وهما في الأصل أخ وأخت، ولا يعلم ذلك أحد في هذه القاعة الواسعة كلها إلا امرأة واحدة هي سونيا.

ما هذا؟.. كيف حدث ذلك؟.. لم يكن هذا العشق بالطبع من تدبير
سونيا خادمة الشيطان، لم تعتمد أن يصل الشباب ويضلوا في هذه الدائرة
المحرمة في طريقها للوصول إلى حُلْم الثراء.. فهل سيجعلها ذلك تتراجع
عن قتل ياسين أو تؤجله إلى حين آخر؟

كان مخطط سونيا الشيطاني منذ البداية قائما على عدم وجود سالم
بالحياة حين خروجها لطريق جني الثمار، وهذا قد حدث عندما عجّل
سالم نهايته بعناذه ممتنعا عن طلاقها، وعَلَقَتْ معه نور التائبية، ثم تأتي نهاية
الزوجين الثريين معتمصم وأحلام معا على يديها مرة واحدة في وقت معين
بعد أن يصل بدر إلى درجة النضج والسن الذي لا يكون هناك وصيا
عليه في أملاك أبيه معتمصم تفاديا لتدخل الطامعين المتربصين مدحت
ونرمين، وفي الوقت الذي يرث فيه بدر كل شيء يأتي الدور على ياسين
ليغادر الحياة، فلا يمكن أن يقف صامتا دون أن يسأل ويفهم حين انتقال
سونيا وهايدي إلى بدر حيث الثراء والقصور، وبعد أن يموت ياسين
تخرج سونيا إلى طريق بدر، فتذهب له بعد انقضاء حزنها على فقيدتها
ياسين، وانقضاء حزن بدر على فقيدته الأبوين الثريين.. تقف أمامه باكية
حاملة له السر الدفين الذي عاشت المسكينة وحدها معه دون أن تخبره
رفقا به، ثم تجلس أمامه تائبة راجية منه أن يسامحها قبل أن تموت، وهي
لم تخبره عن نفسها بعد: مَنْ تكون؟.. مجرد بكاء وعويل ومظاهر نفس
تائبة.. وهنا يسألها بدر حتما: (مَنْ أَنْتِ) فتقول سونيا بكل براءة وهدوء:

(أنا أملك الحقيقة).. سيُصاب الابن بالذهول ويسارع يسألها: (كيف؟)، فتخبره بالحقيقة كاملة على الوجه الذي يظهرها ملاكا رغم خطيئتها الوحيدة، وستؤكد أنها فعلت ذلك التبديل من أجل ألا يعيش حياتها الفقيرة المتشردة، وإن أراد أن يستوثق فعليه أن يجرى كل التحليلات التي ستؤكد له أنه ابنها وابن معتمضم معا، أما عن يارا اليتيمة، فهي أخته من أبيه ولها نصيبها من الثروة، وأما هايدي الجميلة، فهي أخته أيضا من سونيا، ويجب أن يكون لها نصيب.. أما ياسين.. فرحمة الله على ياسين الذي أحبته كابنها وربته وعلمته في أحسن المدارس والجامعات دون أي تقصير، ثم اختطفه الموت منها في حادث أليم.

كانت تلك خطتها الأولى، لكن ما حدث يوم حفل التخرج كان أشبه بسائل مُزِيل قد سُكِبَ قدرا على كل الكلمات بصفحات خطتها اللعينة، فما بقى منها كلمة واحدة حتى جعلها والعدم سواء، وعليها أن تخط ببديها ونفسها الشريرة سطور خطة بديلة أكثر لعنة من جديد، يكون ياسين فيه حيا. لكن ما الذي حدث يوم حفل التخرج؟.. ما حدث هو أن الشيطانة سونيا قد رأت بعينها النظرات العاشقة ما بين ياسين وأخته يارا من أب واحد هو المهندس معتمضم وأم واحدة هي أحلام المصري، كما رأت بعينها نظرات عاشقة أخرى بين ابنها بدر وأخته هايدي من أم واحدة هي سونيا، وإن كان الأبوان مختلفين، الولد من معتمضم شرف الدين والبنت من تامر الغمراوي.

فهل هذا يجعلها تراجع عن قتل ياسين؟... بالطبع سترجع لتتيح لنفسها التفكير جيدا في تعديل مسار مكرها وخططها الشيطانية، فربما تحتاج ياسين في خطتها الجديدة.

لقد كانت هناك مخاطرة كبيرة بوجود يارا في خطتها الأولى، فيارا مصيرها حتما للزواج ذات يوم، ومنْ يديرها ألا يكون زوج يارا القادم شخصا طامعا ما كرا يكدر صفو حياة ابنها بدر؟.. فإنْ ظهر أنَّ يارا تحب ياسين، وياسين يحب يارا، فلا بأس أن يتزوجا ليقى المال بين كفيها.. في النهاية ياسين هو ابنها كما يظن، فإن كان غاضبا منها لفترة فيمكنها أن تُزيل غضبه بكلمة، وها هو قد وقف أمامها بالنهاية معذرا.

وإنها أيضا في خطتها الأولى عندما قررت قتل ياسين قررت ذلك لأنها كانت تنوي إخبار ابنها بدر بقصة التبديل، وهذا لا شك سيجعل ياسين يقتلها إنْ علم، وكان من الوارد أنْ يعلم، لكن في خطتها الجديدة التي ما زالت تديرها بداخلها لن تلجأ إلى أي اعتراف، وهذا أفضل، خاصة أنها كانت تتخوف من ألا يصدقها بدر، أو ألا يسامحها أبدا.

ولهذا فقد كان ما حدث يوم حفل التخرج شيئا مريحا لها.. دورها الجديد في الخطة الجديدة هو فقط مشاهدة المباراة من بعيد.. لن تكلفها الخطة الجديدة عناء الركض والجري والوقوع والنهوض أو الإصابة داخل مستطيل الملعب.. لم تعد بحاجة إلى أنْ تذهب لبدر باكية تائبة، ولم تعد بحاجة لقتل ياسين، فليبق ياسين ليارا زوجها يرث معها ما يتبقى من بدر،

وليسقَ لهايدي أخوا لا يعاني قلبها الصغير فقده، وأما زواج بدر وهايدي، فهذا ما يجب أن تفكر بشأنه بعض الوقت، لكنها مع كل الاحتمالات ستكون بحاجة ماسة إلى إنهاء حياة اثنين، هما المهندس معتصم وزوجته. كل ذلك أدارته في عقلها عندما رأت بعينها مظاهر العشق الحرام.. قررت خلال دقائق تغيير خطة السنين لخطة بديلة لم تسطر بعد كل صفحاتها على الوجه النهائي، فربما يجدُ جديدٌ آخر، لذلك فقد حرصت أن تنسحب على الفور بعيدا عن عين أحلام وزوجها معتصم حتى لا يريانها في الحفل.. الخطوط الأولية لخطتها الجديدة تحتم عليها أن تعود فتختفى عنهما لوقت آخر، كما حتمتُ عليها أن تترك ياسين ليعيش حيناً من الزمن، لذا كان أول شيء فعلته عند الخروج باتجاه سيارتها أن مالت بنفسها جانبا لتجربِ اتصالا واجبا بيعقوب الأصفر تجربه أنها أجَلَّتْ المهمة.

أما المهندسة أحلام فقد فرحت كثيرا الرؤية ابنتها يارا تتحدث بشغفٍ إلى ياسين.. دخلت عليها حجرتها، ثم جلست بجانبها على السرير.. سألتها بحب وحنان:

— يارا يا حبيتي.. من هذا الشاب الوسيم الذي كنتِ تقفين معه في قاعة الحفل؟

رفعت يارا عينها لها ثم قالت:

— هل رأيتنا؟

— نعم.. ورأيتُ نظراتكما لبعضكما

فاحمرَّ وجهُ يارا خجلاً ثم قالت:

— اسمه ياسين سالم السعدي.. زميل أخي بدر.. وأخته هايدي
زميلتي.. وبدر أيضاً.....

ولم تُكمل يارا، فقالت أمها باسمه:

— أكمل ي يارا

— لا.. اسألي بدر

ضحكتُ الأم قائلة:

— أنا أعرف.. بدر وهايدي مثلكما أنتِ وياسين

نظرتُ يارا لها ثم قالت:

— هل ستخبري بابي بذلك؟

— وَلِمَ لا نخبره؟.. أبوكما رجل متحضر.. لسنا رجعيين.. وقد
ربيناكما تربية مختلفة

وسكتتُ يارا عن الكلام، فسألتها أمها:

— احكِ لي عن ياسين

— ياسين شاب محترم يسكن في الرحاب.. أمه سيدة أعمال.. تزوجتُ
بعد أبيه من طبيب قلب مشهور.. فأبوه قد مات منذ سنوات قليلة

فقالت أمها في حزن:

— حبيبي يا ابني

وأسعد يارا اهتمام أمها الزائد بياسين، ثم سألتها الأم أحلام سؤالاً لا يشغلها بسبب ربطها بين ياسين الشاب وهذا وياسين الطفل المتسول:

— يارا.. أين كان ياسين يعيش قبل أن يسكن في الرحاب؟

— لا أعرف يا مامي

فسكتت المهندسة أحلام لحظة ثم راحت تسألها:

— هل كان معكما في نفس المدرسة؟

— لقد جاء إلى مدرستنا من أول المرحلة الثانوية.. لم نره أو نر أخته هايدي قبل ذلك

سكتت الأم فسألتها يارا:

— لماذا كل هذه الأسئلة يا مامي؟

— حبيبتي يجب أن أعرف كل شيء عن أصحابك وأصحاب أخيك

— اطمئني يا مامي

وذهبت الأم أحلام إلى بدر في حجرته وسألته عن ياسين فأخبرها أنه صديقه منذ أيام المدرسة الثانوية، ولا يعرف عنه غير ما تعرفه يارا.. سألتها عن هايدي قائلة:

— وهايدي؟.. هل تحبها؟

ابتسم بدر وقال:

- نعم يا مامي أحبها
- هل تريد أن نخطبها لك؟
- طبعا أتمنى ذلك يا مامي.. لكن متى؟
- اطمئن يا حبيبي.. فقط نريد التعرف عليها وعلى ياسين أكثر
- هايدي بنت جميلة جدا وطيبة ومثقفة
- وسكتت الأم قليلا ثم قالت:
- بدر.. ما رأيك في ياسين؟.. من الواضح أن أختك تحبه
- بالنسبة لي كصديق هو شخص جيد.. وأنا طبعا أعرف أن يارا تحبه ولا أعترض عليه في شيء
- وهايدي بالنسبة لك.. هل تراها مناسبة كزوجة؟
- فابتسم بدر ثم قال بجرأة:
- أجل يا مامي
- ما يهمني الآن أهلها يا بدر.. وأيضا الماضي الغامض لهما.. خاصة ياسين بالنسبة لي
- ولم ياسين على وجه الخصوص؟
- لم تجب على سؤاله هذا، إنما سكنت قليلا ثم سألت:
- ألا تراه يشبهك كثيرا يا بدر؟
- بلى يشبهني كثيرا.. زملاؤنا يظنوننا أخوين

سكتت الأم ثانية لفترة ثم قالت:

— لا أعرف ماذا أقول يا بدر.. لكن ياسين هذا فيه شيء غريب

— مامي.. ماذا تقصدين؟

— هل رأيت أباه؟

— لم أره أبدا.. أبوه مات من سنين.. زوج أمه الآن طبيب

— أعرف ذلك.. أخبرني يارا

— بإمكانك أن تتعرفي على أمهما

— معك حق.. يجب أن أتعرف على أم ياسين

(١٦)

زيارة مؤلمة

في نفس الوقت الذي ظلت فيه الأم الحنون أحلام المصري ساهرة تفكر كيف تجمع بين القلوب العاشقة، كان هناك شيطانة لم تنم ليلتها، ساهرة هي الأخرى تقلب خطتها الجديدة على كل الوجوه.. ياسين يحب أخته يارا.. وبدر يحب أخته هايدي.. نعم تلك هي الحقيقة المقلقة والمؤلة للضمير.

وإنها لم تقلق بسبب ما رآته بعينها من تجانس القلوب العاشقة عشقا حراما لأنهم جميعا أخوة مقبلون على الزواج بما يخالف شرع الله، بل كان قلقها بسبب تحول مسار خططها الدنيئة.

سهرت الليل كله تحسب كل أمورها، ومع أول صوت لبائع الفول بعد الفجر في الحي الشعبي كانت قد حسمت كل أمورها.. توصلت إلى قرار شيطاني.. ستترك كل شيء يمضي كما يريد العاشقون، فقد وجدت في ذلك أكبر ضمان لأن تكون الثروة كلها في النهاية بين يديها ويد الذين تحبهم من التابعين لها، ثم لماذا تكون هي العذول الذي يفرق بين المتحابين؟

وماذا إن منعْتُ زواج الأخوة لتسلك طريقها الأول مع خطتها الأولى؟.. في نهايته ستكون الأملاك لابنها بدر الذي لا بد أن يتزوج يوما من امرأة غريبة غير مضمونة الجانب تشاركه في ثروته.. وفي نفس النهاية ستتزوج ابنتها هايدي أيضا من رجل غريب غير مضمون الجانب يشاركها في ثروتها التي قد تشارك أخاها بدر فيها.. فلتكوني عاقلة أيتها الأم سونيا وقاسية القلب وخالية من كل رادع وميتة الضمير، ولتكوني شاذة التفكير.. لتجمعي الثروة كلها في يد ابنك وابنتك معا كزوجين، ولتكوني رحيمة أيضا.. فلتعطفي على ياسين ويارا ابني المهندس الذي عاشرك كثيرا في الحرام لأيام متتابة والمهندسة المخدوعة التي آوتكِ في بيتها شهورا كخادمة، فإن استقاما فوق طريق شيطانك كان بها، وإن انحرفا يوما فيعقوب الأصفر موجود لمن ينحرف منها بالمرصاد.

هذا ما حسمت إليه الشيطانة الماكرة كل أمورها وخططها الشيطانية القادمة دون أي رادع أو خوف من قوانين البشر المتغيرة أو شرع الإله الثابت.. فما هذا الشر الجامح!.. حقا والله مهما بحث إبليس اللعين بين ركاب العاصين والمذنبين عمن يخدم شروره إلى هذا الحد ما وجد طاعة مثل ما وجدها من تلك الشيطانة اللعينة، سونيا المحروس.

لكن كان هناك العثرتان الأكيدتان أمام سونيا خادمة إبليس، هما المهندسة أحلام وزوجها المهندس معتصم.. عليها أن تلتقي بيعقوب الأصفر لتُنهي أمرهما سرّيعا، لكن ماذا لو تقارب ياسين وهايدي مع

أصحاب الفيلا الثرية دون علمها قبل أن يتحرك يعقوب الأصفر؟..
وماذا لو تمادى ياسين وهايدي معهم بنية حسنة صادقة فأخبراهم عن
الأصل المعيب لهما؟ ماذا لو تمَّ نبش الماضي رجوعاً إلى الجذور.. ماذا لو
قاد الكلام والتعارف بأي شكل وطريق بين الجميع إلى سونيا الخادمة
القديمة في فيلتهم الثرية؟.. لا بد من التحرك سريعاً.. لا بد من
يعقوب الأصفر.. لكن قبل كل ذلك لا بد من زيارة سريعة لياسين
وهايدي في الرحاب.

دخلت سونيا شقة الرحاب عليهما بوجهٍ جديدٍ محبٍ وملابسٍ جديدة
جميلة مع لسانٍ حلو، وكثير من الرفق والحنان تصبه صدقا لهايدي وتصنعا
لياسين.. سألتها ياسين باستغراب:

— ما سبب كل هذا الرضا؟

ضحكت سونيا وقالت:

— أم تأتي لأولادها بهدايا.. لا يحتاج ذلك إلى استغراب

سألتها هايدي باهتمام:

— لماذا لم يأت معك الدكتور أشرف؟

— ياسين لا يحبه

أسرع ياسين يقول:

— كان هذا في الماضي قبل حفل التخرج.. شعوري تجاهه تغير
كثيراً.. لقد ظلمته

ففرحت سونيا كثيرا بكلامهما، وأقبلت عليهما تحتضنهما ثم قالت:

— أريد أن أحدثكما في موضوع مهم لكما

نظرا لبعضهما في صمتٍ ثم قالت هايدي لأُمها:

— خير يا ماما

نظرتُ سونيا لياسين وقالت:

— يوم الحفل.. لاحظتك يا ياسين تقف وتنظر نظرات معينة إلى بنت

جميلة.....

أسرع ياسين يقول:

— تقصدين يارا؟

هزتُ رأسها مبتسمة، ثم نظرت إلى هايدي بابتسامة أكبر وقالت:

— نعم يارا أخت بدر.. هل تعرفينه يا هايدي؟

ابتسمتُ هايدي وقالت:

— طبعا أعرفه يا ماما

ضحكتُ وقالت في رفق:

— أنا لا أعارضكما في شيء.. بل على العكس.. أنا أشجعكما على ذلك

أقبلتُ عليهما هايدي وقبلتها:

— شكرا يا ماما.. كنا خائفين من رد فعلك عندما تعلمين

قالت سونيا مسرعة:

— لا تخافا.. أنا موافقة..... لكن بشرط

سألها ياسين:

— ما هو؟

— هو ألا تخبراهما الآن عني بأي شيء.. اثبتا على القول لهما أو لأهلها
أن أمكما سيدة أعمال.. وأن أباكم كان رجل أعمال.. الناس مظاهر
كما تعلمان

أسرعت هايدي تقول:

— معظم زملائنا بالفعل لا يعرفون عني أو عن ياسين أكثر من
ذلك.. لكن للأمانة فقد أخبرت بعض صديقاتي يوم الحفل بأن
الدكتور أشرف هو والدي.. أردتُ التفاخر به
وضحكت سونيا ضحكة عالية وقالت في فخر:

— فعلا أشرف فخر لأي أحد.. وأعدكما.. سوف تتزوجان من تريدان
قال ياسين متخوفا:

— لكنني أخاف ألا يوافقوا علينا.. فهم أثرياء جدا
أمسكت سونيا بيده وقالت تطمئنه:

— لا تقلق طالما أنا معك

وكانت الأم الأخرى المهندسة أحلام قد أخبرت زوجها المهندس معتصم
بعلاقات الحب هذه.. ولأنها شخصان متحضران إلى درجة لا توصف كأنهما

غير شرقيّن، فقد تقبل الأب المهندس ذلك في سر دون تعقيد، وطلب من يارا أن تخبر ياسين بأنه يريد أن يراه، ثم يأتي بعد ذلك دور بدر وهايدي.

واتصلت يارا بياسين تخبره في سعادة غامرة، وتحدد الموعد بعلم الشيطانة سونيا.. فقد راقّت مجاري المياه بينها وبين ياسين، وصار ياسين وهايدي يخبرانها بكل شيء في حياتهما، واطمأنت الشيطانة سونيا إلى سير الأمور سيراً جيداً.

وكان الموعد في المقر الرئيسي لشركة الأب معتمصم شرف الدين.. ذهب ياسين يرتدي ثياباً شبابية من أعلى الماركات، فقد حرصت سونيا على أن يبدو أنيقاً، فاختارت له بنفسها ما يرتديه.

وصل الشركة.. ظهر عليه الدهول والإعجاب منذ أن عبر البوابة الرئيسية الضخمة الفخمة للشركة.. تسلم السائس مفاتيح سيارته ليركنها له.. نزل منها وراح ينظر حوله مأخوذاً بكل شيء، المبنى الكبير الأنيق، والمكاتب الكثيرة، والموظفين والمهندسين الذين لا عدد لهم، والمهندسات الفاتنات.. كل شيء كان ينطق بالشراء الفاحش.. أحسّ بالظفر لأنّ ابنة صاحب هذه العظمة تحبه.. تدرج بين الطوابق والصالات الواسعة من استقبال حافل عظيم له إلى استقبال أكثر عظمة حتى وجد نفسه أمام مديرة مكتب الوالد المهندس.. كانت واقفة في ثبات وأناقة تنتظره.. سارت أمامه توسع له الطريق حتى وجد نفسه يقف أمام والد الفتاة التي يريد أن يتزوجها وهو لا يعلم أنّ الرجل أبوه والفتاة أخته.

نعم هو أبوه الحقيقي، وياسين هو صاحب كل هذه الامبراطورية في الحقيقة إن مات والده معتصم، لكنه الآن قد ذهب ليخطب منه أخته يارا، نعم هي أخته في الحقيقة، لكن في عالم سونيا فإنَّ الواقع الحالي يقول إنَّ ياسين ذهب لوالد يارا للتعرف به قبل أن يُوَقَّع الأب الموافقة الأخيرة على طلبه.

ومنذ وقعت عين الرجل الثري على ياسين عن قرب نسي ثرائه ومكانته وعظمته وكل مظاهر الفخامة التي يعيشها.. شعر بشيء غامض يسري بداخله.. أحسَّ أنه يعرف هذا الشاب، وشعر أنها تقابلا كثيرا من قبل في ظروف أخرى مؤلمة ثم افترقا على أن يتقابلا الآن في هذا المكان والزمان ليزول الألم.. بالطبع لم يستطع أن يجد تفسيراً للمشاعره تلك، لكن على كل حال فقد انجذب إلى الولد انجذابا غامضا ساحرا بحيث إنه قد قرر ألا يفرض به كزوج لابنته المدللة يارا.. ونفس ذات الإحساس كان لدى ياسين.

طلب له الأب مشروبا باردا مع شيكولاته وحلوى.. تعجب ياسين من ذلك، لكنه لم يسأل.. سأله الأب عن طموحاته وأهدافه المستقبلية، وسأله من بعيد أسئلة غير مباشرة عن آرائه السياسية دون خوض كثير في تفاصيلها، واختبره في معلوماته الدينية والرياضية.. وجد ياسين يملك ثقافة متنوعة، فليس هناك موضوع أو مجال لم يتقن الحديث فيه بمستوى معقول، ثم سأله عن أهله وأصولهم، فلم يزد ياسين شيئا على ما نبهته سونيا إليه.. احتسى الأب بعضاً من القهوة ثم قال لياسين:

— إن شاء الله الخطوة القادمة هي أن تتعرف والددة يارا على والدتك

وهنا تلجأ لياسين بعد كامل الثقة التي كان عليها.. قال له:

— طبعا طبعا

فتناول الأب بعضا آخر من القهوة وقال:

— لماذا لم نرها يوم حفل التخرج؟

— كانت موجودة.. وكان معها زوجها الدكتور أشرف

— للأسف فاتنا شرف التعرف بهما

— بل الشرف لنا نحن

وأشار الأب لياسين أن يشرب العصير ثم سأله:

— ما طبيعة الأعمال التي تديرها والدتك؟

— كل شيء.. التصدير والاستيراد.. مزارع الأسماك والدواجن

والمواشي.. تصنيع الألعاب الكبيرة.. أو لنقل الآلات الكبيرة

لألعاب الأطفال

— آلات كبيرة لألعاب الأطفال!.. لا أفهم

— الألعاب التي توضع في المولات الكبيرة كمراجيح الأطفال

الحديثة بكل أنواعها..... أمني تصنعها

— نعم نعم.. فهمت.. ما شاء الله.. وهل ستعمل معها بعد تخرجك؟

— نعم.. لكنني سأحاول تطوير كل ذلك

ابتسم الأب وقال:

— إن شاء الله ستكون رجل أعمال كبير يا ياسين.. تعجبني طريقة تفكيرك
— شكرا لحضرتك.. أنا سعيد جدا بالتعرف عليك.. وأشعر
ب.....

وسكت ياسين، ولم يستطع أن يكمل، فنظر له الأب ينتظره فأكمل ياسين:
— أشعر أنني أعرف حضرتك كثيرا.. أو كأني قابلتك قبل ذلك
كثيرا.....

فابتسم الرجل ونظر له بحنان قائلاً:

— والله أنا أيضا يا حبيبي أشعر بذلك

وتسربت دمعتان في نفس الوقت، الأولى من عين ياسين والأخرى من
عين الأب، فراح كل منهما يواريهما قبل أن يلتفت الآخر لها.

عاد الأب المهندس معتصم إلى زوجته أحلام منشرح الصدر بنفس
الانجذاب الغامض الساحر.. لا يكفُّ في كل لحظة عن أن يتحدث عن
ياسين، ففرحت الزوجة أحلام بكل ما سمعته ثم نامت بعد انشغال
طويل ساحر خفي يتعلق بالولد.. راحت في النوم فرأته في المنام يتقدم
ناحيته مبتسماً وسط ضباب ويديه إكليل من الورد والزهور ذات
الألوان الجميلة.. استيقظت منشرح الصدر.. صلت الفجر ثم جلست
على كرسي هزاز بجانب نافذة كبيرة تُشرف على شارع عريض ممتد مزين
بالأشجار الجميلة على الجانبين.. راحت ترقب مولد اليوم الجديد عن

حركات الباعة والناس والسيارات.. كانت ترى كل شيء جميلاً، فقد
زَيَّن وجود ياسين بحياتها كل شيء.

وكانت سونيا قد عادت من الرحاب إلى زوجها الدكتور أشرف في شقة
الحي السادس.. وجدته جالسا حزينا يفكر في شروء.. سأله بحب ورفق:

— ما لك يا حبيبي؟

نظر لها وقال:

— سونيا لقد مللتُ من حياتي

قالت بدلال:

— هل تقصد من حياتك معي؟

فوقف وقبلها ثم قال:

— لا أقصد ذلك يا سونيا.. بل أريد أن أعود لعملي

أخذت نفساً وتهيئة ثم قالت:

— أنا موافقة يا حبيبي طالما أن هذا سيخرجك من الملل

فأسرع يقول في إصرار وعزم:

— ليس هذا فقط.. بل أريد أن أستعيد كل ما سلبته حنان مني

فأسرعت سونيا توافقه وتشجعه قائلة:

— هذا حقاً ما يجب أن تبدأ به من الغد يا أشرف.. البلد فيها قانون

وقضاء.. لقد ظلموك ونهبوا كل شيء منك عندما أثبتوا أنك

مجنون.. أنت استسلمت لهم مرة.. لكن ليس كل مرة.. يجب أن

تسترد كل ثروتك.. وتسترد مالك وحبية

فقال أشرف حالما مسرورا:

— مالك وحبية.. لقد اشتقتُ إليهما كثيرا

— مؤكداً أن حنان سممت فكرهما من ناحيتك.. لكن في النهاية أنت أبوهما

— سأقاضي حنان في كل المحاكم.. سأسترد منها كل شيء.. لكنني

لن أسامح أخوتي

— وأنا معك في كل شيء يا حبيبي

وبالفعل بدأ الدكتور أشرف بمساعدة سونيا يبحث عن محام يتولى كل قضاياها، ويسلك كل ما يستطيع من أجل استرداد حقوقه حتى عثروا على المحامي المناسب، ثم بدأ المحامي في العمل.

وذاث يوم أراد الدكتور أشرف أن يذهب ويلقى نظرة على البيت من خارجه، فقد اشتاق له.. ذهب مع سونيا.. أوقفت سيارتها ثم نزلا ووقفوا أمامه ينظران.. كان البيت قد صار ساكنا حزينا مهجورا بلا حياة.. راحت عينا أشرف تنتقل بشوقٍ شديد بين شرفات البيت ونوافذه وحديقته.. هنا كان يجلس.. وهنا كان يقف.. وهنا كان يلعب مالك وحبية.. وهنا تعود أن يركن سيارته.. وهنا كان يقف مع أصحابه أيام الصِّبا يتسامرون ليلا بينما تُنعمش وجوههم رياح الصِّبا في الربيع.. وهنا كانت صفوف الفقراء والأرامل تصطف طلبا للمساعدات في كل يوم خميس، وأخرجته

سونيا من ذكرياته قائلةً بحب:

— أشرف يا حبيبي

— نعم يا حبيبي

— هل تذكر؟

— ماذا أذكر

— كنتُ خادمك في هذا البيت

— أذكر يا حبيبي

— الآن أنا زوجتك

— هذا يشرفني والله يا سونيا

— عندما نسترد بيتنا هذا.. هل تعرف ماذا أتمنى بعدها؟

— ماذا تتمنين؟

— أن أنجب منك عشرة أطفال

— عشرة أطفال!!

— نعم.. لينشروا فيه الحياة والفرحة بعد تلك الكآبة التي سكنته

— والله معك حق يا سونيا

وفجأة بينما كانا يقفان مستندين إلى السيارة برز لهم حارسُ العمارة

المجاورة.. أقبل منها نحو الدكتور أشرف مسرعاً قائلاً في فرح:

— دكتور أشرف دكتور أشرف.. أنا أيوب.. هل تذكرني؟

خرج الدكتور مِنْ ذكرياته على صوت أيوب فتذكره على الفور،
واحتضنه قائلاً:

— أيوب.. نعم أتذكرك.. ما أخبارك؟

— أنا بخير.. لكن والله ينقصنا وجود حضرتك.. حمد الله على السلامة

— الله يسلمك يا أيوب.. ما أخبار أولادك؟

قال أيوب البواب:

— بخير.. لكن الأهم أنني الحمد لله رأيته بخير.. قالوا عنك كلاماً
كثيراً لم أصدقه

— ما أخبار عم محمد بواب بيتنا؟

— منهم لله.. طرده بعد ما فعلوه بك لأنه كان يُخلص لك

قال الدكتور أشرف في أسف:

— ربنا موجود يا أيوب.. لا ينسى أحداً

— ربنا يصبرك يا دكتور.. لقد حزنْتُ كثيراً لأجلك.. آخر شيء حدث

وأثر في نفسي.. أن يسكن هذا البيت سكان غيرك وغير أولادك

ووقعت الكلمة على أذن الدكتور أشرف وقع الصاعقة، وأراد أن
يفهم ما سمعه أكثر فقال:

— ماذا تقصد يا أيوب؟

— زوجتك مدام حنان.. ربنا يسامحها

— ما لها؟.. ماذا فعلتُ أكثر مما فعلتُ؟

— جاءت هنا منذ شهر مع رجل عرفتُ أنه زوجها.. وجاء أشخاص كثيرون في أيام متتالية.. كانوا يعاينون البيت

— وماذا حدث بعد ذلك؟

— باعت البيت

وهنا انتابت أشرف حالة هستيرية وراح يصيح بصوت عالٍ ناعتا حنان بالكلبة والشيطانة، واستند على مقدمة السيارة، وكاد يقع على الأرض وأسرعَت سونيا تسنده، وفتحت باب سيارتها لتجلسه، وكان أيوب البواب يساعدها في ذلك.. أمسكتُ بزجاجة ماء، وراحت تسقيه منها، وهو لا يكفُّ عن أن يردد:

— حنان باعت بيتي يا سونيا.. الكلبة باعت بيت أبي.. الشيطانة دمَّرت بيت أحمد الأمير

فنظر البواب لسونيا في حسرة وقال:

— والله الدكتور معه حق.. الله لا يساعدها.. دمَّرت أسرة كاملة ونظر الدكتور أشرف له يسأله:

— وأخوتي يا أيوب.. هل كانوا معها وهي تبيع البيت؟
فنظر أيوب لسونيا ثم قال:

— سمعتُ أنها تركت أخوتك بالخارج وحدهم.. كان معها فقط هذا الرجل زوجها

فقال أشرف في حسرة:

— آه يا حنان.. لم يَكْفِكَ تشريدي.. بل جئت لأولادي بزواج أم..
حبيبي يا مالك.. حبييتي يا حبيبة.. وهل تعرف شيئا عن مالك
وحبيبة يا أيوب؟

فنظر أيوب لسونيا مرة ثانية ثم للدكتور أشرف وسأله:

— ألا تعرف يا دكتور؟

— ماذا أعرف؟

— لا حول ولا قوة إلا بالله

— أيوب.. ماذا حدث؟

فعاد ونظر نظرات أكثر حسرة وقال لسونيا:

— هل حقا لا يعرف؟

فنظرت له سونيا صارخة في غضب:

— قل ما عندك.. حرقت أعصابنا

وتردد أيوب رغم ذلك قليلا، ثم استجمع قواه وقال:

— ربنا يصبرك يا دكتور.. والله لا أعرف ماذا أقول لك

صرخ فيه الدكتور أشرف وصرخت سونيا، فاضطر أيوب البواب
أن يخبرهما:

— حبيبة هربت من أمها وأعمامها عندما كانوا بلندن لتعيش مع
صاحبها هناك.. ومالك ابنك مات بسبب المخدرات

(١٧)

قواعد العشق عند سونيا

لم يتحمل الدكتور أشرف موت ابنه وانحراف ابنته، وهو مَنْ كان حريصا على أن يعلمهما في مدارس إسلامية ملتزمة بمبادئ الدين والأخلاق الفاضلة الحميدة، وبعدهما عما قد ينثر بعض الغبار على معدنهما الثمين الأصيل، وقطعا «لا شيء في الدنيا أغلى على الأب والأم مِنْ أولادهما».. هذه أول قاعدة مِنْ قواعد العشق التي تسمو على قواعد جلال الدين الرومي الأربعين، فكل أنواع العشق وتفصيله ومظاهره ما هي إلا هوامش على جانبي هذه القاعدة، فالأولاد أئمن وأغلى ما يملكه البشر.

أصابت تلك الأخبار القاتلة عقل وقلب الرجل المسكين فانهار توازنه العقلي والنفسي.. ترك سونيا وأسرع هائما مِنْ أمام بيتهم الضائع إلى الشوارع المحيطة.. راحت تلاحقه وتتبعه حتى استطاعت بمعاونة أيوب البواب أن تمسك به.. أدخلته السيارة وانطلقت به إلى شقتها بالحي السادس.

ظلَّ يهذي طوال الليل وعيناه عالقتان بسقف الحجرة.. يحدث المرأة والدولاب والسرير.. يحكي حكايته مع حنان منذ اليوم الأول الذي رآها فيه بطريقة أثرت كثيرا في قلب زوجته سونيا، تلك التي ظلت ساهرة بجانبه، تسمع له وهو يتحدث إلى كل شيء حوله.. يحكي لهذا الليل الساكن حكاية مالك وحبيبه.

وفي الصباح أخذته سونيا إلى مستشفى أبي العزائم للأمراض النفسية والعقلية.. تمَّ احتجازه هناك من أجل العلاج، فحالته ظاهرة للجميع.. لقد عاد الدكتور أشرف للجنون.

وعادت سونيا من المستشفى بدونه.. تركته حزينه غاضبة.. اتصلت بيعقوب الأصفر:

— يعقوب.. قابلني حالا هناك

— أمرك يا معلمتي

وتقابلا عند الحديقة الدولية.. قالت له مذ رأته:

— هناك امرأة أريد منك أن تأتيني بكل أخبارها

— فقط أعطني اسمها وما لديك من معلومات عنها

— المعلومات قليلة يا يعقوب.. لكنني أثق بقدراتك

— اطمئني.. فأنا تلميذك

غاب يعقوب أسبوعا كاملا ثم ظهر ليخبر سونيا بما جمعه من أخبار عن حنان.. قال لها هاتفيا:

— سأنتظرُكِ هناك

ذهبتُ حيث سور الحديقة الدولية.. ركب بجانبها.. قالت:

— قلْ ما عندك

— باعت البيت وكل الأملاك التي يملكها أشرف بموجب إعلام

الوراثة وتوكيلات من أخوته وتقريرات طبية تثبت أنَّ أشرف مجنون

— أنا أعرف ذلك.. ما الجديد؟

— اشترت فيلا في التجمع الخامس وفرشتها لتستقر بها مع زوجها

الجديد

— وماذا بعد؟

— هي الآن في شرم الشيخ لمدة أسبوع

— هل هناك أحد في الفيلا الآن؟

— لا أحد غير الحارس وزوجته وأولاده

— إذن اسمعني جيدا يا يعقوب

— دائما أسمعك جيدا

— من أجل أولاد الحارس.. سأخرجهم جميعا من الفيلا لساعتين

فقط.. هل تسمعني؟

— أسمعك يا معلمتي

— وسيكون أمامك ساعة.. ساعة فقط.. هل تفهمني؟

- أفهمكِ يا معلمتي
- ستدخل الفيلا وتسرق كل ما تستطيع حمله.. هل تكفيكِ ساعة؟
- وأقل من الساعة يكفيني
- كل ما ستسرقه هو غنيمة لك وحدك
- وأنتِ يا معلمتي؟.. ماذا ستستفيدين من ذلك؟
- يكفيني شيء واحد يا يعقوب
- ما هو؟
- ماس كهربائي
- فضحك يعقوب طويلا ثم قال مزهوا بنفسه:
- تلك لعبتي.. وشقة سالم ونور ليست عنا بعيد
- أنا أثق بك.. لكن زِدْ بعضاً من المواد القابلة للاشتعال
- فلتكن جهنم يا معلمتي
- نعم جهنم لكل من يمسُّ شعرة من حبيبي
- فضحك يعقوب ثم قال:
- إذن هو الانتقام.. الانتقام لأشرف
- نعم إنه الانتقام لي ولأشرف.. والغنيمة لك
- فعاد يعقوب، وضحك قائلاً وهو يرفع يديه لوضع الدعاء:
- اللهم أكثر من أمثالك يا معلمتي

— ومنك يا يعقوب

— آمين

ثم ثبتت سونيا عينيها على الطريق بتحدٍّ وغضب قائلة:

— يعقوب.. أريد أن أمتع عيني برؤية نار جهنم تأكل الفيلا

— أمرك يا معلمتي

— سأنتظر اتصالك لتخبرني بكلمتين فقط

— ما هما؟

— متعي عينيكَ

— أمرك يا معلمتي

— يعقوب.. ليكن انتقاما محرقا للفيلا كاملة

— سيحدث يا معلمتي

ثم رمقته بنظرة جانبية سريعة وقالت:

— وإن لم تحترق الفيلا كلها ستقول كلمة واحدة

— ما هي؟

— فشلت

— أعوذ بالله.. ربنا يبعد عنا الفشل

— يعقوب

— نعم

— التنفيذ غدا مِنْ السادسة إلى الثامنة مساء

— أمرك.. ولكن ما الداعي لاستبعاد الحارس وزوجته وأولاده؟..

فليحرقوا مع الفيلا

— يعقوب ما ذنبهم؟

— معلمتي ماذا حدث لك؟.. مِنْ أين جاءتكِ الشفقة؟

— يعقوب.. نفذ ما أمرتك به فقط

وتمَّ التنفيذ، واحترقت فيلا حنان عن آخرها، وذهبت سونيا فمتَّعت عينيها لوقتٍ طويل.. كانت تقف بين الواقفين والسعادة تشعُّ من عينيها، بينما وقع الخبر على حنان وقع السهام التي اخترقت كل جسدها، فلم تبق موضعا دون إصابة، ثم راحت بعد أن استفاقت مِنْ حسرتها ولوعتها تتابع تحريات الشرطة، وتستقصي عن كل شيء، وبالطبع لم تصل لشيء.

وعاشت سونيا وحدها في شقة الحي السادس، وكان أشرف لا يفارق خيالها لحظة.. راحت تستعيد كل مواقفها معه.. ظلت بها أياما تعاني آلام الفراق وتكابد الشوق له.. تذكرت كل أيامها سويا.. هنا كان ييازحها، وهنا كان يبكي على صدرها، وهنا كان يقبلها، وعلى هذا المقعد جلس فجلست على رجليه وطوقت عنقه وصبَّت عليه قبلاتها، وهنا جلس يوم فاجأها بهديته لها عندما خرج دون علمها ليحضرها، وهنا جلس خلفها يمشط لها شعرها الناعم، وهنا أخبرها أنه لم يحب في حياته غيرها.. هنا تكون حياتها الملائكية، وخارج هنا تكون الشيطانة.

وذهبتُ إلى الرحاب لتقيم بعضاً من الأيام مع ابنتها هايدي وياسين،
إذ لم تتحمل البقاء كثيراً وحدها دون أشرف في شقة الحي السادس، وبدأ
لياسين وهايدي تغير مزاجها فسلأها:

— مالك؟

— أنا بخير

قالت هايدي:

— لماذا لم يأت معك الدكتور أشرف؟

أجابت كاذبة في أسي:

— هو مشغول بعيادته الجديدة

قال ياسين:

— ربنا يوفقه

وقالت هايدي تحدثها في موضوع آخر:

— ماما.. أنا وياسين نريد أن نطلب منك شيئاً

— اطلبنا

— نريدك أن تتركي عملك

— هل تقصدين عملي في التسول؟

أجاب ياسين عن هايدي:

— أجل.. ماذا لو تصادف وراك عمو معتصم أو زوجته المهندسة

أحلام تقفين في الإشارة؟

ابتسمت سونيا ابتسامة حزينة وقالت:

— هل سيقرآن على جبهتي أني أمكما؟

قالت هايدي بسرعة:

— ماما.. اقترِب وقت أن يتقابلا معكِ.. ماذا لو رآكِ أحد منهم بعد

ذلك تتسولين؟

قالت سونيا بصوت منكسر:

— هل تعرفان أن عمكما أشرف طلب مني ذلك كثيرا؟

قالت هايدي بابتسامة جميلة:

— ألن تسمعي كلامه؟

فابتسمت سونيا ابتسامة عاشقة وقالت:

— كيف لا أسمع كلام مَنْ أحبهم؟!.. اطمئنا.. لن أعمل في التسول

بعد اليوم

ووقف الاثنان وأسرعَا ناحيتها، وقبلَا رأسها وهي تربتُ على يديهما

قائلة في حزن:

— الحب بلا تضحية ليس حبا

قالت هايدي:

— ونحن أيضا نحبك كثيرا يا ماما

وبالطبع لم تترك سونيا عمل التسول إلا مِنْ أجل زوجها وحببيها

أشرف، فكثيرا كان يطالبها بذلك، فأرادت أن تحقق طلبا له في غيابه عنها

كما لو كان معها، وفعلا تلك قاعدة ثانية من قواعدِ العشق هنا، وهي
«الحُبُّ بلا تضحيةٍ ليس حبا»

وذهبتُ سونيا لزيارة أشرف في المستشفى .. وجدته حقا شخصا
مجنونا، وجنونه في ازدياد، حتى إنه لم يشعر بوجودها .. يتحدث إلى نفسه
هاذيا، فجلستُ بجواره تراقبه، ثم أسرعتُ إلى إدارة المستشفى لتخرجه
معهما إلى شقتهم بالحى السادس، فأخبروها أنَّ ذلك خطرٌ عليه وعليها،
لكنها أصرتْ إصرارا كبيرا على إخراجه.

ركب بجانبها ثم غلّقتُ الأبواب، وراحت تتحدث إليه دامعة ..
ذكرتُ له بعضا من مواقفهما معا حتى تضاحكه، لكنه كان قد سلك رغبما
عنه طريق الجنون الفعلي، فلم ينتبه لأي شيء، فراحت تبكي بحرقة، وهي
التي لم تبك على شيء طوال عمرها السابق أبدا، ولم تهتم لشخص على
مدى حياتها السابقة أبدا، ولم ترتكب جريمة دون ثمن مادي تلمسه يداها
ولو على أبعد مدى، لكنها الآن بكّت ذلك البكاء بسبب العشق، وهنا
قاعدة عشقية ثالثة، هي «مَنْ لا يُبكيه العشق يوما فليس بعاشق»

وراحت بعد ذلك تفكر فيما معها من مال .. لم تجد ما يلزمها ويلزم
هايدي وياسين في حياتها التي تعودا فيها على أن يجدا كل شيء يربدانه،
وأكثر من ذلك لم تجد ما يلزم للإففاق بسخاء على حبيبها الدكتور أشرف،
فماذا تفعل وقد تركتُ التسول؟ .. اتصلتُ ببعقوب الأصفر كي يقابلها
في المكان المعهود.

ركب يعقوب بجانبها.. قالت له:

— يا يعقوب.. أريد ما لا

— كم تريد ين يا معلمتي؟

— كثيرا

— يمكنني إقراضك الآن مائة ألف.. هل تكفي؟

— سونيا لا تقترض من أحد يا يعقوب

— مالي هو مالك يا معلمتي.. لقد غنمتُ أضعاف ذلك من فيلا حنان

— كل ما غنمته حلال عليك يا يعقوب

— معلمتي

— نعم

— يمكنني أن أجد لك عملا تريحين منه الكثير

— ما هو؟

— العمل الذي أعمل به حين اختفائي عنك

— قل يا يعقوب ما لديك

— هذا سر كبير وخطير يا معلمتي.. لكنني سأخبرك به.. أنا أثق بك جدا

— أخبرني

— عندما أتغيب أكون هناك ضمن عصابة لخطف الأطفال وبيع الأعضاء

— يا لك من شيطان!

- تلميذك يا معلمتي
- هل وصل شركُ إلى هذا الحد أيها الشيطان؟
- ولم لا؟.. إننا نربح من ذلك ما لا كثيرا
- يعقوب.. أنت إبليس نفسه.. عرفتُ الآن لماذا تختفي خلف الجنون
- تلميذك يا معلمتي
- يعقوب يا إبليس
- نعم
- أبعدني عن موضوع خطف الأطفال
- هل معقولٌ ما أسمعُه منك؟
- الحُب رَقَقَ قلبي يا يعقوب.. أشعر أنَّ حبي لأشرف يغسلني في كل يوم ليظهر بعضاً مِنِّي
- كم أحسد أشرف عليكِ!.. يا لحظه السعيد!
- يعقوب.. ابحث لنا عن شيء آخر تملكه تلك الأفعى حنان
- أمرك
- هذه المرة لن نحرق.. سنسرق
- كما تريدن يا معلمتي
- سنتقاسم الغنائم يا يعقوب.. فأنت فعلا قد ثبت إخلاصك لي
- والله ما أجمل العمل معكِ يا معلمتي!.. لكن أتمنى أن يدوم الإخلاص بيننا

قالها الشيطان يعقوب الأصفر صدقا وثناءً عليها.. فهو يستفيد منها الكثير، ثم أعقبها يقول لنفسه في نفسه: (لن أسمح لكِ بالتوبة أبدا يا سونيا.. سيكون يوم خيانتك لي هو يوم موتك على يدي)

وحقا كما قالت سونيا «الحُبُّ يُرَقِّق القلب»، وتلك أيضا قاعدة رابعة من قواعد العشق، حيث أحسَّتْ سونيا بهذا الإحساس بسبب عشقها لأشرف، ولو لم تعشق لخطفت أطفالا وقتلتهم مثل يعقوب دون أن ترفَّ لها عين، ودون أن يساورها أقل إحساس بأقل ألم أو ندم، لكنه العشقُ الذي يفعل المستحيل مع الأشخاص الأسوياء، أما امرأة مثل سونيا فيكفينها منها أن رفضتْ خطفَ طفل أو قتله لنقول: إنَّ العشق حَقَّقَ معها المستحيل.

اتصل يعقوب بعد أسبوع، فذهبتْ له وركب بحانبيها.. قال:

— معلمتي

— نعم يا يعقوب

— حنان باعت فيلتها الكبيرة على حالتها المحترقة

— بكم باعتها؟

— سبعة ملايين

— وماذا فعلتْ بأموالها؟

— لا أعرف.. لكن مؤكدا أنها وضعتها في بنك

— وأين ستقيم؟

- سستشري شقة كبيرة في التجمع جاهزة بفرشها لتقيم فيها
- بكم الشقة التي سستريها؟
- ثلاثة ملايين
- كيف عرفت؟
- راقبتُ كل تحركاتها.. وسألتُ وعرفتُ كل شيءٍ مِن بعيد
- وهذه الملايين الثلاثة.. هل ستدفعها نقدا أم تحولها؟
- هذه لا أعرفها
- اعرف ذلك يا يعقوب
- أمرك يا معلمتي
- الملايين الثلاثة لنا بالنصف.. لا تجعلها تضيع منا
- لن تضيع
- وذهب يعقوب لثلاثة أيام ثم عاد فقال:
- معلمتي.. عرفتُ مِن شخصٍ بالمكتب العقاري أَنَّ البائع طلب
- استلام الملايين نقدا
- هذا ما نريده
- متى الدفع؟
- بعد غد صباحا.. ستذهب وتسحب أموالها مِن البنك ثم تذهب لتدفعها
- جميل جميل

— لكن هناك مشكلة يا معلمتي

— ما هي؟

— زوجها لا يفارقها

— وما المشكلة في ذلك؟

— إنه رجل ضخم

— وهل هناك أضخم منك يا يعقوب؟ .. إنك تملأ سيارتي وحدثك

— للأسف هو أيضا يملأ سيارة حنان

— لا عليك.. أترك الأمر لي.. قوة العقل تغلب قوة الجسد

— معك حق

— فقط أخبرني عن مكان البنك ومكان الشقة والمسافة بينهما

— سأخبرك بكل شيء

وفي تمام الساعة الثامنة صباحا كانت هناك سيارة هيونداي النترا تقف أمام البنك المراقب، وبداخلها رجلٌ يلبس جلبابا أبيض بلحية طويلة مهذبة، وعلى رأسه طاقية بيضاء وبجواره امرأة منتقبة، ومعها طفلة جميلة في الخامسة من عمرها.

جاءت حنان بعد التاسعة بقليل تقود سيارة نيسان قشقاوي وبصحبتها زوجها الضخم.. وقفت السيارة جانبا، ثم خرجا منها ببطء إلى داخل البنك، وكان بيد الرجل حقيبة يد كبيرة مطوية يبدو أنها فارغة، وما

هي إلا نصف ساعة بالداخل، ثم ظهر ا خارجين يحملان نفسَ الحقيبة الكبيرة بعد أن انتفخت.. سارا مسرعين من مخرج البنك حتى السيارة يتلفتان حولهما، ولما دخلا السيارة أدارتها حنان وبجوارها زوجها سالكين طريقهما إلى حيث يدفعان الملايين الثلاثة.

أدارت المرأة المنتقبة سيارتها الهيونداي تتبعهما من بعيد وهي حريصة ألا تفقد أثرهما.. وصلا إلى شارع شبه خالٍ من الناس قريبا من الشقة المقصودة.. زادت المرأة المنتقبة من سرعتها.. صارت بموازاتهما.. تأكد الرجل الملتحي أنه بمكان خالٍ من الكاميرات، فأصدر الأمر للطفلة بالتحرك.. أخرجت الطفلة الجميلة يدها من السيارة تجاه نافذة القشقاى المغلقة ويدها وردة جميلة.. انتبه الرجل الضخم للطفلة المبتسمة.. ابتسم لها.. أشارت له الطفلة بأنها تريد أن تعطيه الوردة.. فتح نافذته ليلتقط منها الوردة، فأسرع الرجل الملتحي بإلقاء سلة مفتوحة بها ثلاثة ثعابين كبيرة داخل السيارة القشقاى.. صرخت حنان وزادت من سرعتها، ولم تنتبه لقيادتها، فارتطمت سيارتها بالرصيف، وصارت شبه منقلبة.

نزلت المرأة المنتقبة سريعا ومعها الرجل الملتحي، وفي خفة ومهارة كانا قد رشا على وجه حنان والرجل الضخم سائلا أفقدهما الوعي.. حمل الرجل الملتحي الحقيبة، وكانت قد سبقته المرأة المنتقبة إلى السيارة الهيونداي.. قادتها سريعا بعيدا عن هذا المكان بثلاثة ملايين من الجنيهات.

وعندما صاراً بطريقٍ منعزلٍ تماماً وسطِ رمالِ من الناحيتين يربط بين الطريق الدائري والمقطم أوقفتُ المرأةَ المنتقبةَ السيارةَ جانباً، ونزل الرجل الملتحي سريعاً، فنزع أرقام السيارة المزيفة ووضع مكانها أرقاماً أخرى، ثم نزع عن نفسه ملابسه ولبس غيرها، ونزعتُ المنتقبة نقابها وخارها وعباءتها.. دفن الرجل كلَّ ما نزعاه بالرمال، ثم رجع إلى السيارة عائداً بظهره يزيل آثار قدميه، وقادت المرأة وهي تقول:

— يعقوب

— نعم يا معلّمي

— هل لكَ خيالٍ واسع؟

— طبعاً.. أنا موهوب في كل شيء

— إذن تخيل ما يحدث لحنان الآن وصفه لي

— ولمَ ذلك يا معلّمي؟

— أريد أن أشعر ببعض السعادة

— يكفي حسرتها عندما تستفيق

— ألن تلدغها الثعابين وتموت؟

— للأسف الثعابين منزوعة السم

— هذا أفضل.. أريدها أن تعيش لتعاني بدلاً من أن تموت فتستريح

— فعلاً الموت راحة

- والجنون يا يعقوب؟.. ما رأيك فيه؟.. هل هو معاناة أم راحة؟
- الجنون أيضا راحة
- أرجو ذلك.. فحبيبي أشرف لا أريده أن يعاني
- لن يعاني أبدا طالما أنتِ معه
- بمثل ما يشعر أشرف أنا أشعر دائما يا يعقوب
- الله الله!.. إلى متى ستظلُ محظوظا هكذا يا صديقي
- يعقوب
- نعم يا معلمتي
- هل تعلم أنَّ أشرف عاد إلى الجنون قهرا على أولاده؟
- أجل أعلم
- يعقوب
- نعم
- نحن الغجر.. لسنا شياطين.. انظر إلى حنان.. ليست غجرية وفعلتُ
- ما فعلتُ
- معكِ حق
- يعقوب.. هل أنتِ مِنَ الغجر؟
- لا

- وهذا أنت.. لست عجريا.. لكنك شيطان يا يعقوب
- الدنيا فيها هذا وذاك يا معلمتي.. آدم صنيع الله.. أنجب الخير والشر..
- هايل وقايل
- يعقوب.. ماذا ستفعل بنصيبك.. المليون ونصف؟
- سأخبئهم بجانب أخواتهم
- كم جمعت من الأموال؟
- أموالا بلا عدد
- ألن تتوقف عن جمع المال؟
- ماذا أفعل بنفسي؟.. حب المال مرض مزمن
- توقف يا يعقوب لتستمتع بما جمعت
- متعة جمع المال أروع من متعة إنفاقه يا معلمتي
- يعقوب
- هل لك زوجة وأولاد؟
- نعم
- هل تحب زوجتك؟
- نعم أحبها إلى حد ما.. لكنني أحب المال أكثر
- وأولادك؟

- إلا الأولاد... كل ما أفعله أفعله لهم
- هل نجبهم كثيرا؟
- فوق ما تتخيلين
- وهل تعرف أن كل الآباء يحبون أولادهم مثلك؟
- أعرف
- وهل تعرف أن أشرف عاد إلى الجنون قهرا على أولاده؟
- أنتِ أخبرتني بذلك
- يعقوب
- نعم
- هل لي أن أطلب منك طلبا بعيدا عن العمل؟
- أي طلب منك هو أمر لي يا معلمتي
- لا تخطف أولاد الناس بعد ذلك يا يعقوب
- وسكت يعقوب قليلا ثم قال:
- أمرك
- وكانت سونيا قد أوقفت سيارتها لينزل يعقوب ومعه الطفلة، فنظرتُ له والدموع في عينيها قائلة:
- ولا تتاجر بأعضاء الأطفال يا يعقوب

- أَمْرُكَ يَا مُعَلِّمَتِي.. وَلَكِنْ.....
- فَقَالَتْ سُونِيَا فِي أَسَى وَحْزَنٍ شَدِيدَيْنِ:
- سَاعَوْضُكَ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ
- لَحْظَ يَعْقُوبَ الدَّمُوعَ فِي عَيْنَيْهَا فَسَأَلَهَا:
- لِمَ كُلِّ ذَلِكَ؟
- مِنْ أَجْلِ أَشْرَفِ

(١٨)

الشیطانة الحائرة

— یعقوب.. أنا فی حیرة

— لِمَ؟

— الموضوع کبیر ومعقد

— أخبریني

— لا أعرف ماذا أقول

— قولي ما تشعرین به

— أشعر بأني أريد أن أتوب الآن

فسکت یعقوب لفترة شاعرا بالغیظ والضيق بسبب رغبتها تلك،
لکنه کظم غیظه وقال:

— باب التوبة مفتوح دائما لا یغلق.. فلماذا الآن؟

— هل تقصد أن أوْجل توبتي؟

— طبعا

- والموت يا يعقوب؟ .. إنه يأتي فجأة
- يكفي أن في نيتك أن تتوب
- أنتَ شيطان مضلل يا يعقوب
- تلميذك يا معلمتي
- يعقوب
- نعم
- أخبرتك من قبل أني أريدك أن تقتل ابني .. هل تذكر؟
- طبعاً أذكر
- لِمَ لَمْ تستغرب أو تسألني كيف أفكر في ذلك؟
- أنا فقط أفعل ما تأمريني به .. أنا تلميذ مطيع وخلص .. وهذا سر
- نجاحي معك
- يعقوب .. أنا حائرة
- معلمتي .. أنا طوع بنانك .. فقط عليك أن تأمريني
- مضطرة أن أخبرك بسر حياتي .. أحتاجك فيما هو قادم
- معلمتي .. أسرارك أسراري
- سأخبرك لكن لا تجعلني أندم .. ندمي قاتل يا يعقوب
- أعرف ذلك وأخافه كثيراً يا معلمتي .. ومنذ عرفتِك صارت أذني
- سجناً أحبس فيه كل كلامك .. وأغلقه بمفاتيح أرميها في أعماق بحر

وأخبرت سونيا يعقوب بكل شيء لأنها قد صارت فعلا في حيرة من أمرها.. كان آخر شيء قررته أن تمضي في خطتها الجديدة بالمشاهدة فقط من بعيد.. شيء واحد ستفعله وهو قتل أحلام ومعنصم، وتلك هي المهمة الجديدة ليعقوب التي كانت قد قررت أن تكون تالية لمهمة سرقة حنان.

لكن ياسين اتصل بها يخبرها بأنه يريد لها على وجه عاجل أن تذهب معه إلى فيلا أهل يارا بالزمالك لخطبتها، فهم ينتظرون هذه الخطوة منه، فشعرت بحيرة شديدة، ولم تستطع أن تنام ليلتها، ولم تستطع أن تخبر أشرف، فلن يفهمها في حالته تلك، ولن يغفر لها خطاياها، ولن يرضى أبدا عن شرورها.

وضاقت بها أسرارها حول هذا الأمر، وخنقها حفظ تلك الأسرار وحدها، فأرادت أن تباعد طوق الخناق عنها، فلم تجد أفضل من يعقوب لتبته أمرها، فهو الوحيد الذي سيساعدها في الخروج من حيرتها، خاصة أنها صارت تثق به كثيرا بعد أن أثبت كفاءته في كل شيء فصار يدها اليمنى، فكيف لا تسلم يدها اليمنى ما عجزت عن أن تحمله وحدها يدها اليسرى الضعيفة؟

أخبرته بكل شيء، كما أخبرته عن خطتها القديمة، وخطتها الجديدة.. ظلّ للحظة منبهرا مذهولا.. نظر لها بجانبه ثم قال:

— يا معلمتي العزيزة.. أنا فخور بك جدا.. في كل يوم أعلم منك شرا جديدا

— يا يعقوب.. أنا حائرة.. أفكر في التراجع عن كل شيء لأمنع الزواج الحرام

— معلمتي.. مَنْ قطع عرض البحر عوما حتى أوشك على الوصول
للشط الآخر بعد إنهاكٍ طويل.. سيغرق ويموت أثناء رجوعه
للشط الأول.. قوته الباقية تكفيه فقط للوصول لا الرجوع.

فأخذت سونيا نفسا عميقا ثم قالت:

— لا أستطيع أن أستوعب أن أزوج ابني لابتتي

— سيعوض ذلك الكنوز التي ستحصلين عليها والنعيم الدائم..

وبالطبع فلن تنسيني

— طبعا يا يعقوب.. لكن أشر عليّ.. مطلوب مني أن أذهب وأقابل

مَنْ كنتُ أعمل لديهم خادمة ثم خدعتهم خديعة السنين

— بالطبع إن رآك أحد منها سيعرفك

— وقد لا يعرفانني يا يعقوب

— سيعرفانك يا معلمتي.. ليس من السهل أن ينساك أحد.. مثلك

يملا القلب والعقل

ونظرت سونيا بجانبها إليه، فضحك يعقوب ضحكة خفيفة وتنهد..

قالت له:

— ماذا بك يا تلميذ؟

— فقط عقلي وقلبي يهذيان باسمك ليل نهار

أعادت نظرتها وسكتت فقال:

— سامحيني

— يعقوب.. خَلْنَا في موضوعنا

— لا موضوع لي غيرك يا سونيا

فصرختُ فيه قائلة:

— يعقوب لا تجعلني أندم على أني أخبرتك بأسراري

فقال يعقوب بنبرة آسفة:

— لن تندمي أبدا.. أعدك بذلك.. فسامحيني

— يعقوب.. أنا أحب أشرف.. لن أخونه.. أنتَ إنسان جيد بالنسبة

لي.. ربما لو لم يكن أشرف بحياتي.. لكان لك مكان بقلبي..

لكن.....

قالتها وصمتت ونظر لها يعقوب وأحسَّ بالراحة فابتسم وقال:

— هذا يكفيني منك يا معلمتي.. لنعد إلى موضوعنا

فقالت سونيا:

— فكرتُ أنْ أغيرِ من شكلي واسمي

ضحك يعقوب وقال:

— الأثرياء غالبا معظمهم أذكاء يا معلمتي.. سيعرفانك

— إذن ما الحل؟

— الحل أنتِ فكرتِ به في الخطة القديمة والخطة الجديدة

- هل تقصد قتلها؟
- طبعا.. ومن الخطأ التراجع عن ذلك
- يعقوب.. الحب رقق قلبي
- إذن طالما أن الحب رقق قلبك.. فلماذا لا تخبرهم بالحقيقة؟
- هل تريدني أن أدخل السجن يا يعقوب؟.. مَنْ يعتني بأشرف؟
- إذن ليس أمامك إلا أن تكمل العوم للشط الآخر.. بهذا تصلين إلى النجاة والفوز
- سيغرق غيري في طريقي
- هناك كثيرون ماتوا غرقا تحت أقدام مَنْ نجوا
- إذن فلنقتل المهندس معتمصم والمهندسة أحلام يا يعقوب
- هذا شيء سهل يا معلمتي.. ولا مفر منه
- وياسين؟
- أرى أن نؤجل قتله الآن.. نحتاج وجوده من أجل يارا
- تفكيرك الشيطاني يطابق تفكيري تماما يا يعقوب
- طبعا.. فأنا تلميذك المخلص يا معلمتي
- وأخبرت سونيا يعقوب بالطريقة التي فكّرت فيها لقتل معتمصم وأحلام معا، ثم ذهبت إلى الرحاب، وأخبرت ياسين وهايدي أنها مستعدة لمقابلة المهندس والمهندسة، لكن ليكن اللقاء خارج الفيلا في

فندق البارون بمصر الجديدة، وليكن بدر ويارا معهما.. أخبرتهما أنها ستعد لهما استقبالا أسطوريا يليق بهن.. وأسرع ياسين يخبر يارا بذلك، وأسرعت هايدي تخبر بدر، وفرح الجميع.

وجاء الدور على سونيا لأن تتحدث إلى المهندسة أحلام وتدعوها لذلك.. تناولت التليفون من ياسين.. أسرعت أحلام ترد، فقد ظهر عندها الرقم باسم ياسين.. سمعت صوت سونيا:

— مساء الخير مدام أحلام

— مساء الخير

— أنا مدام سونيا والدة ياسين وهايدي

— أهلا بك يا حبيبتي.. تشرفنا

— ياسين لا يتوقف عن الحديث عنكم

— حبيبي ربنا يبارك فيه

— وهايدي أيضا.. هما يحترمانكم كثيرا

— هذا من حسن تربية سيادتكم لهما يا مدام سونيا

— شكرا حبيبتي.. مؤكداً الأولاد أخبروا سيادتكم.. غدا عزومة

بسيطة على العشاء

— إن شاء الله يا حبيبتي

— أبلغى سلامي للمهندس معتصم حتى نلتقي

— يوصل إن شاء الله

كانت سونيا تحدثها بلهجة راقية تشبه لهجة أرقى الهوانم، وقد كانت بارعة في ذلك.. أغلقت الخنط معها والتفتت إلى هايدي وياسين لتراهما في قمة السعادة والأمل.. نظرت لهما، وشعرت بحسرة وحزن على ما سوف يشعران به غداً من ألم خاصة هايدي.. أحست بقلبها يؤلمها.. وضعت يدها على قلبها.. انتبهت لها هايدي، وانتبه ياسين على رد فعل هايدي.. جلست هايدي تحت قدميها وقالت:

— ماما.. ما لك؟

مسحت سونيا على شعر هايدي وقالت في وجع:

— لا شيء يا حبيبي

قال ياسين متأثراً:

— لكنك تضعين يدك على قلبك

قالت وهي تبتسم:

— كان ألماً بسيطاً.. لا أشعر بشيء الآن

ابتسمت هايدي وقالت:

— كيف يؤلمك قلبك وحبيبه طبيب قلوب؟

ابتسمت سونيا وقبلتها ثم قالت في نفسها: (طبيب القلوب هو مَنْ

يُوجع قلبي يا هايدي)

وذهبت سونيا إلى شقة الحي السادس ليطمئن قلبها على طبيب

القلوب.. فوجئت بالباب غير مُغلق.. دفعته ودخلت ونادت:

— أشرف.. حبيبي. أين أنت؟

دخلتُ إلى حجرة نومه فلم تجده.. أسرعْتُ إلى المطبخ والحمام فلم تجده، فأصابها قلقٌ شديد.. اتصلتُ بـيعقوب.. قابلها على الفور.. ركب بجانبها، وقادت سيارتها بكل شوارع الحي السادس تبحث عنه.. ذهبتُ منه إلى إشارة تقاطع شارع الطيران ومصطفى النحاس، وسألتُ عنه إحدى المتسولات فأخبرتها:

— كان هنا منذ أربع ساعات

أخبرها يعقوب أنه قد يكون عند سور الحديقة الدولية.. قادت السيارة على الفور إلى هناك.. لم يجدها.. نزل يعقوب وسأل عمال محل الخضراوات والفاكهة، فأخبره أحدهم أنه رآه بالفعل جالسا بجوار السور منذ ساعتين.. انطلقتُ بسيارتها تبحث عنه في جنون بكل شوارع مدينة نصر، ثم ذهبتُ إلى ميدان العباسية وعند مطعم حاتي الميدان ثم كبدة الشرقاوى.. لا أثر له.. قالت ليعقوب وهي تبكي:

— أين أشرف يا يعقوب؟

— لا تقلقي يا معلمتي سنجده

وجاءها اتصال من هايدي تطلب منها الذهاب لهما حالا لتختار معها ملابسهما لمقابلة الغد.. قالت:

— أنا مشغولة يا هايدي

فبكت هايدي وراحت تلح عليها، فطلبت منها أمها أن تهدأ،
وأخبرتها أنها عائدة إلى الرحاب ثم أغلقت معها، وقالت ليعقوب في نبرة
مهمومة حزينة:

— يعقوب

— نعم يا معلمتي

— ما رأيك أن نراجع عن موضوع القتل حتى نجد أشرف؟

— كما تريد يا معلمتي

— ويبقى اللقاء كما هو غدا في الفندق

— إذن دعي الأولاد يذهبون ولا تذهبي أنتِ

— لِمَ؟

— لو ذهبتِ وعرفاك فسوف تحطمين قلوب الأولاد.. ولن يتزوجوا

حسب خطتك الجديدة.. وسيضيع كل شيء

— إذن ما رأيك أن أُوْجل اللقاء حتى أغير من شكلي

وضحك يعقوب ثم قال:

— كيف ستغيرين من شكلك؟

— مجرد عملية تجميل

نظر لها يعقوب بإعجاب وقال حالما:

— أنتِ لا ينقصكِ جمال

قالت في غضب:

— ليس هناك داع لهذا الكلام يا يعقوب

أعاد النظرة، وقال في حنان:

— حقا أطباء التجميل يجب أن ينظروا لك.. ليحملوا النساء على مثالك

— يعقوب

— نعم

— أنا قلقة جدا على أشرف

— لا تقلقي على أشرف.. أعدك بأني سأرجعه لك

— حقا يا يعقوب

— حقا يا معلمتي

— يعقوب

— نعم يا أجمل معلمة

— مرَّ أكثر من عشرين عاما على خدمتي في بيتهم.. مؤكدا أنهم لن يعرفوني

— وماذا لو عرفوك؟

— طبعا ستكون مصيبة.. لن يكون هناك زواج.. إنَّ هايدي ابنتي

تعشق بدر

— أخشى أن يصيبها الجنون يا معلمتي.. وقتها سيكون لديك

مجنون ومجنونة



- لن أتحمل ذلك يا يعقوب
- وأيضا ياسين.. ياسين قد يقتلكِ
- لماذا يقتلني ياسين؟
- لا أستبعد أن تعترفي بالتبديل في لحظة ضعف
- أنا راضية بالموت.. لكن من سيعتني بأشرف بعد موتي؟.. من سيعتني بهايدي؟.
- إذن هل ما زلت تفكرين في التراجع؟
- أوقفت السيارة، ورمقت يعقوب بنظرة جانبية قائلة:
- نفذ مهمتك غدا يا يعقوب.. اقتل معتصم وأحلام
- أمرك يا معلمتي.. لكن.....
- لكن ماذا يا يعقوب؟
- أريد بعض المعلومات عن الفيلا والشارع أمامها والسيارات التي يملكونها
- سيكون كل شيء لديك اليوم.. لكن بعد تنفيذ مهمتك لديك مهمة أهم
- أعرفها.. أن أجد لك أشرف
- هذا أهم شيء لي
- أمرك يا معلمتي

وكان بدر ويارا من فيلتهما بالزمالك على اتصال دائم بهايدي وياسين في شقتهم بالرحاب كأنهما يعيشان الحياة سوياً لحظةً بلحظة .. فهذه الآلة السحرية المسماة بالآيفون أو غيره من أنواع الهواتف المحمولة قد اختصرت كل المسافات ونشرت كل الأسرار حتى إنها قد قادت لكثير من الجرائم، وعن طريق كاميرا الفيديو قد عرفت هايدي من بدر ورأت بعينها أموراً كثيرة تخص بيتهم الثري، ومثلها ياسين قد عرف عن طريق يارا كل شبر في فيلتهم وشارعهم وسياراتهم .. حدث ذلك بطريقة بريئة غير متعمدة قبل ذلك من باب الفضول، ثم بطريقة مأكرة طلبت منهم الشيطانة سونيا رؤية كل ذلك كاذبة مدعية أنه من باب الفضول أيضاً، أو من أجل التعرف على كل شيء يخص بدر ويارا.

أمسكت سونيا بكثير من المعلومات، ثم طيرتها عبر نفس الآلات السحرية إلى الشيطان يعقوب الأصفر لبدأ جريمته الشيطانية بالعبث أسفل سيارة معتمصم، وكانت قد أكدت له سونيا ما عرفته من هايدي بأن معتمصم وأحلام سيركبانها، وبدر ويارا سيركبان سيارة بدر.

وصلت سونيا ومعها هايدي وياسين إلى فندق البارون .. جلسوا ينتظرون .. نظرت هايدي لأمها وقالت:

— أنت قمر يا ماما .. الحمد لله أنك متزوجة .. كنت سأخاف أن

يتركني بدر ليتزوجك

ابتسمت سونيا ابتسامة حزينة، ونظر ياسين لهايدي وقال لها:

— ما هذا الكلام التافه الذي تقولينه؟

— كلام تافه؟! .. لا تجعلني أخبر ماما

نظر لها ياسين نظرة غضب كأنه يتوعدّها ثم سألتها سونيا:

— ماذا تخفيان عني؟

نظرتْ هايدي لياسين ثم سكتتْ، فراحتْ أمها سونيا تسأل ياسين

بالحاح متواصل فلم يستطع أمام هذا الإلحاح إلا أن قال:

— تلك الحمقاء كانت تريد أن تخبرك أن مدام أحلام مهممة بي

جدا.....

فقاطعتْها هايدي قائلة:

— نعم مهممة به جدا.. حتى أكثر من يارا.. يارا أخبرتني أنها صارت

تغار من أمها على ياسين

ابتسمتْ سونيا ونظرتْ لياسين قائلة:

— طبعاً لا بد أن تهتم بهذا الشاب الوسيم

قالت يارا بسرعة:

— لكنه اهتمام غير عادي يا ماما

— كيف؟

— هل تصدقي أنها تركتهم وخرجتْ قبلهم للكوافير على أن تأتي منه

إلى هنا.. تقول إن ياسين يجب أن يراها أجمل من يارا؟

وهنا برقت عين سونيا تسأل:

— مَنْ أَخْبَرَكَ؟

— يارا

— وهل ستذهب معها يارا؟

— نعم ستذهب معها

— وبدر

— بدر سيركب سيارة عمو معتصم

ووقفت سونيا فجأة وصرخت:

— ابني

فوقف ياسين وهايدي.. قال ياسين:

— نعم يا ماما

نظرت له وتداركت أمرها ثم قالت:

— ياسين يا ابني.. اتصل ببدر واسأله لماذا تأخروا

واتصل ياسين ببدر، لكنه لم يرد، فخرجت سونيا خارج المكان ثم

اتصلت بـيعقوب:

— يعقوب.. أين أنت؟

أجاب بصوتٍ حذر:

— في طريقي للبحث عن أشرف

— يعقوب

— نعم

— هل كنتَ هناك حين غادروا بسياراتهم؟

— نعم كنتُ هناك

ترددتُ قليلاً ثم سألتُ في قلق:

— مَنْ ركب سيارة معتصم؟

لم يرد يعقوب.. صرخت سونيا فيه:

— مَنْ ركب سيارة معتصم يا يعقوب؟

قال يعقوب في صوتٍ متغير:

— هذا حدث رغماً عني.. لم يكن ذنبى.....

أعادت فصرخت فيه

— ماذا حدث؟.. تحدث.. قل كل شيء

قال يعقوب:

— بعد أن أتلّفتُ فرامل سيارة معتصم.. وقفتُ من بعيد أنتظر

وأراقب.. نزلتُ المهندسة أحلام ويارا بصحبة بدر إلى سيارته،

ثم فجأةً عادتُ يارا للفيلا.. وانطلق بدر بسيارته وبجانبه

أحلام.....

تنفست سونيا الصعداء ثم طالبتَه أَنْ يُكْمِلَ فأكمل:

— بعد ساعة نزلت يارا مع والدها المهندس معتصم.. وانطلقا
بالسيارة

قالت سونيا:

— سلام الآن يا يعقوب

أسرع يعقوب يسألها:

— لكن أخبريني.. ماذا حدث؟

— لم أعرف بعد

وبنفس اللحظة أقبلت هايدي تصرخ وتقول:

— ماما ماما.. عمو معتصم ويارا

— ما لهم؟

— وقعت سيارتهما مِنْ أعلى كوبرى أكتوبر

(١٩)

الزائران

اصطدمت السيارة بسور كوبري أكتوبر أعلى ميدان العباسية بموازة
مدرسة سانت فاتيما.. حطمت السور وسقطت سقوطا خطيرا، فاحترقت
بمن فيها، وبالفعل كما قال يعقوب كان فيها قائدها المهندس معتصم
شرف الدين، وبجواره كانت ابنته يارا المدللة التي يحبها كثيرا وتحبه أكثر..
وكأن يارا قد أرادت أن ترحل مع والدها الحبيب.. فماذا تفعل في الدنيا
بغيره؟.. الموت في كل الأحيان راحة لمن يرحل ومعاناة لمن يبقى.

ذهبت سونيا للعزاء بصحبة هايدي.. لم تريا بدر.. كان بدر يروح
ويجيء في زهول، مشغولا في استقبال عزاء الرجال إلى جانب همومه
وأحزانه إلى جانب السأم والضيق الذي شعر به بسبب عمه مدحت.. لم
يتركه العم لحظة واحدة، كما لم تترك العمدة نرمين المهندسة أحلام.. وكيف
يترك هذا الكنز الثمين؟ وعرفت سونيا نرمين في عزاء النساء، وأحسّت
بأطماعها في ثروة بدر عن قرب.. كانت معها ابنتها ندى التي لم تفارق
أرملة عمها أحلام لحظة واحدة، والتي لم تنقطع مع أمها نرمين عن ترديد

اسم بدر.. عادت سونيا وهي تشعر بقلق شديد بسبب ذلك، وعادت هايدي وهي تَصُبُّ لعنتها على ندى لحديثها عن بدر، حيث لم تكن ندى في حسابان أي منهما.

لكن كيف ذهبَتْ سونيا للعزاء دون أن تخاف مِنْ أن أحلام قد تتذكرها وتعرفها؟.. بالطبع ليستْ سونيا ساذجة إلى تلك الدرجة لتنسى ذلك، لهذا فقد غيرت كثيرا مِنْ شكلها، وَمِنْ ذلك أن لبستْ عدسات بنية اللون لَتُخْفِي عينيها الزرقاوين، وغيرتْ لون شعرها إلى الأسود، واستخدمتْ مِنْ أدوات التجميل الأنواع التي تغير مِنْ الوجه الكثير.. وبهذا ذهبَتْ وعادت دون أن تنتبه لها أحلام أو نرمين.

وكان ياسين وهايدي قد تعجبا مِنْ (النيو لوك) الجديد لسونيا فجأة في هذا التوقيت، فأخبرتْها سونيا بحقيقة أنها كانت تعمل خادمة مِنْ قبل في فيلا الزمالك تلك منذ أكثر مِنْ عشرين عاما، ولهذا فقد تعمدتْ أن تغير مِنْ شكلها حتى لا تعرفها المهندسة أحلام أو أحد مِنْ أقاربها ومعارفها، وبالطبع فإنْ هايدي وياسين يعرفان أنها عملتْ في التسول والخدمة في البيوت.. ليس شيئا جديدا عليهما، لكن ما أشعرهما ببعض الحزي والأسف أن علما أنها عملتْ خادمة في هذه الفيلا تحديدا.

وكانت هايدي قلقة بسبب ذلك خوفا مِنْ أن يعرف حبيبها بدر، لكن ياسين لم يهتم كثيرا مثلها بهذا الأمر، فيارا قد ماتت، وحزنه عليها وعلى أبيها المهندس معتصم كان يَطْفَعِي على كل إحساس آخر.. والأمر المؤكد أنه بكى كثيرا على الأب أكثر مِنْ البكاء على حبيبته الابنة يارا.

وعندما استفاق ياسين من أحزانه بعد ذلك سأل سونيا سؤالاً فاجأها:

— لماذا لم تغيري من شكلك قبل الحادث عندما ذهبنا لمقابلتهم في الفندق؟

كان مجرد سؤال خطر له، ورغم ذلك برقت عيناها وظلت لحظة بلا إجابة، ثم قالت بذكاء:

— لم أكن أعرفهم.. ثم عرفتهم من صورة المهندس معتصم في الجرائد بعد الحادث

قال ياسين حزينا:

— الله يرحمه.. والله لقد أحببتُ هذا الرجل كثيرا.. حتى أكثر من أبي سالم

نظرتُ سونيا له بجانب عينيها وقالت:

— الله يرحمه

وعقبتُ هايدي في حزن شديد:

— يارب.. وبصبرٍ بدر.. وبصبرٍ مدام أحلام

حقا والله مسكينة تلك المرأة أحلام المصري بسبب ما عانته على يد خادمة شيطانة دخلت بيتها للخدمة فزعزعت أركان البيت ودمرته، وما زالت، وما أكثر الخادومات اللاتي تدخلن البيوت كأهن ملائكة، ثم يغادرنها وقد صارت نارا ثم رمادا وهباءً ماثورا على رؤوس ساكنيها!.

لقد عانت أحلام الزوجة والأم معاناة الفقد ضعفين، اختطف الموت المفاجيء ظلّها الرصين معتصم وفلذة كبدها يارا المدللة، فأصابها نتيجة ذلك اختلالٌ شديدٌ في قلبها وعقلها وفكرها وكل حياتها، ولبست السواد لشهور قبل أن تنسى وتعود للحياة امرأة غير متزنة اتزاناً كاملاً.. خفف معاناتها شيئاً ما وجود ياسين بجوارها كل يوم تقريباً، ولم يكن اهتمام ياسين بتلك المرأة الأرملة المكلوّمة نابعا فقط من توجيه سونيا له، بل نشأ في نفسه شيءٌ دفينٌ غريبٌ ساحرٌ كنفس الشيء عند أحلام.. فسّر شيطان ياسين له في النهاية أن هذا الشيء الناشئ لديه هو عشقٌ لها كامرأة، وفسّره أحلام بفكرها المختل أنه ليس فقط اهتماماً زائداً بخطيب ابنتها المتوفاة، فتركّت لنفسها العنان معه إلى حيث تسير الأمور لأية حال.

أما بدر فقد تألم كثيراً لفقد الركن القوي الذي كان يستند إليه في الحياة، لكنه في النهاية سلك نفس الحياة صابراً وهائلاً، فقد ورث كل الأملاك التي لا حصر لها، والتي كانت مثار اهتمام وتدير سونيا لسنين.. بدر ابنها صار وريث الثراء، لكن هايدي الحبيبة ما زالت هي النصف الآخر المعلق في مهب الريح، هي أثيرة سونيا التي تريد لها أروع حياة في ظل أعلى مظاهر الثراء، وهي أثيرة بدر الذي لا يزال يردد لها أنه لا يمكن أن ينساها أو يتزوج غيرها، لكن ماذا لو حدث وعرف بدر فتاة غير هايدي؟ ماذا لو نجحت مساعي نرمين وابنتها ندى في الزج ببدر وثروته داخل شباكهما؟.. وماذا لو اقترب ياسين من أحلام أكثر تحت أية علاقة؟ إذ ليس مستبعداً أن يجعلها ذلك تكتب له الكثير من الأملاك.. وماذا لو

عرفت أحلام الطيبة لأي سبب وبأية طريقة أنها ضحية مؤامرة شيطانية منذ سنين؟.. لا شك في أنها ستتحول من خللها النفسي إلى وحش كاسر، فتطرد بدر إلى سونيا إلى السجون، وتأوي ياسين إلى حضنها إلى القصور.

ما هذه الوسواس يا سونيا؟.. هل أصابك الجنون؟.. مم تخافين ومعك شيطانك اللعين يعقوب الأصفر؟ ويداك ملوثتان بكل الشرور ما بين خطف وحرق وخداع وزنا وقتل وسرقات.. ورغم حياتك الآثمة المظلمة فإنها لم تحل من شعاع نور في قبضة حبيبك المسكين أشرف الأمير، فماذا تريدن؟.. أنت ما زلت مخلصاً لإبليس قرينك اللعين، والآن يُثمر بالفعل أمام عينيك غرس السنين.. أشجارك أمامك مليئة بالثمار اليانعة تنتظر قطافها.. صار ابنك بدر يملك كل الثروة.. صار يحكم كل البستان غير بعض الشجيرات المنزوية لأحلام.. فصبرا.. هل يزعجك أنك لا تزالين تمرين بالبستان من بعيد، تلقين عليه فقط بعض النظرات؟.. تفكرين في أن تتسلقي الأسوار.. لا تفعلي، ولا تتعجلي، فإن مفاتيح دخولك تحملها فقط ابنتك هايدي.. لن تدخل إلا معها، لكن هناك نسخة ضائعة بين أثواب ياسين، وما تملكينه أمام عينيك في يد هايدي خير مما ينطوي بين أثواب الغرباء.

نعم.. ماتت يارا بدلا من أحلام.. هذا ما حدث.. إذن فسوف يُعاد توزيع الرهانات على المتسابقين.. الحياة أكبر حلبة للسباق، والميت طبعاً يخرج من أي سباق.. وسونيا هي أكبر خبيرة في تدابير الفوز.. فلنُسقط

كلَّ رهانها على الحصانين الغاليين الغالين بدر وهايدي، ومع ذلك عليها
أن تراقب مهارة ياسين وأحلام من بعيد، فلربما باغتوها قبل خط النهاية
بأمتار، فيأتي دورهم حتما للخروج من السباق.

اتصلت سونيا بـيعقوب الأصفر لتُسند له مهمة جديدة هي مراقبة
حلبة السباق، كلُّ مَنْ يدخل فيها أو يخرج منها يجب أن يكون داخل دائرة
منظاره من بعيد، بدر وهايدي وأحلام وياسين، والأكثر منهم مدحت
ونرمين وندى.. تحشى سونيا أن تنهض ندى في غفلة منها ومن هايدي
فتسلب قلب وعقل الشاب الثري بدر صاحب المستقبل الرغيد.
لكنها وسط كل مشاغلها لا تنسى أشرف يوما.. سألت يعقوب
عنه.. أخبرها بنبرة سعيدة:

— إنه يجلس معي

طارت من الفرحة وسألته:

— أين؟

— على مقهى بجوار الحديقة الدولية نشرب شايا

أغلقت الخط وطارت له بسيارتها.. نصف ساعة أو أقل، وكانت هناك.

جلبت لهما ألذ الطعام، وجلست معهما على المقهى، وشربت الشاي
والشيشة.. ضاحكت أشرف كثيرا، لكنه لم يكن أشرف الذي تعرفه،
كانت حالته الجنونية في ازدياد.. كلماته معدودة، وجمله قصيرة وإن كانت
حكيمة، كل جملة يُكتب فيها كتاب كشأن أغلب أقوال المجانين.

طلبتُ منه أن يعود معها لشقتها.. نظر إليها ولم يتكلم.. ابتسم فقط،
فأعادت قولها:

— أشرف ألا تسمعي؟.. هيا لنذهب إلى شقتنا

أشار لها برأسه رافضا.. أعادت طلبها مرارا.. لم يستجب.. قال لها
يعقوب:

— اتركيه معي.. سأعتني به

نظرتُ له وقالت بصوتٍ منخفض:

— ومهنتك الأخرى؟

أجابها بصوت منخفض أيضا:

— لا تقلقي.. حتى وإن تركته لمهنتي فهو غالبا لا يفارق هذا المربع
إلا ليعود إليه

— أنا قلقة عليه يا يعقوب

— قلت لا تقلقي

— ما رأيك أن أرجعه إلى المستشفى؟

— اطلبي منه ذلك

وعادت فطلبتُ منْ أشرف أن تذهبَ به إلى المستشفى، فما كان منه
إلا أن رمى كوب الشاي من يده وتركها مسرعا إلى سور الحديقة، فأعدَّ
مكانا، فنام وراح في النوم بمجرد أن وضع رأسه.

جلستُ سونيا بجانبه على الرصيف تمرر أصابعها على شعره وتبكي،
ووقف يعقوب ينظر لأشرف بحقدٍ وحسدٍ شديدين.. لم يعد يتحمّله..
صار يُخفي في نفسه تجاهه الكثير من مشاعر الكراهية والنقمة لأنه يوقن
أنّ هذا المجنون هو العثرة الوحيدة في طريقه نحو قلب معلمته التي
ستبلغ أعلى غايات الثراء خلال أيام، لكنه بكل هدوء طلب من سونيا أن
تنصرف دون قلق وحزن، فانصرفت قلقة حزينة باكية.

دخلت سونيا شقتها بالرحاب.. لم يكن ياسين موجودا.. سألت عنه
هايدي، فأخبرتها أنه خرج ليقابل المهندسة أحلام، فضحكت ضحكة
باردة وسألتها:

— ما حكاية هذه المرأة مع ياسين؟

أجابت هايدي:

— والله لا أعرف يا ماما.. أسأليه عندما يأتي

— مؤكد أنّ بدر يضايقه ذلك كثيرا

— بدر إنسان متحضر جدا يا ماما

فابتسمت وقالت:

— وأنت يا جميل.. ما أخبارك معه؟ وما أخباره معك؟

ابتسمت هايدي قائلة:

— بخير يا ماما.. اتصل بي منذ ساعة وتحدثنا كثيرا.. كان يريد أن يتحدث معكِ.

وهنا أحسَّت سونيا فجأة بقلبها يخفق عندما سمعتُ أن بدر يريد أن يتحدث معها.

فهل يُعقَل أن تتحدث سونيا إلى ابنها بعد كل هذه السنين؟.. إنها ستكون المرة الأولى التي تنتقل فيها الكلمات بينهما.. حقا إنه لشعورٌ جديدٌ وجميلٌ بدأ يخالجهما لم تشعر به من قبل.. عاشت طوال عمرها تطرد عن نفسها مثل تلك المشاعر، كانت تكتفي بأن تراه من بعيد، كانت تغير كل طريق أو مجال قد يقودهما إلى أن يتواجهان.

قالت لهايدي وقد تظاهرتُ بأن الإرهاق يسيطر عليها:

— ليس الآن يا هايدي.. أنا متعبة

ودخلتُ حجرتها، ولم تخرج منها لساعات.. كانت تبكي، تبكي على كل شيء، فهذا حبیبها أشرف الأمير يعيش شريدا في الشوارع يرافقه جنونه وبصارع شتى أنواع المخاطر، وهذا ابنها تتحاشى أن تتحدث إليه، تخشى أن تنفلت منها كلمة أو اعتراف فتفسد كل شيء، وقد صارت على شفا كلمة واحدة كأن يناديها بدر (أمي) فتتهار وتدمر كل تدابير السنين. ودخلتُ هايدي عليها حجرتها لتطمئن عليها فوجدتُ خيوطا من الدموع على خديها، فسألتها:

— هل كنتِ تبكين يا ماما؟

تمالكْتُ سونيا نفسها وقالت:

— لا يا حبيبتى.. فقط فكرتُ في أنكِ قد تتزوجين قريبا وتتركيني

ابتسمتْ هايدي وقالت:

— ومَنْ قال إنني سأتركك هنا.. سأأخذكِ معي.. هكذا قال بدر

فنظرتُ لها منشرحة الصدر وسألتها:

— ماذا قال لكِ بدر؟

— قال إنه سيأخذكِ لتعيشي معنا بالفيلا.. وستكوني معنا في كل

مكان ننتقل إليه

فشعرتُ بفرحة شديدة غطَّت وجهها ثم خفتُ عندما تذكرتُ

أشرف فقالت:

— والدكتور أشرف يا هايدي.. كيف أتركه؟

— بدر أخبرني أنه سيكون أيضا معنا.. الفيلا واسعة جدا يا ماما

— أعرف يا حبيبتى.. أعرف

وجلستْ هايدي بجوارها وقالت:

— عندي خبر مهم لكِ يا ماما.. مهم جدا وسعيد

— ما هو؟

— بدر سيأتي غدا ليزورنا هنا في شقتنا.. سيأتي وحده

وهنا خفق قلب سونيا وقالت:

— هل هو مَنْ قال إنه سيأتي؟

— نعم سيأتي على الغداء

فنهضت سونيا مِنْ سريرها وهي تنظر حولها بالحجرة وتقول:

— إذن يجب أَنْ نستعد لذلك.. يجب أَنْ نزين البيت بالورد والأزهار

ومدت يديها تطوق كتفي هايدي تسألها:

— ما أنواع الطعام التي يحبها بدر يا هايدي؟

— ماما لا تُتعبِي نفسك.. يكفي أَنْ نشترى طعاما جاهزا

— لا يا هايدي.. يجب أَنْ أطبخ لابني الطعام الذي يحبه

ونظرت لها هايدي وقالت بكل حب:

— حبيبتي يا ماما.. هل صرتِ تعتبرينه ابنك مثل ياسين.. هو أيضا

مثلك عندما يسأل عنك دائما يقول ماما.. كنتُ أظنه في البداية

يقصد المهندسة أحلام.. ثم عرفتُ أنه يقصدك

فنزلت الدموع على خديها وانخرطت في البكاء وقالت:

— حبيبي يا ابني

فاحتضنتها هايدي قائلة:

— حبييتي يا ماما

وخرجت سونيا من الحجرة وأمسكت بورقة ثم نادى على هايدي وقالت:

— هيا أمليني كل الأكلات والمشروبات التي يحبها بدر

وفي الصباح الباكر خرجت سونيا، واشترت كل شيء ثم عادت وجهزت أشهى أنواع الطعام، وأروع الثياب، وملأت البيت بالورد والزهور، ولم يبقَ إلا ساعة واحدة على وصول بدر إلى البيت.

وإذا بسونيا وهايدي يُفاجآن بخروج ياسين من حجرته إليهما مرتديا أحسن الثياب.. قالت سونيا:

— متى عدت بالأمس يا ياسين؟.. انتظرتك حتى غلبني النوم

— عدت بعد الساعة الواحدة

— أين كنتَ

وتردد ياسين في الجواب ثم قال:

— كنتُ مع مدام أحلام

فابتسمت سونيا وقالت:

— ما شاء الله.. أما زلتَ وفيا لحبيبتك يارا إلى هذه الدرجة؟

ونقل ياسين عينيه بين هايدي وسونيا ثم قال:

— الله يرحمها

قال ذلك ثم لجأ للصمت، فقالت سونيا:

— هل تعرف أن بدر سيكون هنا بعد أقل من ساعة؟

فقال ياسين وقد تفاجأ بذلك:

— لا.. أنا لا أعرف ذلك

ونظرت سونيا لهايدي قائلة:

— لِمَ لَمْ تُخبري ياسين يا هايدي؟

— هو خارج البيت دائما وتليفونه مُغلق باستمرار.. وعندما عاد

كنتُ قد نمت

نظرت سونيا إلى ياسين وقالت:

— المهم الآن أن بدر قادم وغالبا سيخطب هايدي منا اليوم.. أظنك موافق

— طبعا موافق.. لكن.....

نظرت له سونيا تنتظر أن يُكْمِل فلم يُكْمِل فسألته:

— لكن ماذا؟

— لن أكون موجودا

— ماذا تقول؟!

— مدام أحلام دعنتني إلى الغداء عندها في الفيلا اليوم

— ألا تعرف مدام أحلام أنَّ بدر قادم إلينا اليوم؟

— هي لم تخبرني بشيء

— عموما كنتُ أفضل وجودك معنا.. لكن أنتَ حر

ابتسم ياسين وقال:

— سنجلس معا كثيرا الأيام القادمة يا ماما.. لكنني خارج الآن لزيارة

مدام أحلام

ضحكتُ هايدي قائلة لأمها سونيا بينما انصرف ياسين:

— يا لتلك الصدفة.. ياسين ذاهب لزيارة أم بدر.. وبدر قادم لزيارة

أم ياسين

أجل، فإنَّ لدينا زائرين، لكن ليس كما ذكرتُ هايدي، إنما حقيقة

الزائرين أنَّ الأول ياسين الذاهب إلى أمه أحلام، والآخر بدر الذي

سيأتي ويطرق الباب الذي خرج منه ياسين منذ نصف ساعة قادما إلى أمه

سونيا، لكن يا لبشاعة ما صنعته سونيا الشيطانة وتصنعه الأيام!.. ياسين ذهب إلى أمه عاشقا لها وعاشقة له.. نعم تلك هي الحقيقة التي صارت إليها الأمور، وبدر قدم إلى أمه ليخطب أخته التي تعشقه ويعشقها.. فهل تستفيق سونيا والجميع يقفون على شفا بحر عميقٍ من الوقوع في المحارم التي تهتز لها أركان السماوات؟ أم أنها ستظل تستجيب لسيطانها الذي يدفعها دفعا إلى ترك الجميع يغرقون؟

دخل ياسين الفيلا للمرة الأولى.. كانت كل اللقاءات السابقة بين أحلام وياسين في الخارج بين الناس.. مشاعر الود والأحاسيس الغريبة الغامضة قد جَرَتْ مجراها بينهما لفترة طويلة جدا.. بدأت قبل موت يارا لمرتين، مرة في طفولة ياسين، ومرة يوم حفل التخرج، وكلمات الأسى والحسرة والمودة والبكاء سويا على يارا بدأت تجري بينهما بعد موتها لشهرين، ثم خَفَتْ صوتُ البكاء على الميت ليصير الحي أبقي وأقرب، وليحل مكان دموع العين خفقان القلب بالعشق الصافي من أحلام المصابة باختلال شديد، والعشق الممزوج بالطمع من ياسين الممتدة عينه إلى ثروتها، وجرى ذلك كله بينهما على وقع عزف شيطاني مثير ليكون هذا اللقاء الحرام.

وكانت أحلام تعرف أن بدر ذاهب لزيارة هايدي في شقتهم بالرحاب، لكنها لم تخبر ياسين بذلك.. أرادت كامرأة حبيبة أن تختبره أول اختبار حب.. هل سيختار أن يفني بوعده معها ويذهب لفيلتها في الزمالك أم يستجيب لطلب أمه وأخته فيجلس لاستقبال الزائر؟

ونجح ياسين في اختبار أحلام.. دخل الفيلا.. صار مأخوذاً منذ خطواته الأولى فوق رخام سلالها العتيق.. أذهلته حديقته الواسعة التي تحوي أنواعاً مختلفة من الورود والأزهار والأشجار المثمرة التي تفوح منها روائح طيبة، وراقه وجود الفيلا في هذا المكان من الحي الراقي الذي تُقاس فيه الأرض بالسنتيمترات ليدفع فيها أبهظ الأثمان.. كل شيء لمسته عيناه كان غالياً ثميناً لا يقدر بأموال.

لعب هذا الثراء الفاحش دوراً كبيراً في أن يحرك أوتار الحب بداخل قلبه من يارا لأحلام، ولم ينسَ بالطبع أن أول عهده بـثراء هؤلاء الناس منذ زار المهندس معتمصم في شركته.. لا يعرف هذا الشاب الطامع أن كل ما تقع عليه عيناه حوله إنما كان يجب أن يكون له لو لم تدخل خادمة إبليس تلك الفيلا الثرية.. إنه مالكة الحقيقي إن كانت الأقدار قد جرت دون أفاعيل الشيطانة التي ربته.. لا يعرف هذا الشاب أن بدر الذي يخافه ويخاف أن يرفضه هو الذي يجب أن يخاف.

فتحت أحلام الباب.. كانت الفيلا خالية من الخدم في هذا اليوم بأمرها.. أعدت بيديها كل أنواع الطعام التي يحبها ياسين، تماماً كما أعدت سونيا الطعام لبدر.. لكن سونيا الشريرة أعدته وهي تعرف أنها تعدّه لابنها، وأحلام الطيبة أعدته وهي تعرف أنها تعدّه لحبيبها، وهو في الأصل ابنها.

نظر لها وتفحصها في أرقى الثياب وأثمنها.. قالت له:

— مرحبا حبيبي ادخل

قال لها:

— حبيتي فيلتك جميلة

قال ذلك ثم أمسك بيديها ورفعها إلى فمه وقبلها وهي تقف مبتسمة سعيدة بذلك.. لا بأس.. الأهم أن يقفا عند هذا الحد.. قالت:

— تفضل

دخل إلى الصالون فجلس.. اتجهت ناحية منضدة قريية وصبت كوبين من العصير لهما.. نعم كوبين من العصير لا شيء آخر.. انزوى ياسين بعينه فتأكد أنه لا يوجد غيرهما بالمكان.. شرب بعضا من العصير، وشربت بعضا كما شرب، ودار بينهما كلام لدقائق، ثم دعت له لائحة الطعام المعدة قبل قدومه.

جلسا متقاربين وسط الشموع والزهور وروائح الطعام الشهية تحت الأضواء المتلائية الرومانسية، وكانت هناك موسيقى تلمس القلب لمسا ساحرا مؤثرا.. قالت له بعد أن تذوق الكثير منه:

— هل يعجبك طعامي؟

— لم أكل طعاما لذيذا هكذا من قبل

— بالهنا والشفاء يا حبيبي

مدّت يدها إلى فمه بشوكة بها قطعة من اللحم.. تناولها وشكرها
بابتسامة دون كلام.. قالت له:

— أريدك أن تساعد بدر في إدارة شركاتنا

انشرح قلبه وقال:

— طبعا طبعا

— بدر يحب أختك هايدي كثيرا

— وهايدي تحبه كثيرا

— وأنت يا ياسين؟.. من تحب؟

— أنت تعرفين من أحب

— من؟

— أنت يا أحلام

ابتسمت وسرى في وجهها حمرة الخجل كما لو كانت فتاة في العشرين..

قالت له:

— وأنا أيضا

— أنت ماذا؟

— أحبك يا ياسين

— أحلام.. ما رأيك أن يكون زفافنا كلنا في ليلة واحدة؟

— هذا ما فكرتُ فيه؟

— أنتظر بشوق هذه الليلة

— لِمَ يا حبيبي؟

— أنتِ تعرفين؟

— أنا أعرف أنك مجرم يا ياسين

— لا تظلميني يا حبيبي

— أموت قبل أن أظلمك يا حبيبي

وصمت ياسين لبرهة لا يتحدث، وبدأ عليه القلق فسألته أحلام:

— ما لك يا ياسين؟

قال لها وهو يعبث بقطعة من اللحم:

— أخشى ألا يوافق بدر على زواجنا

ابتسمت أحلام وقالت:

— اطمئن.. لقد حدثته بالأمس في ذلك.. نعم لقد غضب في البداية
غضباً شديداً ورفض تماماً.. ثم أقنعتني بأنني أريدك وأريد أن
أزوجهك.. وأنه ليس في ذلك عيب فافتنع بكلامي

— إذن هل وافق؟

— وافق.. وإن كان يساوره بعض الغضب.. لكن لا تقلق يا حبيبي..
كل شيء سيجري كما نريد

وشعر ياسين بكثيرٍ من الارتياح، وانتهى العاشقان من الطعام.. نقلا
جلستهما إلى مكان أكثر راحة.. قدمت له أنواعا كثيرة من العصائر وسط
أمواج الموسيقى الهادئة.. انتظرت أنه يطلب منها أن يرقصا سويا.. طلب
ذلك فعلا.. فرحت جدا.. وقفا ليرقصا.. لا بأس، طالما أنه مجرد رقص..
قد يرقص هذه الرقصة أخ وأخته، وأب وابنته، وابن وأمه.. نعم لا بأس
إن كان رقصا فقط دون تلامس مقصود.

وقفا.. تشابكت الأيدي، وشحذت الموسيقى كل كوامن النشوة
بداخلهما.. فليرحمهما الله.. يا إلهي!.. تلامس الجسدان عن قصد متبادل..
يا إلهي!.. أو شكت السموات أن تهتز.. اقتربت الشفاه.. يا ربي!.. زاد
اقترابهما.. ارتفعت الأيدي نحو مناطق الحظر المحرمة.. رن جرس هاتف
ياسين.. الحمد لله.

أسرع لهاتفه يرد.. كانت هايدي تخبره بأن يحضر حالا، فقد تُوفيت
الجلدة وعد.. استأذن ياسين مِنْ أحلام سريعا.. وللمرة الأولى تقدم الجلدة
وعد العجرية معروفا وخيرا.. قدمته بعد موتها.. لقد فرقت بين أم وابنها
قبل نزول أبشع الحرام.

(٢٠)

النهاية

بعد نزول ياسين إلى أحلام بنصف ساعة.. كان بدر قد دقَّ جرس الباب.. فتحتْ هايدي الباب.. دلف بدر إلى الداخل يلبس ثياباً أنيقة غاية في الجمال.. تبادل مع هايدي ابتسامة صامتة كسلام.. كانت سونيا تقف على بعد أمتار منه تحمل باقة زهور كانت تنقلها من مكانٍ لمكان رأت أنها ستكون أجمل فيه.

وكانت المرة الأولى التي يرى فيها بدر سونيا أم هايدي وأمه.. اثنان وعشرون عاماً لم تتلامس يد أم وابنها وهما على بعد ساعة أو أقل بالسيارة، في حين أنَّ هناك أمّاً أخرى وابنها في نفس الوقت يتلامسان لمسا محرّماً دون أن يعلما.

اتجهتْ سونيا ناحية بدر وبيديها باقة الزهور.. نسيَتْ أن تضعها في مكانها الجديد.. جرفها الشوق لأنْ تحتضنه.. ناولت الزهور لهايدي.. احتضنته بكل أشواق السنين.. انتابه هو الآخر إحساسٌ جميل وهو بين ذراعيها.. سالت الدموع من الجميع.. قالت له:

— أهلا بك يا حبيبي.. نَوَّرَت البيت

— شكرا يا ماما

كادت تقع على الأرض مِنْ وقع هذه الحروف الأربعة على قلبها الأموي
الذي راح ينبعث مِنْ جديد.. ماذا فعلتِ بنفسكِ يا سونيا؟.. فلتذهب
أموال الدنيا إلى الجحيم لتغلب كفة هذه الحروف الأربعة.. آه لو وُلِدَ كُلُّ
جنين مِنْ بطن أمه ناطقا بكلمة (ماما).. إذن لما وجدنا لقيطا يُرْمَى على
أرصفة المساجد وقارعة الطرق، وما وجدنا أما قاسية القلب تهمل طفلا
لها عند خادمة تربيته لها، وما وجدنا شيطانة كسونيا تضحي باثنين وعشرين
عاما ضائعة مِنْ عمر ابنها بعيدا عنها مقابل أموال تذهب وتحجى..

جلس الابن للطعام بين أمه وأخته التي جاء يخطبها.. تسابقتُ إليه
يدان تمتدان إليه بأشهى الطعام.. كان يميل أكثر نحو يد الأم، ولاحظت
هايدي الميل الجارف مِنْ أمها ناحية خطيبها، لا تعلم أنه ميل أم لابنها
العائد مِنْ غربة السنين.. قالت سونيا لبدر تسأله عن المرأة التي آوته كل
هذه السنين:

— ما أخبار المهندسة أحلام؟

— بخير يا ماما.. تتمنى أَنْ تراكِ

— وأنا أيضا

قالت هايدي:

— الله الله.. كأني غير موجودة

فابتسم بدر قائلاً لسونيا:

— كنتُ أتمنى هذا اليوم منذ زمن.. هايدي حدثني كثيراً عن

حضرتك وعن كفاحك ونجاحك

نظرت سونيا ناحية هايدي وابتسمت قائلة:

— الدور عليكم لتكملا رحلة حياتنا.. لقد كبرنا وهرمنا

نظر لها بدر ثم قال:

— بالعكس.. حضرتك ما شاء الله تبدين شابة

ضحكت سونيا وقالت:

— شكراً يا حبيبي

وقالت هايدي تمآزحهما:

— هل يروق لكما أن أنصرف.. لماذا لا أسمع منك هذا الكلام الجميل

يا أستاذ؟

وبعد الطعام أخذت هايدي بدر من يده إلى الشرفة التي تطل على

حديقة كبيرة جميلة.. جلسا يتحدثان ويضحكان كثيراً، ثم ذهبت لهما

سونيا بالشاي والحلوى.. وقف بدر، وهياً لها مقعدا لتجلس.. جلست فأخبرها أنه يريد أن يخطب هايدي رسمياً.. اضطربت سونيا، ولم تعرف بأية كلمة تجيب في هذه اللحظة فلاذت بالصمت، ثم أخبرها أنه يريد أن يكون الزواج بعد أربعة أشهر، خلالها يمكنه أن يجلب لها أثاث عسهما الثري من أوروبا فلاذت سونيا بالصمت أيضا ولم تعقب.. سأها بدر عن سبب صمتها، فاستأذنته دون رد.. ذهب هايدي خلفها مندهشة من حالة أمها.. سألتها:

— ماما.. ماذا بك؟

— لا شيء يا هايدي.. فقط أشعر بالسعادة

— لكن هذا لا يبدو يا ماما

وسكتت سونيا فنظرت لها هايدي بقلق، فقالت سونيا تراوغها:

— كان يجب أن تأتي معه والدته يا هايدي.. هذا ما أسكتني وجعلني لا أعطيه كلمة

— المرة القادمة ستأتي والدته.. سأخبره بذلك

— إذن عودي إليه يا هايدي.. لا تتركه يجلس وحده

— وأنت يا ماما.. ألن تأتي؟

— اذهبي وسأتي خلفك

وعادت هايدي إلى بدر في الشرفة الواسعة، ثم دقَّ رنين هاتف سونيا.. ردتُ سريعاً، فإذا بمنْ يخبرها أنَّ أمها وعد قد ماتت، فاتجهتُ سونيا إلى الشرفة، وأخبرتُ هايدي وبدر وهي تتظاهر بالتأثر والحزن، فاتصلتُ هايدي بياسين تخبره وتطلب منه أن يعود سريعاً للذهاب للعزاء.

وبعد واجبات العزاء بيومين اتصلتُ سونيا بالشيطان يعقوب الأصفر كي يقابلها في المكان المعهود.. جاء فسألته أول شيء عن أشرف، فأخبرها أنه بخير، وسألته إنْ كان هناك شيئاً يعرفه أكثر مما تعرفه في مهمته الجديدة لمراقبة الجميع خاصة مدحت ونرمين وندى، فأخبرها بأنه قد رصد مقابلات متكررة وحارة تجمع أحلام وياسين، أما هايدي وبدر فإنهما يتقابلان بين وقت وآخر في أماكن بين الناس، وهناك زياراتٌ دائمةٌ منْ مدحت ونرمين وندى إلى فيلا الثراء.. قالت ليعقوب:

— شكراً لك يا يعقوب.. إنني أتعبتك كثيراً معي

فابتسم قائلاً:

— كل شيء بضمنه يا معلمتي

— هل قصرتُ معك في شيء من قبل يا يعقوب؟

— صراحة لا

— يعقوب.. فعلا ياسين وأحلام لا بد أن يتزوجا.. لكن فكّر معي

— فيم أفكّر؟

— كيف أراجع عن زواج بدر وهايدي دون أن أخسر شيئا؟

فأسرع غاضبا يقول:

— ألن تتوقفي عن هذا التردد؟

— لا أريد أن يتزوج ابني من ابنتي

— لكن التراجع عن ذلك خطر على الجميع

— وليكن يا يعقوب

— معلمتي

— نعم

— ألم يتزوج كل من قابيل وهابيل أختيهما؟

— بلى سمعتُ عن ذلك

— معلمتي

— نعم يا يعقوب

— استمري.. الدنيا كلها ستكون بين يديك ويدي ابنك وابنتك..

لقد علمتُ من مراقبتي لهؤلاء الناس أنهم أثرياء جدا.. عندهم

أموال لا حصر لها

- هؤلاء الناس هم بدر ابني يا يعقوب.. هذا يكفيني
- وأحلام؟ ماذا لو علمتُ بما فعلته بها؟
- ماذا يمكنها أن تفعل يا يعقوب؟
- أقل شيء.. ستأخذ ياسين.. وتطرد بدر وتحبسك
- سأعترف لبدر فقط
- قد لا يصدقك بدر.. قد يحبسك هو أيضا
- معقولة ابن يحبس أمه؟
- فضحك يعقوب ضحكة ساخرة وقال:
- ومعقولة أم تحرم ابنها منها لما يزيد على عشرين سنة؟
- فعلتُ ذلك من أجله
- لن يصدق بدر ذلك يا معلمتي.. ففكري جيدا
- فسكتت قليلا ثم قالت:
- إذن يمكنني أن أرفض زواج بدر من هايدي وفقط دون أن أخبره
- بالحقيقة
- وهل ستحملين قضاء بقية عمرك بعيدة عنه؟.. وأيضا هل
- ستحملين أن تكسري قلب هايدي.. وأيضا هل ستحملين أن
- يتزوج بدر من ندى أو غيرها لتستحوذ زوجته الغالية على الثروة؟

- آه يا يعقوب.. أنا حائرة جدا
- احذري مَنْ أَنْ تظلي هكذا.. غالباً تكون الحيرة الدائمة بداية السقوط
- حقيقي لا أعرف ماذا أفعل
- هوني على نفسك يا معلمتي
- كيف؟
- كأنك لا تعلمين شيئاً
- كيف؟
- هذا العالم الواسع.. هل تنكرين أَنَّ فيه أخوة وأخوات تزوجوا وأنجبوا وماتوا دون أَنْ يعلموا بالحقيقة؟
- نعم هذا أمر وارد يا يعقوب.. لكنني أعرف أنها أخ وأخت
- اعتبري نفسك لا تعرفين
- أَنْتَ شيطانٌ يا يعقوب
- وَأَنْتِ شيطانة يا معلمتي
- لكنني شيطانة تريد أَنْ تتوب
- معلمتي.. التوبة تحرق الشيطان
- وماذا في ذلك؟.. هذا أمر مطلوب

— وهل سيصمت الشيطان بينما تحاولين حرقه؟

— ماذا قد يفعل؟

— الكثير يا معلمتي.. الكثير.. فاستمري فيما بدأتيه من سنين.. حان

وقت قطف الثمار.. ويجب ألا ننشغل عنها أو نتأخر.. ستسقط

الثمار إلى الأرض وتذبل تحت الأقدام

— يمكنني أن أحفظ نفسي وأولادي من ذلك يا يعقوب، وليحدث

ما يحدث

— في زمن السقوط الكل خاسر يا معلمتي

صمتت قليلا ثم قالت:

— معك حق يا يعقوب

ومرَّ أسبوع ثم حدث شيء جعل سونيا تمضي في طريقها وتعجل

بمسألة الزواج، ليس فقط بين ياسين وأحلام، بل أيضا بين بدر وهايدي..

دخل ياسين على سونيا يوما بينما كانت جالسة مع هايدي يتحدثان عن

بدر وينتظران أن تزورهما المهندسة أحلام معه.. جلس بجانبها ثم قال:

— ماما.. هناك موضوع أريد أن أفاتحك به منذ فترة.. لكنني كنت مترددا

— تحدث يا ياسين.. أي موضوع هذا؟

— أحلام

— ما لها؟

— أعرف أنّ الموضوع غريب ولكن.....

ابتسمت سونيا، فقد خمنتُ مع هايدي ما يدور بذهنه فقالت:

— أنتَ تريد أن تتزوج أحلام.. أنا أعرف

فتشجّع ياسين وقال:

— إنها غنية جدا يا ماما.. جدا

وبدا على هايدي علامات الاستغراب والضيّق في حين ضحكتُ

سونيا وسألته:

— هل تحبها؟

— طبعاً أحبها وأحب ثروتها.. وإن كان شعوري بحبها أراه غريباً

و.....

قاطعته مسرعة:

— هذا بسبب فارق السن.. الأهم لماذا بقيتَ كل هذه الفترة دون أنْ

تخبرني بحبك لها؟

— كنت خائف من رد فعلك

— ولماذا أخبرتني الآن؟.. ألم تعد تخاف من رد فعلي؟

سكت لحظة كأنه يفكر ثم قال:

— ما جعلني أخبرك الآن هو خوفي من أن تضيع أحلام من يدي

— وما الذي يضيعها من يدك؟.. ألا تحبك؟

— طبعاً تحبني.. لكن تقدم لها مدحت أخو المرحوم زوجها معتصم..

يريد أن يتزوجها وكل العائلة توافقه وتضغط على أحلام.. كلهم

طبعاً طامعون فيها.....

وقاطعته سونيا مسرعة تسأله:

— كيف عرفت ذلك؟

— أحلام نفسها هي من أخبرتني

— هل أخبرتك بشيء آخر؟

— نعم

— ما هو؟.. تكلم

نظر لها يدي ثم قال:

— نرمين عمة بدر.. تريد أن تزوج ابنتها ندى لبدر.. وأيضاً كل

عائلتهم يريدون ذلك

فوقفت سونيا غاضبة وقد شعرت بتوتر شديد وقالت:

— وبدر.. ما رأيه؟

— لا أعرف

فنظرتُ سونيا لهايدي وسألتها:

— هل أخبركِ بدر بشيءٍ من هذا؟

— لا يا ماما

وراحت سونيا تذهب وتجيء ثم سألتُ ياسين:

— وما موقف أحلامٍ من ذلك؟

فوقف ياسين قائلاً:

— الحقيقة أنَّ أحلام تشعر بضيق شديد أمام كل هذا الضغطِ من

العائلة والمعارف

فأسرعتُ سونيا تسأله:

— وما رأيها؟.. ماذا ترى أنَّ نفعل؟

— طلبتُ مني أنَّ نسارع بالزواج

فصاحت سونيا:

— طبعاً.. لا بد أنَّ نسارع بالزواج

وطلبتُ سونيا من ياسين الاتصال بأحلام.. أرادت أنَّ تحدثها

سريعاً.. اتصل ياسين.. أعطى الهاتف لسونيا.. أخبرتها في التليفون

في مودة ورفق أنّ بدر خطب منها هايدي، وها هي تخطبها لياسين
وستزورها غدا للاتفاق على إجراءات الزواج.. فرحت أحلام ووافقتها
في كل شيء.

أوقفت سونيا سيارتها بجانب الفيلا.. نزلت منها، وبالطبع لم تنسَ
قبل الذهاب أن تتحول إلى شكلها الجديد بالعينين البنيتين والشعر
الأسود، ونزل ياسين وهايدي يسيران بجانبها.. صعدوا سلم الفيلا..
استقبلهم بدر وأحلام استقبالا حسنا بعد أن دخلوا من بوابتها الرئيسية
الكبيرة.. جلس الجميع، ثم دخلت خادمتان بأكواب وكؤوس العصائر
وأطباق الحلوى.. نظرت لهما سونيا.. كانت إحدهما كبيرة السن،
وكانت الأخرى شابة جميلة.. ابتسمت سونيا ابتسامة لم يفهمها أحد
وشردت بذاكرتها.. قطع ذهنها مع الابتسامة أكثر من عشرين عاما إلى
الوراء في ثانية.. قررت أن تطرد الخادمة الشابة بمجرد أن تسكن الفيلا
مع هايدي وبدر.. فمن يدري؟.. ربما تفعل الخادمة الشابة ببدر ما فعلته
هي بمعتصم شرف الدين.. انتبهت على صوت أحلام تسألها:

— أين الدكتور أشرف؟.. لماذا لم يأت معكم؟

قالت سونيا كاذبة بابتسامة قلقة:

— قد سافر لحضور مؤتمر طبي في لندن

وكانت أحلام تعيد النظر لسونيا تكرر.. فقد شعرت أنها تعرفها..
عندما رأتها المرة الوحيدة السابقة يوم العزاء لم تكن في وعيها الطبيعي
بسبب صدمة فقد ابنتها وزوجها معا، ولم ترَ يومها وجه سونيا هكذا عن
قرب كما تراه اليوم.. وهي الآن وإن كانت غير متزنة كما يجب إلا أنها
شعرت أنها تعرفها.. سألتها:

— أين رأيتكِ قبل ذلك يا مدام سونيا؟

اضطربت سونيا واهتزَّ كأسُ العصير بيدها ثم قالت:

— ربما في التلفزيون

— ما شاء الله.. في أي برنامج؟

— كان هذا منذ فترة.. برنامج عن الصناعة

وتعمد ياسين أن يغيّر مجرى الحديث بسرعة، فسأل أحلام عن توقيت
الزفاف وإعدادات الزواج التي تريدها.. التفتت له وقالت في سعادة:

— الأمر لكم.. أنا موافقة على كل شيء

قالت سونيا:

— رأيي أن نعقد القران للجميع في يوم واحد.. ويكون الزفاف في

نفس اليوم أيضا

قالت أحلام بابتسامة متفائلة:

— أنا موافقة

قالت سونيا:

— ما رأيكم أن يتم كل ذلك يوم الخميس القادم؟ .. أرى أن الفيلا جاهزة

هزت أحلام رأسها بالموافقة، فنظرت سونيا لبدر وسألته:

— ما رأيك يا بدر؟

— موافق طبعاً.. وسنعيش جميعنا هنا في الفيلا في البداية ثم ننتقل أنا

وهايدي لفيلتنا في التجمع بعد تجهيزها كما تريد هايدي

فنظرت سونيا لهايدي وابتسمت ثم قالت:

— هذا يكون أفضل.. حتى نكوننا قريبين مني في الرحاب وأزوركما باستمرار

فأسرع بدر قائلاً لسونيا باسمًا في أدب:

— ماما.. أينما سكنا فأنت والدكتور أشرف ستكونان معنا

نظرت له سونيا بحنانٍ وشغفٍ، وسالت على عينيها الدموع، فنظرت

لها أحلام، وقامت على الفور من مكانها بعلبة مناديل ورقية.. ناولتها

مندبلاً، ثم جلست بجوارها وربتت على كتفها واحتضنتها قائلة:

— من اليوم أصبحنا جميعاً عائلة واحدة

لكن.. لماذا بكّت الشيطانة؟.. بالطبع بكّت لأسباب كثيرة.. بكّت

لأنها صارت تسمع كثيراً كلمة (ماما) من بدر ابنها.. وبكّت لأن ابنها

حريص على أن تسكن أمه معه، ليس هي فقط، بل وحببها قرة العين

أشرف الذي اشتاقت كثيراً له، وبكّت لأنها اطمأنت على مستقبل ابنتها

الحبيبة هايدي، وبكتُ لأن ياسين بزواجه من أحلام قد أنهى أطماع مدحت ونرمين، وبكتُ لأنَّ حُلْمَ الثراء يتحقق أمام عينيها، وبكتُ لأنَّ النهاية التي أرادتُها لكل معاناتها وصبرها قد بدأتُ ترتسم لها رائعة كما أرادتُها، وبكتُ لأنَّ الخميس القادم هو آخر عهدها بالشقاء، وأول عهدها بالنعيم.

وانشغلتُ سونيا ببقية الأسبوع، فلم تذهب لرؤية أشرف والاطمئنان عليه، ولم تكن قد ذهبتُ لرؤيته قبل ذلك اليوم ببضعة أيام، فاتصلتُ بيعقوب الأصفر لتطمئن منه عليه ولتخبره بآخر الأخبار، فكان هاتفه مغلقا.. أعادت الاتصال كثيرا، لكنه في كل مرة كان مغلقا، فالتفتتُ لتجهيزات الزواج وهي في غاية القلق على حبيبها، فكانت لا تترك ساعة تمرُّ عليها دون اتصال.

وجاء الخميس أخيرا، يوم توقيع عقد الوصول إلى حُلْمِ الثراء بعد سنين انتظار.. وتهيأتُ الفيلالزواج أم بابنها وأخ بأخته في مأساة يهتز لها عرش الرحمن، ولا يعلم الحقيقة على وجه الأرض كلها غيرُ مخلوقين، الأولى شيطانة اسمها سونيا المحروس، والآخر شيطان اسمه يعقوب الأصفر.

واستيقظتُ الشيطانة صباح الخميس وهي أكثر قلقا على أشرف، ولم تتوقف طوال الليل عن معاودة الاتصال بيعقوب.. تغفو ثم تفيق فزعة فتسرع لتتصل بيعقوب فلا تجد إلا هاتفها مغلقا، فتغفو ثم تصحو لتتصل، وهكذا كانت حتى غلبها النوم قبل الفجر بساعة فلم تستيقظ منه إلا الثامنة.. فتحتُ عينيها، فكان أول ما فعلته أن مدَّتْ يديها على هاتفها بجانبها فأعادت الاتصال به، لكن هاتف يعقوب كان لا يزال مغلقا كالعادة.. ساورتها شكوكٌ كثيرة لا تبشر بخير، كُلُّها حول أشرف، وكلُّها مقلقة.

هذا ما سيطر على تفكيرها، فأكملت استعداداتها في هذا اليوم الفاصل على مضض حتى جاءت الساعة الثانية ظهرا دون أن تسمع صوت يعقوب.. لم تتحمل أكثر من ذلك.. أسرعت وارتدت ملابس الخروج دون تردد.. اتصلت بهايدي وهي في طريقها لسيارتها تخبرها أنها ستغيب لساعتين، وكانت هايدي قد ذهبت للكوافير قبل ذلك بساعات بصحبة صديقاتها.. ردت هايدي تسألها:

— أين تذهبين في هذا اليوم يا ماما؟

— ساعتين فقط.. سأعود سريعا

— لا تتأخري أرجوك يا ماما

قالت غاضبة:

— قلت لن أتأخر

— لكن ماذا لو تأخرت؟

— اذهبا أنتما.. معكما أصدقاؤكما.. وكل شيء جهزته لكما.. لكن لا

تعقدوا القران إلا في وجودي

— أرجوك يا ماما لا تتأخري

— هايدي لن أتأخر.. سأعود سريعا

— المأذون سيعقد القران الثامنة.. لا تتأخري

عادت وصرخت فيها:

— وما الذي سيؤخرني حتى الثامنة؟

— ماما لا تنسي أنك ستعودين إلى الشقة أولاً لتغيير ملابسكِ

— أعرف يا هايدي.. لا تقلقي.. سلام

وقادت سونيا سيارتها، وليس بذهنها غير أشرف، لا ترى غير صورته، ولا تسمع غير صوته الهادئ الجميل، ولا تتمنى في لحظتها تلك غير لمسات يده الحانية، وكانت تقود السيارة على سرعة زائدة مجنونة، تنهب الطريق نهبا، تريد أن تصل إليه وتطمئن عليه ثم تعود سريعا.. وما زالت تتصل ببعقوب تكرارا، وما زال هاتفه مغلقا.

وصلتُ حتى سور الحديقة الدولية.. تمنَّتُ منذ وصلتُ لو ترى يعقوب فورا فيخبرها أنَّ هاتفه قد ضاع أو سُرق أو تَلَف، وأنَّ أشرف هناك بخير ينام بجانب السور أو يجلس بالمقهى يشرب شايا، لكنها لم تجد يعقوب.. قررتُ أن تذهب وتسأل في المقهى.

أوقفتُ سيارتها جانبا.. نزلتُ منها.. تقدمتُ مباشرة ناحية صبي صغير يعمل في المقهى.. سألتُه:

— هل تعرف أين أجد مجنونا اسمه أشرف يأتي كثيرا إلى هنا.....؟

قاطعها الصبي:

— هل تقصدين أشرف المجنون الذي كان ينام بجوار سور الحديقة؟

— أجل هو

— مات

قالها الصبي هكذا بكل بساطة، فابتسمت سونيا ابتسامة جوفاء، وأعادت:

— أنا أسأل عن أشرف المجنون.....

قاطعها الصبي بنفس البساطة:

— أعرفه أعرفه.. وقلتُ لحضرتك إنه مات.. مات مقتولا

دار بها المكان، وتحجَّرت داخلها كلُّ الكلمات حتى أنها لم تستطع أن تفتح فمها لتسأل سؤالاً آخر.. راح الصبي يتحدث لها ويحكي كيف وجدوه والسكين مغروسا في رقبتة إلى آخره، وقال كلاما كثيرا آخر، لكنها لم تلتقط مِنْ كلامه غير القليل، حتى أنها لم تنتبه للصبي وهو يخبرها بأن رجال الشرطة أخذوا المجنون الآخر يعقوب واتهموه بقتله.. لقد صارت في عالم آخر.

ولم تخرج مِنْ حالتها تلك إلا لتجد نفسها في شقة الحي السادس لتغرق في حالة أخرى، وكلاهما مؤلمتان مليئتان بالحسرة والأسى.. أسرعت إلى هناك لتبكي البكاء الذي لم تبكه منذ وُلِدَتْ.. وكأنها أرادت أن تبكي وتغرق في العويل دون أن يراها أحد، ودون أن يربت على كتفها أحد.. فمن كان يملك وحده اليد الحانية قد مات.. أرادت أن تعيش قليلا أو كثيرا مع أطياف أشرف بالمكان.. لا يهم أي شيء آخر.

وفي دقائق كانت قد استعادت كل قصتها مع حبيبها من أولها إلى آخرها.. تمنّت لو كان الزمن قد توقف عند آخر يوم عاشه سويًا قبل الذهاب لرؤية بيت أشرف بالمقطم.. كم نمت على حنان.. كم تمنّت أن تراها.. أقسمت أن تقتلها، ثم عادت وتخلت أشرف يأتي من ورائها ويمر يديه الحانيتين على شعرها فتلفت له فيساعدها على النهوض حتى يكونا وجهًا لوجه فيمسح دموعها باسمًا قائلا لها:

— حبيبتى لا تحزنى.. أنا معكِ

قالت:

— حقا أنت معي يا أشرف

انتظرت أن يجيبها، لكنها لم تسمع له صوتًا فعاتت تقول:

— أين أنت يا حبيبي.. كيف لمن قتلك أن يقتلك.. ألم ينظر إلى عينيك

الوديعتين؟.. ألم يشعر بطيبة قلبك؟.. ألم يسمع صوتك الهادئ

الرزين؟ أشرف يا حبيبي أين أنت؟

فخيل لها أنها سمعته يقول لها:

— أنا في الجنة.. تعالى لي يا سونيا.. أنا أنتظرك

قالت سونيا:

— كيف آتيك إلى الجنة وأنا محملة بكل الخطايا؟

وخيل لها كأنها سمعت أشرف يقول:

— الله غفور رحيم.. فقط توبي واندمي ثم انهضي واستقيمي وتعالى
إلى الجنة

قالت:

— كيف يا حبيبي؟.. إنَّ جروحي غائرة.. كيف أنهض؟.. كيف آتي؟
جاءها الصوت:

— فقط عليكِ الندم.. فقط توبي.. وعلى الله مداواة الشروح
مسحت دموعها بكل إصرار وقالت:

— أنا نادمة يا أشرف.. أنا تائبة.. فادعُ ربك أن يغفر لي
سمعت صوتاً من داخلها:

— ربي وربك ربَّ غفور رحيم.. فقط هيا انهضي.. أوقفني الخطايا
نهضتُ بكل العزم.. نظرتُ لساعتها فكانت الخامسة.. تذكرتُ أنَّ
عقد القران في الثامنة.. حمدتُ الله.. ما زال الوقت لديها لتلحق بالجميع
وتُوقِفَ زواج الأم من ابنها، وزواج الأخت من أخيها.

وهنا.... سمعتُ صوتَ طرقٍ على الباب.. ظنَّتُ أنه كالصوتِ
الوهمي الذي كانت تسمعه منذ قليل كأنه صوت حبيبها أشرف وهو
صوت ضميرها.. عاد الطرْقُ.. خُيل لها أنه أشرف.. لم يَطْرُقْ هذا الباب
عليها أبداً أحدٌ غيره.. راحت تُمني نفسها قائلة بصوتٍ حالم: (أشرف
حي.. ربما كان صبي المقهى كاذباً أو كان يقصد أشرف آخر)

تقدمتُ نحو الباب وعلى فمها ابتسامة قلقة.. فتحتَه، فأسرَعَ الطارق
الماكر بجسده الضخم إلى الداخل، وأغلق خلفه الباب سريعاً.. برقتُ
عينها وهي تنظر إليه قائلة في ذهولٍ وحزنٍ شديدين:

— يعقوب !!

— نعم أنا

لكنها شعرتُ منذ رأْتُ وجهه أنه ينوي شراً بها.. سألتَه:

— كيف عرفتَ مكان الشقة؟

— كنتُ أراقبكِ

— ماذا تريد؟

— أَلَمْ تعرفي بعد؟

— ماذا أعرف؟

— أني أحبك

قالت له تختبره:

— ألهذا قتلتَ أشرف؟

فضحك يعقوب قائلاً:

— نعم قتلتَه

شعرتُ بحقدٍ وغيظٍ لا حدَ لهما، لكنها تماكنتُ نفسها بكل قوةٍ
وعزم.. قالت:

— بهذه السهولة تقتل صديقك يا يعقوب؟!

اقترب منها وقال:

— مَنْ أجلك أفعل أي شيء في الدنيا يا سونيا

بكْتٌ وهي تقول:

— أنت أكثر مَنْ يعرف كم كنتُ أحبه

فصرخ فيها يقول:

— لماذا تحببته؟.. لماذا؟

قالت:

— أحبه.. فقط أحبه

— ما فائدة مجنون كهذا لك؟

— أحبه

قال يذكرها بشيء:

— ألم تقولي لي يوما لو أنَّ أشرف غير موجود فربما تحببيني؟.. لقد

جعلته غير موجود

— تقتله يا يعقوب؟!.. إذن كيف أحبُّكَ وقد جعلتني بلا قلب؟..

بلا أشرف.. قتلتَ قلبي

فاقترب يعقوب منها قائلاً وهي تتراجع ناحية الحائط:

— لا أريد قلبك.. أريد جسدك

فوقفتُ مستسلمةً وقالت له:

— هذا جسدي يا يعقوب.. تعالِ خُذْ منه ما تريد

فأقبل عليها يتحسسُ جسدها ويقبلها في رقبتها وهو يقول:

— انتظرتُ هذا اليوم كثيرا يا سونيا

لم تَرُدْ، إنها تظاهرتُ بأنها قد صارت تغرقُ معه في النشوة قائلة:

— وأنا أيضا يا يعقوب

أحسَّ بالزهو، وأرختُ نفسها معه لتنسبَ جالسة على الأرض لتقتربَ مِنْ حقيقتها، وهو يتبعها بالقبلات، وييده يضغط صدرها، ثم تمددتُ تحته على الأرض تتظاهر بأنها تتأوه تحت قبلاته وتتحسسه بإحدى يديها في حين راحت بيدها الأخرى تحاول الوصول لحقيبتها على منضدةٍ صغيرة.. ظَلَّتْ تنقل جسدها وهو لا يزال يتبعها غائبا غارقا في النشوة، وتعمّدتُ أَنْ تصرف انتباهه عن مقصدها، فراحت تسأله:

— اتصلتُ بك كثيرا.. لماذا لم ترد على اتصالاتي؟

— كان مقبوضا علىَّ

— وكيف خرجتَ؟

— كالعادة.. ضللتهم.. أوهمتهم أني كنتُ مسجوناً وقت القتل

— كيف؟

— المال يشتري كل شيء

— أنتَ شيطان.. أنتَ إبليس

— أنا تلميذك يا معلمتي

وكانت يدها قد وصلت إلى حقيبتها في هذه اللحظة التي بدأ ينزع ثيابها عنها وثيابه عن نفسه، فأخرجت من الحقيبة سكيناً حادة تعودت أن تجعلها معها دائماً.. راحت تثبت السكين في يدها من خلفه وتستعد للضربه وكان منحنيًا على صدرها العاري، وبكل ما تستطيع من قوة غرست السكين في رقبته وهي تردد:

— معلمتك تابت يا إبليس.. عشقي لأشرف طهرني يا ملعون

ودفعته من فوقها وأصلحت من ملابسها في حين راح يعقوب يشير لها ذاهلاً متألماً دون كلام بنظرات وغمغات غير مفهومة، ثم برقت عيناه وفارق الحياة.

ونهضت واقفة وهي تردد (بدر.. هايدى.. أحلام.. ياسين.. لا بد أن أوقف هذا الزواج)

لكنها عادت فنظرت إلى جثة يعقوب.. ماذا تفعل بها؟.. لا بد أن تخفيها.. عليها أن تنقلها من الشقة.. لكن كيف؟.. إنه ضخّم ثقيل.

نزلت مسرعة واشترت كثيراً من الأدوات.. اشترت منشارا وسكاكين وسواطير وأكياسا وحقائب، وعادت مسرعة إلى جثة إبليس الضخمة.. أدارت موسيقى هادئة على هاتفها، ثم راحت تبكي وتغني مع لحبيها أشرف: (أنا بعشقتك أنا.. أنا كلّي لك أنا.....) وبينما هي

تغني كانت قد بدأت التقطيع إلى أشلاء صغيرة، ثم وزعتها على حقائب كثيرة يسهل حملها.. أنزلتها إلى سيارتها على مرات كثيرة.. فكرت في الصحراء المجاورة لمدينة الرحاب.. أرادت أن تدفنها هناك في أماكن متفرقة لتخفي الجريمة وتعدم الشبهات.

ومنذ خرجت من الحي السادس بمدينة نصر كانت الساعة تقترب من الثامنة.. خشيت أن يُعقد القرائن قبل وصولها.. اتصلت بهايدي وقالت لها دون تردد أو مقدمات: (بدر في الحقيقة هو أخوك وابني.. أوقفني الزواج.. أنا في الطريق إليكم)

ثم اتصلت بياسين وقالت له دون تردد أو مقدمات: (أحلام في الحقيقة هي أمك التي أنجبتك.. أوقف الزواج.. أنا في الطريق إليكم)

تركتها في ذهول وحيرة، وأغلقت هاتفها ثم قادت سيارتها بأقصى سرعة وصورة أشرف معها كأنه يصحبها بالطريق ومعها أيضا يعقوب بسيارتها، لكنه أشلاء.. تريد إخفاءها سريعا مع الماضي اللعين لها.. قادت السيارة بسرعة أكبر تبغي الوصول سريعا لإنهاء مهمتها.. لكنها لن تصل.. انقلبت سيارتها.

تَمَّتْ بِحَمْدِ اللَّهِ..

رضا محمد سليمان

القاهرة: ٢٠١٨/٧/٥ م

المحتويات

الموضوع	الصفحة
كلمة للمؤلف	٥
إهداء	٧
(١) المجنون	٩
(٢) سونيا الغجرية	٢٩
(٣) وبدأ طموح الشر	٤٧
(٤) بيت الدكتور أشرف الأمير	٦١
(٥) كيد النساء	٧٧
(٦) فيلا أحلام المصرى	٩٧
(٧) داخل مستشفى الولادة	١٠٩
(٨) سونيا وتامر الغمراوي	١٢٣
(٩) نهاية تامر الغمراوي	١٤٥
(١٠) بين ياسين وبدل	١٦٣

١٨١	 (١١) الشيطانة تعشق
٢٠٣	 (١٢) يعقوب الأصفر
٢٢١	 (١٣) ماس كهربائي
٢٣٥	 (١٤) همسات عاشقة
٢٤٩	 (١٥) المفاجأة
٢٦٥	 (١٦) زيارة مؤلمة
٢٨١	 (١٧) قواعد العشق عند سونيا
٣٠١	 (١٨) الشيطانة الحائرة
٣١٩	 (١٩) الزائران
٣٤١	 (٢٠) النهاية

للتواصل مع المؤلف

تليفون : ٠١٠٠٥٠٦٤٦٧٤

فيس بوك: <https://www.facebook.com/reda.solimany>

إيميل: redasoliman29173@gmail.com

كُلُّ أنواع الخيانات منبوذة إلا نوعا واحدا، هو أن تخونَ
إبليس الذي اتبعته وصدقت معه كثيرا، فَمَنْ يَكُنْ على طريق
الشر عبر زمن طويل ثم يَعْرِجْ منه للتوبة فهذا أمرٌ محمود.. وفي
هذه الرواية أتحدث عن شخصياتٍ مِنَ العَجَر، هؤلاء الذين
ظلمناهم كثيرا، ووثقنا مِنْ طرق الفهم الخطأ أنهم أصحابُ
شر فقط، وأنهم لا يُبْصِرُونَ أيَّ طريقٍ للهداية.. فهل علمتم
مَنْ هم العَجَر؟ هم جماعةٌ مِنَ الناسِ سكنتُ مصر، وسكنتُ
كلَّ بلادِ الدنيا مِنْ سوريا إلى الصين إلى المجر.. لهم عاداتٌ
خاصة ككل طوائف البشر، فَإِنْ كان فيهم شر فنفسُ الشر في
غيرهم.. وَإِنْ كان في غيرهم خير فقد يكون لدى العَجَر خيرٌ
أكثر.. وفي هذه الرواية نرى كثيرا مِنَ الشر يخرج مِنْ امرأةٍ
عَجرية، لكن نفس هذا الشر وأبشع قد خرج مِنْ غيرها.. فلا
تربطوا الشر والسوء بطائفةٍ معينةٍ مِنَ الناسِ، ربما يقبل الله مِنْ
غيرك ما لا يقبله مِنْك، فيتوب عليهم ولا يتوب عليك.

إلى كل نادمٍ عن الخطايا

إلى كل تائبٍ خرجٍ مِنْ كهفِ الظلمةِ إلى النور

إلى كل خائنٍ

وإلى كل خائنةٍ

..... للإبليس

.. أهدي روايتي

شبه ابتسامة ساخرة ترتسم على فمه، كتلك التي كانت لا تفارقه وهو حي مجنون، إذ ليس مستبعداً أن يكون قد ودّع الدنيا ضاحكاً هازئاً من كل شيء فيها، وقد يكون قد أخرج لسانه لقاتله بطريقة جنونية ذاهلة وهو يطعنه الطعنة الوحيدة القاتلة برقبتة، ومن المتوقع جداً وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن يكون قد ردّد الدعاء لقاتله بالرحمة والمغفرة أكثر من مرة، ثم ردّد الشهادتين رغم جنونه، وذهب إلى مصيره.

مات الرجل المجنون وتمّ قَبْرُهُ بمدافنٍ مجهولة.. مات ولم تُدرَفْ عليه دمعةٌ واحدة، مات ولم تنبعثْ مِنْ حوله آهاتُ حزنٍ، أو تنطلق خلفه صيحاتُ بكاءٍ وعويل، مات ولم تُلَطَّمْ مِنْ أَجَلِهِ خدود، أو تُشَقَّ وراءه ثياب، مات ولم تنحنِ على وجهه امرأةٌ تتلمسه بيديها، وتضم رأسه بين كفيها وترفعها إليها وهي تصرخ وتنقل عينيهما ما بين جسده والسماء كمدا وقهراً عليه، مات المجنون ولم يبكِ حول جثته أطفالٌ له يصرخون باسمه باكين مردين: (أبي.. لا تتركنا.. خذنا معك)، مات ولم يحمل نعشه أخوةٌ له وهم سيكون لفراق رفيق اسمهم إلى الأبد، فالقتيل ما هو الآن



